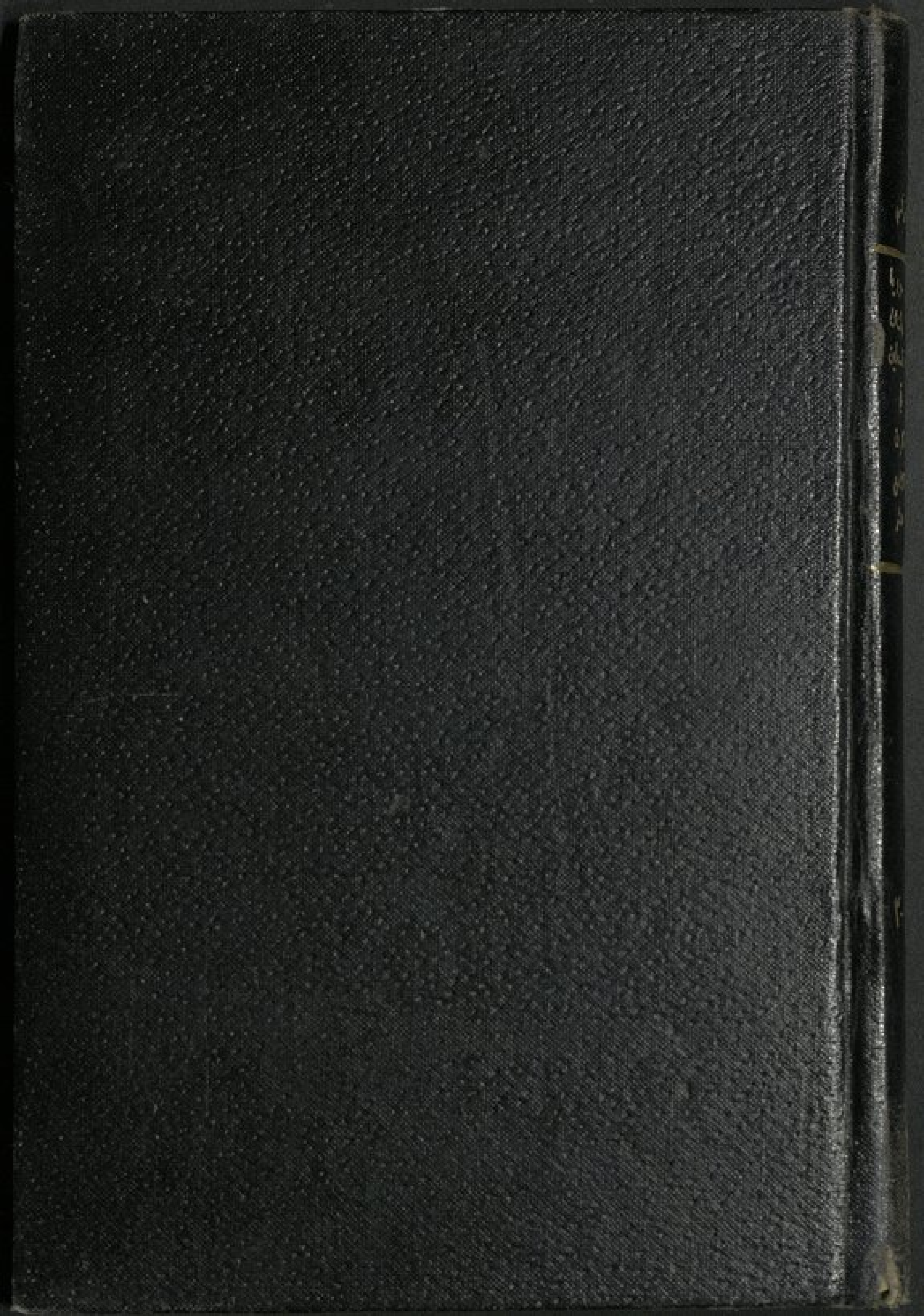
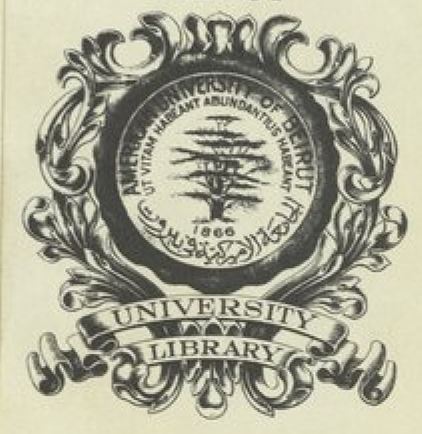



AMERICAN
UNIVERSITY OF
BEIRUT
UNIVERSITY
LIBRARY

سوريا ولبنان وفلسطين

في

القرن الثامن عشر

كما وصفها احد مشاهير الغربيين

بقلم

الاستاذ حبيب السيوفي

الجزء الاول

المطبعة المخلصية
دير المخلص - قرب صيدا (لبنان)

تقديم

للاستاذ حبيب السيوفي قلم سيال في خوض المواضيع التاريخية اللذيذة . وقد طالع قرّاء مجلتنا « الرسالة المخلصية » الشيء الكثير من ذلك . وها هو اليوم يتقدم لنا في هذا الجزء الاول موضوعاً شائقاً عن بلادنا واحوالها وسكانها في القرن الثامن عشر ، ويطرفنا في جزء ثانٍ ببحث جليل عن تقسيم هذه البلاد الى ايالات وولايات وعن افادات اخرى كما رواها احد مشاهير الغربيين الرحالة النقادة ڤولني .

فقد اقتضب السيد السيوفي هذه النبذة المختصرة من كتاب المؤلف المذكور بجزئيه ، بلغة عربية متينة سائغة ، تشهد له بطول الباع في الترجمة والتلخيص والايضاح ... وقد تكرم علينا اعزّه الله بهذه النبذة لنقدمها للرأي العام مطبوعة فتكون ذخيرةً لخزانة الادب والمتأدبين . وقد جعلنا هذا الجزء منها هدية « الرسالة » لهذه السنة فعسى ان يروق القراء الافاضل . ويسبلون ستار العذر على ما وقع فيه من الاغلاط المطبعية فيصلحونها قبل القراءة . والكريم من عذر .

فهرس الكتاب

صفحة

نوطة

تتضمن الصفحات التالية ما كتبه عن سوريا ولبنان وفلسطين ، رحالة بل عالم فرنسي شهير ، جاء هذه البلدان منذ مئة وخمسين سنة ، واقام فيها ثلاث سنين ، فدرس احوالها ، والمّ بشؤونها ؛ ولئلا يفوته شيء مما رام الوقوف عليه ، خالط سكانها ، وتعلم لغتهم وألِفَ عاداتهم . فالمعلومات التي توصل الى احرازها ، سجّلها في كتاب ننقله معرّبين بعضه بتصرف ، وملخصين البعض الآخر بدقة . بيد اننا اهملنا الكثير من آراء المؤلف ، وهو اهمال متحتم ، لم يكن لنا عنه منتدح . وقد ضربنا ايضا صفحاً عن جانب الكتاب الخاص بجغرافية هذه البلاد ، وشرح طبيعتها . واما الحوادث التي جرت في عصر المؤلف ، والتي شهدها بأم عينه ، ووصفه الرائع لما وقع بصره عليه ، فذلك كله يجده القارئ ، كما قلنا ، اما معربا بتصرف ، او ملخصاً بامانة .

المؤلف

هو قسطنطين فرنسوا « ڤولني » [1] ولد في « كروان » احدى مدن فرنسة ، في ٣ شباط سنة ١٧٥٧ واسم اسرته « شاسبوف » [2] . غير ان الاب ابى ان يدعى ابنه بهذا الاسم ، فسماه « بواجيره » [3] .

---

(1) François de Volney, comte et pair de France membre de l'Académie Francaise, membre honoraire de la Société Asiatique séant à Calcutta.

(2) Chasseboeuf

(3) Boisgirats

وكان الاب محامياً لدى الحاكم ، فرغب ان يكون ابنه محامياً مثله ؛ لكن الابن لم يرَ في مهنة المحاماة ما كانت تصبو اليه نفسه . ولمّا اتمّ دروسه ، وكان قد بلغ السابعة عشرة من عمره ، رحل الى باريز ، وبدلاً من ان ينصرف الى اللعب واللهو ، قضى في دار الكتب اكبر جانب من وقته ، مكبّاً على الدرس ، عاكفاً على قراءة المؤلفات التاريخية والفلسفية . ثم اختار الطب مهنة له ، فدرسه ثلاث سنين ، مثابراً في آن واحد على التردد الى دور الكتب ومطالعة المؤلفات المفيدة . ووضع في تلك الغضون كتاباً في علم التاريخ وعرضه على الاكدمية الفرنسية التي خطأت روايته فيه لبعض الحوادث ؛ فبادر الى اصلاح خطأه ، بكتاب آخر دعاه « ابحاث تاريخية جديدة » .

وكان التفكير الطويل يلذ له ، وتتوق نفسه الى بلوغ اقصى درجة الرقي في اقصر ما يستطاع من الوقت . وقد جاءته فرصة سانحة لادراك امانيه ، وهي انه ورث ستة آلاف فرنك ذهب . فعقد من ساعته النية على انفاقها في سبيل سياحة طويلة في انحاء مصر وسوريا . وكان الاوربيون اذ ذاك لا يعرفون من ذينك القطرين الا النزر اليسير . ولم يفته ما كان سيصادف فيهما من الاخطار ، ويتجشمه من المتاعب والمشقات ؛ فقضى سنة بتمامها في التأهب للسفر ، متمرناً على تحمل التعب والجوع والعطش ، وعلى السير الساعات الطوال ، وتسلق الاكام والجبال ، والانحدار في الاودية والوهاد ، واعتلاء صهوة جواد بلا سرج ولا لجام .

واما الاسم بواجيره فانه لم يقع لديه موقع الاستحسان فعزم على ابداله بغيره ، وفاتح في امره عمه ؛ فاتفق كلاهما على الاسم « ڤولني » وهو الاسم الذي اشتهر به بعدئذ .

ففي السنة ١٧٨٤ ركب البحر من مرسيلية ، غير حامل معه سوى بعض

الملابس القطنية وزنار من جلد جعل فيه الستة الآف فرنك التي ورثها .

فلما وصل الى مصر ، توجه الى القاهرة ، فاقام فيها بضعة اشهر ، مراقباً عادات سكانها واخلاقهم ، مجتهداً ان يرى بعينه كل شيء ويسمع باذنه كل قول ، ويطأ كل مكان . وانما كان يعوزه الإلمام باللغة العربية . ولكي يتعلمها سافر الى لبنان ، وانزوى ثمانية اشهر في دير مار يوحنا الشوير . وهنالك كان يقضي الساعات الطوال في محادثة الرهبان عن حالة البلاد وعادات السكان . ولم يبرح الدير الا بعد ما توصل الى التكلم بالعربية ، فودع الرهبان ، وبدأ رحلته بارشاد دليل سار معه في الصحرآء الى شيخ قبيلة كان يحمل اليه رسالة توصية .

فعندما بلغ مخيم القبيلة اهدى الى ابن الشيخ « غدارتين » فسُرَّ بهما الشاب . واما الشيخ فبعدما فضَّ الرسالة وقرأ ما فيها ، قال له : « اهلاً وسهلاً بك ، فامكث بين ظهرانينا ما شئت ، واطلق سراح دليلك الذي لم تبق في حاجة اليه ، واحسب هذا الخبآء بيتك ، وابني اخاك ، وجميع ما املكه ملكك . »

واعجب « فولني » بالمعاملة الطيبة التي لقيها ، ورأى بام عينه كيف يمارس العرب الضيافة ، وكم يفوقون من هذا القبيل ابناء قومه .

فأقام في تلك القبيلة ستة اسابيع ، عائشاً مثلهم ومشاركهم في اعمالهم واشغالهم . ففي ذات يوم سأله الشيخ : هل بلدك بعيدة عن صحرائنا ؟ فشرح له « فولني » عظم المسافة التي تفصل هذه عن تلك . فقال له الشيخ : ولِمَ غادرتها ؟ قال : لأرى بلاد الله وخلائقه . قال : هل بلادك جميلة ؟ قال : هي على جانب كبير من الجمال . فسأله الشيخ : هل فيها مآء ؟ اجابه « فولني » : فيها مآء وافر حتى انك تصادف في اليوم الواحد الينابيع العديدة ، والانهار والغدران الكثيرة . فقال له الشيخ : ففيها مثل هذا المآء وانت تغادرها .

ووَدَّ لو كان يستطيع ان يطيل مدة اقامته في تلك القبيلة ، غير انه كان

يتعذر عليه الاكتفاء بمثلهم بثلاث او اربع تمرات وحفنة أرز في اليوم الواحد .

وشرع من ثم يتنقل من مدينة الى مدينة ومن قبيلة الى قبيلة . فيستقبلونه اينما حلّ مرحّبين به ومؤهلين . فجاب على هذا المنوال مصر وسوريا ، وشاهد الاهرام العظيمة وخرائب تدمر العجيبة .

وقد استغرقت سياحته ثلاث سنين ، وكان قد بلغ من العمر احدى وثلاثين سنة .

ان اول ما بادر الى عمله بعد رجوعه الى الوطن ، نشر مؤلفه « رحلة الى مصر وسوريا » فراج كتابه رواجاً عظيماً . حتى ان القيصرة الروسية كاترينا الثانية اهدت اليه نوطاً ذهبياً جميلا ، إشعاراً باعجابها به . وبونبرت عندما حمل على مصر بعد سنين قلائل ، استفاد كثيراً من المعلومات التي حواها ذاك الكتاب ، كما يؤخذ مما كتبه الجنرال « برتييه » احد قواد الحملة اذ قال : وكان كتابه (الضمير عائد الى ڤولني) دليل الفرنسيين الامين وهو وحده الذي لم يغشهم .

وما عتم ان ذاع صيته وعلا شأنه . وقد اسندت اليه الحكومة الفرنسية منصباً رفيعاً في جزيرة كورسيكا . غير انّ حدثاً خطيراً ، واعني به الثورة الكبرى ، حال فجأة دون قيامه الى مقر منصبه . وعلى اثر ذلك انتخب الشعب نوابه . فكان « ڤولني » احد المنتخبين . لذلك آثر التنحي عن منصبه لاعتقاده انه ليس من الانصاف ولا من اصالة الرأي ان يتقاضى راتباً من الدولة كأحد عمالها ، بعدما انتخبه الشعب نائباً عنه لديها . وقد ابدى في غضون المناقشات التي اشترك فيها في ندوة النواب ما كان متصفاً به من بلاغة لسان وفصاحة بيان وصدق وطنية .

وكان قد تعرّف بالشاب نابوليون بونبرت في اثناء رحلة قام بها ذات يوم

الى جزيرة كورسيكا . وكان بونبرت يومئذ ضابطاً في فرقة المدفعية . وقد استطاع « ڤولني » ان يدرك بثاقب عقله ما كان لبونبرت من الذكاء والنبوغ . ولما علم وهو في اميريكا ، (لان ڤولني رحل اليها في السنة ١٧٩٥) ان بونبرت وُلّيَ القيادة العليا للجيش الفرنسي الذي كان يحارب في ايطاليا ، قال : انْ يصدقِ الدهر ، يرَ العالم فيه نبوغ قيصر واقدام الاسكندر .

غير ان الحريّة التي عُدّت وليدة الثورة ، ما عتمت ان انقلبت الى اباحيّة ، واخذت الفوضى تعيث في فرنسا خراباً . ولم يستطع « ڤولني » ان يدافع من اعلى المنبر عن مبادئ العدل والانسانية ، لذلك بادر الى نشر ارآئه كتابة ؛ فاتُّهِم انه يُغالي الملكية ، فالقي في السجن وقد دام اعتقاله عشرة اشهر ، ولم يفرج عنه الا عندما قضي على حكم الارهاب على اثر ما حدث في ١٧ تموز سنة ١٧٩٤ .

فالحكومة الجديدة التي اخذت على عاتقها اصلاح ما افسدته الحكومة السابقة ، عزمت على الاعتناء بتثقيف الناشئة ؛ فعهدت في ذلك الى اشهر علماء العصر ، ومن جملتهم « ڤولني » الذي دعته الى تدريس علم التاريخ في « دار المعلمين » غير ان ذلك المعهد الشهير ما لبث ان اغلقت ابوابه .

وكان قد تألم في الصميم من حوادث التعدي ومظاهر الاضطهاد والظلم ؛ فعزم على مغادرة وطنه والرحيل الى اميريكا الشمالية التي كانت قد اخذت تسير بخطى واسعة في طريق النجاح والتقدم . فكان يرغب ان يرى بام عينه تلك الحرية الحق التي طالما تاق اليها . بيد انه لم يطل اقامته هناك ، فعاد الى وطنه سنة ١٧٩٨ عندما جاءه نبأ وفاة ابيه . وكان وهو في اميريكا قد انتُخب رفيقاً في ندوة العلماء الفرنسيين (الاكاديمي) .

وكانت الامور حتى بعد عودته مضطربة متقلقلة ؛ فجاءه ذات يوم بونبرت

الذي لم يكن قد رآه منذ عدة سنين وكان تعدد الاحزاب وتجاذبها قد حرما القائد الشاب منصبه ، فقال « لڤولني » : اصبحت الان بلا عمل ، فلا يطيب لي ان اخدم بلاداً تتجاذبها الاحزاب وتتقاذفها الاهوآء . لاجل ذلك عزمت على البحث من مجال آخر لنشاطي . فانت تعرف تركيا حق المعرفة . فجئت استمد منك بعض المعلومات عنها ، واسألك ان تكتب لي رسائل توصية الى من لك فيها من الاصدقآء ، لاني أرغب في الانضوآء الى الجيش التركي ، فيجني من خدمتي في مدفعيته فائدة ذات شأن فاجابه « ڤولني » : بما اني اعرف تلك البلاد ، لذلك لا اشير عليك بالذهاب اليها ، إذ أول ما يعيّرونك به كونك مسيحياً . املك تقول اصير مسلماً . لكن ذلك لا يجديك نفعاً ، وبقدر ما تظهر من مقدرة ونبوغ يزداد نفورهم منك واضطهادهم لك .

فقال بونبرت : اذن لن افكر بعد الآن في السفر الى تركيا ، فسأذهب الى بلاد الروس ، فالقوم هنالك يحبون الفرنسيين ، ويتزلونهم بين ظهرانيهم على الرحب والسعة . والقيصرة كاترين قد اعربت لك عن رضاها منك ، وانت تراسل بعضهم في تلك البلاد ، ولك فيها اصدقآء . في وسعك ان توصيهم خيراً بي .

اجابه « ڤولني » : باعادتي النوط الذهبي الذي أهدته الي القيصرة فصمت علاقتي بروسيا . أجل إن القوم يرحبون بالفرنسيين ، ولكن ليس بالذين عقيدتهم كعقيدتك . فاعدل اذاً عن هذه الافكار ، لانك تجد في فرنسا من يقدّر مزاياك . وكلما توالى بسرعة تأليف الاحزاب قصرت مدة عزلتك .

فقال له بونبرت : ولكني بذلت جهدي بلا جدوى لحملهم على اعادتي الى منصبي .

اجابه « ڤولني » : ستتخذ الحكومة شكلاً جديداً ، ولا شك ان « لريڤيار ليپو » (Larévellière-Lépaux) سيكون له فيها شأن يذكر ،

فهو مواطني وزميلي ، واذا وصيته بك ، كان لتوصيتي مفعول طيب . فسأدعوه الى تناول الطعام على سفرتي غداً ، فتعالَ انت ايضاً فنكون ثلاثة لا رابع لنا .

وفي غضون المأدبة اعجب « لريفيار » بحديث بونبرت ، فاعاده في اليوم التالي الى منصبه . ومنذ تلك الساعة توطدت الصداقة بين بونبرت « وڤولني » .

ولما رجع بونبرت من مصر ، وحاول في ٩ تشرين الثاني سنة ١٧٩٩ ان يلغي مجلس الادراة (Directoire) بادر « ڤولني » الى تأييده . وفي الغد بعث اليه بونبرت بهدية نفيسة ، ولكنه لم يقبلها . وبعد اسابيع قلائل عرض عليه وزارة الشؤون الدخلية ، فرفضها ايضاً .

ومع ما كان عليه من طبع مستقل ونفس ابية ، ظل نحو سنتين أليف بونبرت ، وكان قد بدأ يشعر ان حديثه الصريح الذي لا مواربة فيه ولا مخاتلة ، لم يكن يطيب لبونبرت ، غير ان الالفة بينهما لم يطرأ عليها تغيير ذو بال ، ولم تنفصم علاقتهما الا عندما نودي ببونبرت امبراطوراً . واما تأييده لبونبرت في سعيه لقلب الحكومة في اليوم التاسع من تشرين الثاني لسنة ١٧٩٩ فان الباعث عليه اعتقاده ان تغيير شكل الحكومة يوطد دعائم السلام في البلاد ويضمن لها الحرية والنجاح .

ولابدآء استيبائه استقال لساعته من مجلس الشيوخ ، فحنق بونبرت عليه ، ولما لمحه في اليوم التالي مع الشيوخ الذين جاؤا لتهنئته وقسم يمين الطاعة والولاء بين يديه ، انفرد به وقال له : ماذا فعلت ؟ هل اردت بعملك هذا اعطاء الدليل على مقاومتك لي ؟ او تظن ان استعفاءك سأرضى به ؟ لاجل ذلك ظل ڤولني احد شيوخ الندوة . غير انه آثر اعتزال السياسة والانزواء في الريف ، منصرفاً الى علم التاريخ ودرس اللغات .

فثابرته على التفكير والدرس والتاليف كان من جرائها ان تضعضعت همته

وقصرت حياته . لكنه بقي حتى آخر ساعة من ايامه صاحياً مالكاً لجميع قوى عقله وقد قال للطبيب الذي عاده قبل وفاته بثلاثة ايام : من عادتكم انتم الاطباء ، ان تكتموا عن المرضى والمدنفين دنو اجلهم ، لئلا تلقوا الرعب والقنوط في قلوبهم . واما انا فاني لا اخاف من الموت ؛ فبربك قل لي ما هي حقيقة رأيك فيّ ، لاني اكره أن أقضي نحبي قبل فراغي من معالجة بعض الامور . ولما بدت على الطبيب امارات الحيرة ، قال له : قد ادركت الحقيقة ، فعليّ في الحال بكاتب بالعدل .

وكانت وفاته في ٢٥ نيسان سنة ١٨٢٠ وله من العمر ثلاث وستون سنة .

ان فولني كان مزداناً باسمى الصفات ، فكان كريماً ، مخلصاً ، محباً للفقير ، متمنياً من كل قلبه سعادة البشر ، ساعياً اليها بكل قواه . وكان من محبذي الثورة الكبرى ، لانه كان يعشق الحرية ، ويؤلمه ان يرى الاستبداد يثقل كاهل الشعب . بيد انه انتقد بشجاعة فائقة ما ارتكبه من الفظائع بعض رافعي لواء الثورة والنافخين في بوقها ؛ فكان جزاؤه السلاسل والسجن . وكادت آخرته تكون كآخرة الكثير من الذين سفكت دماؤهم ظلماً .

كان فولني ابن عصره ، عصر الكفر والالحاد ، لذلك لا تخلو كتبه من بعض الآراء التي تخالف تعاليم الدين .

حبيب السيوفي

دمشق سنة ١٩٢١

سكان سوريا

شُنَّ على سوريا في خلال الفين وخمسمئة سنة نحو عشر غارات كان على اثر كل غارة يدخلها شعوب غريبة . واول من جاءها اشوريو نينوى الذين عبروا نهر الفرات في القرن الثامن قبل المسيح ، واستولوا في برهة ستين سنة على البلاد الواقعة شمالي اليهودية . فكلدان بابل ، الذين كانوا خاضعين لهم ، ما لبثوا ان خلعوا نيرهم بل انتصروا عليهم ، وانتزعوا منهم البلاد المسيطرين عليها ، بما فيها سوريا باجمعها ما عدا جزيرة صور . ثم خلفهم الفرس ، فالمكدونيون ، فالرومان .

ولما تقاسم ابناء ثيودوسيوس ارثهم المترامي الاطراف ، غيرت سوريا العاصمة ، لكنها ، لم تغير المولى ، فضمت الى دولة القسطنطينية ، وظلت خاضعة لها ، الى ان انضوى العرب تحت لواء النبي ، واغاروا عليها . وقد نشبت فيها بعدئذ حروب اهلية اوقد نارها الامويون ثم العباسيون فالفاطميون ثم انتزعها من يد الخلفاء عمالهم المتمردون ، ومن يد هؤلاء العصاة الجنود التركمانيون . وتسابق اليها بعدئذ الصليبيون ، واستعادها منهم المماليك ، وغزاها تيمورلنك ، ثم فتحها الاتراك .

فالحروب والفتوح اوجدت في سوريا شعباً غير متجانس ؛ لذلك يجب الا ننظر الى السوريين نظرتنا الى امة واحدة بل الى مزيج امم ، وهم ذراري الذين اخضعهم العرب بفتح بلادهم ، وذراري العرب الفاتحين ، والاتراك المسيطرين الان على سوريا .

والى سكان سوريا من قرويين ومدنيين يجب اضافة ثلاثة شعوب رعاة

رحل ، وهم التركمان والاكراد والبدو .

فهؤلاء هم الشعوب المقيمون في البلاد الممتدة بين البحر والصحراء من غزة الى الاسكندرون .

ومما يسترعي الانتباه ان الامم القديمة ليست ممثلة في سوريا تمثيلاً تاماً ؛ فان طباع سكانها قد تكيفت بطباع الروم الذين بعدما اقاموا فيها منذ الاسكندر المكدوني قد توصلوا الى الامتزاج بسكانها امتزاجاً كاملاً .

وسوريا لم توصد ابوابها في وجه الغرباء ، بل كانت تتلهم على الرحب والسعة . وقد استطاع الجميع فيها ان يتألفوا فيها تألفاً وثيقاً باختلاط دمهم على غرار ما هو جار في جنوب اوربة . ذلك ان استثنينا ما يعود الى الفرق الناجم عن الهواء (المناخ) الذي يجعل سكان السهول الجنوبية اكثر اسمراراً من اهل الجبال .

قد افاض بعضهم في اطراء بياض نساء دمشق وطرابلس ؛ فنحن نصدق ما يقال لنا من هذا القبيل ، ولو ان البرقع الذي يستترن به لا يتيح لاحد ان يصفهن وصفاً صحيحاً . بيد اننا نجد القرويات في كثير من الاماكن سوافر من غير ان يكن دون اولئك حشمة وعفة . وفي فلسطين النساء المتزوجات سوافر ايضاً . غير ان الشقاء وشظف العيش لم يترك عليهن اي مسحة من الجمال ؛ فالعيون وحدها تحتفظ بجمالها . والبستهن الفضفاضة الطويلة تخفي على الناظر اليهن شكل قوامهن . لقد يعوزهن احياناً الرشاقة ، ولكن تناسق الاعضاء لا يعتوره عيب ؛ ولم يتذكر ڤولني انه رأى في سوريا او مصر أحدبين او رجلين مشوهين تشويهاً طبيعياً . انهم لا يعرفون هنالك قيمة القوام النحيف المشرق الذي يرغب فيه الفرنسيون كثيراً ؛ فنحافة الابدان غير مستحبة في الشرق حيث الفتيات وامهاتهن يتفقن على استعمال وصفات غريبة ليكسبن بدانة .

ان قوام السوريين هو على العموم معتدل ، فهم على مثال سكان البلاد الحارة اقل صحناً من سكان الشمال . ومع ذلك تجد في المدن اناساً عجراً تدل ضخامة بطونهم على ان الغذاء اشد مفعولا من الهواء .

وليس في سوريا امراض خاصة ما عدا « حبّة حلب » التي سيأتي الكلام عليها في سياق حديثنا عن حلب . واما الادواء الكثيرة الحدوث فهي الزحار والحمى الناجمة عن اكل الفواكه الرديئة ، والجدري الخبيث ، والم المعدة الذي هو داء عام لافراطهم في اكل الثمار الفجة والعسل ، والجبن ، والزيتون ، والزيت الحار ، واللبن الرائب الحامض ، والخبز القليل الاختمار .

ان العربية لغة السوريين ؛ وقد روى نيبوهر Niebuhr ان بعض القرى الجبلية ما زال سكانها يتكلمون بالسريانية . وقد استعلم فولني بعض الرهبان حقيقة الامر ، فما من احد اكد له ذلك ، وانما قيل له ان سكان قريتي معلولا وصيدنايا يتكلمون بلغة فاسدة ، يصعب فهمها على الذين لا يعرفونها . ففي سوريا كما في سائر البلاد العربية تتغير اللهجات بتغير الجهات ؛ فيمكن والحالة هذه عد السريانية بين اللغات البائدة . والموارنة الذين يستعملونها في صلواتهم البيعية ، لا يفهمونها . وكذا اليونانية ، فضئيل جداً عدد الروم من ارثوذكس وكاثوليك الذين يفقهونها .

ولا يتكلم بالتركية في سوريا الا رجال الجيش وارباب المناصب وعشائر التركمان[1] . والبعض من سكان سوريا الاصليين يتعلمونها نظراً الى حاجتهم اليها في قضاء اشغالهم ، كما ان الاتراك يتعلمون العربية لافتقارهم اليها لدى

---

(١) يتكلم سكان اسكندرونة وبيلان بالتركية ؛ ويمكن اعتبار هذين البلدين حدوداً افرمانية حيث اللغة التركية هي الشائعة .

تعاملهم مع العرب . غير ان لفظ هاتين اللغتين لا مجانسة بينهما ؛ لذلك تظلان متباينتين متنائيتين ؛ فافواه الاتراك المعتادة تفخيم الكلام لا تستطيع الا فيما ندر ان تنطق باللغة العربية على اصولها . والذين العربية لغتهم ليس نطقهم بها مماثل في كل مكان ؛ فعربية السوريين اكثر خشونة من عربية المصريين . ولغة علماء القاهرة يعدونها مثال الطلاوة والسلاسة . واما لغة اهل اليمن والساحل الجنوبي اكثر عذوبة ، ولها طلاوة تثير الاعجاب كما شهد بذلك نيبوهر .

وقد حاول بعضهم ان يثبتوا ان هنالك علاقة بين اللفظ بلغة ما وهواء البلاد التي سكانها يتكلمون بها؛ فزعموا ان سكان الشمال يخرجون الكلام من شفافهم واسنانهم اكثر من سكان الجنوب . ولعل هذا القول صائب ، بالنظر الى بعض انحاء اوربا؛ وانما الاخذ به اجمالا يتطلب درساً دقيقاً طويلاً . وعلى المرء ان لا يبدي رأياً في شأن اللغات الا بحذر لئلا يقيس لغة غيره على لغته ، فيكون رأيه طائشاً .

وشعوب سوريا يقيم بعضهم حيثما تيسر لهم ، والبعض يقطنون في اماكن خاصة بهم . ويسكن الاتراك في المدن حيث يقلدون المناصب المدنية والعسكرية . واما العرب والروم فانهم يقيمون في المدن والقرى ، مؤلفين طائفة الفلاحين في الارياف ، والجماعات في المدن ، واما الناحية التي يكثر فيها قرى الروم فهي ولاية دمشق .

والروم الكاثوليكيون ، وهم اقل عدداً من اخوتهم الارثوذكسيين يقطنون في المدن ، حيث يتعاطون التجارة والصناعة . وحماية الفرنج لهم في الآونة الاخيرة اعطتهم السبق على غيرهم في المدن التي فيها تجار اوربيون .

ويؤلف الموارنة امة مستقلة في البلاد الواقعة ما بين نهر الكلب ونهر

البارد ، وهي الممتدة من قم الجبال شرقاً الى ساحل البحر الابيض غرباً .

ويتاخم الدروز الموارنة ، فاراضيهم تمتد طولاً من نهر الكلب الى قرب صور ، وعرضاً من البحر الى وادي البقاع .

وكانت بلاد المتاولة تشمل وادي البقاع حتى صور . غير ان هذا الشعب كاد يمسي من الشعوب البائدة من جراء ثورة قاموا بها .

ويقيم النصيرية في الجبال ما بين نهر عكار وانطاكية ، مؤلفين عدة عشائر كالكلبية والقدموسية والشمية .

واما التركمان والاكراد والبدو فليس لهم سكن ثابت ، فهم كلهم رحل يتنقلون دوماً بخيامهم وقطعانهم في اراض يعدونها ملكهم . وتؤثر القبائل التركمانية النزول في سهل انطاكية . ويفضل الاكراد الجبال التي ما بين اسكندرونة والفرات . ويتنقل العرب في الاماكن التي على الحدود الفاصلة صحراءهم عن سوريا ، ويتغلغلون في السهول الداخلية كسهول فلسطين والبقاع والجليل .

التركمان

التركمان طائفة من الطوائف التترية ، وقد انتزحوا من بلادهم على اثر الاضطرابات العنيفة التي حدثت في بلاد الخلفاء ، فانتشروا في سهول ارمينية وآسيا الصغرى .

ان لغتهم التركية ، وهم رحل كالبدو ، ورعاة مثلهم ، يقطعون المسافات الشاسعة لرعي قطعانهم الكثيرة . والاماكن التي يترددون اليها وافرة المراعي والكلاء ؛ ففي وسعهم رعي اغنامهم من غير ان يتفرقوا على غرار قبائل

الصحرآء .

وكل واحدة من عشائرهم تتخذ لها زعيماً تدعم سلطته العادات المألوفة عندهم . ان مجتمعهم متآلف ، وافرادهم متساوون ، وكل منهم مضطر الى تقلد سلاحه عند الضرورة للذود عن عياله وماله . وتقوم ثروتهم بما يملكون من ابل وبقر ومعز وغنم . وغذاؤهم الالبان والزبدة واللحم ، وما يفيض عنهم يبيعونه في المدن والقرى . ويكثر عندهم غنم النحر ، فيقايضون عليه بالملابس والحبوب والسلاح ، او يبيعونه نقداً ونساؤهم يغزلن القطن ، وينسجن السجاد وقد اشتهرن بصنعها منذ القدم . واما الرجال فاعمالهم مقصورة على رعي مواشيهم ، فتجدهم دوماً ممتطين صهوة جيادهم ، ورماحهم على كتفهم ، وسيوفهم الى جنبهم ، وغداراتهم في نطاقهم . فهم فرسان اشدآء ، ورجال حرب اقويآء ، لا يبالون بالتعب ولا يكترثون لشظف العيش . وكثيراً ما ينشب النزاع بينهم وبين الاتراك الذين يجاورونهم ، ولكنهم غير متحدين ، فليس لهم التفوق الذي يؤهلهم له بأسهم .

ويُظن ان المقيمين منهم في ولايتي حلب ودمشق ، وهما الولايتان اللتان يترددون اليهما ، يناهز عددهم الثلاثين الفاً . ويرحل اكثرهم في فصل الصيف الى ارمينية وقرمانية حيث يتوفر الكلأ ، ويعودون في الشتاء الى اماكنهم المعتادة في سوريا .

والتركمان مسلمون ، لكنهم لايحفلون بامور الدين . واما اخلاقهم فلا يستطيع معرفتها حق المعرفة الا من عاش بين ظهرانيهم . ويقال عنهم انهم كرمآء كالعرب ويقرون الضيف . وهم على جانب طيب من العيش من غير ان يكونوا اغنياء ، ومتمرنون على القتال ، وصابرون على الشدائد ؛ فهم اذن في مأمن من فساد الاخلاق الذي يعتري اهل المدن او من الذل الذي يرزح تحته سكان القرى .

عرب البادية

رأى « ڤولني » البدو في مصر ، لكنه لم يتحدث عنهم باسهاب في كتابه عن مصر ، لانه كان عندئذ عابر طريق ، ويجهل لغتهم ، ولذلك لم يستطع ان يلمّ بحقيقة حالهم . غير انه عرفهم في سوريا حق المعرفة ، ومضى الى احدى قبائلهم الضاربة خيامها على مقربة من غزة ، وعاش ردحاً بين ظهرانيهم ؛ فتوصل الى جمع معلومات جمة شرحها باسهاب . فمن رأيه اننا عندما نتحدث عن العرب ، يجب ان نميز بين فلاحيهم ورعاتهم . والفرق في عيشة كل من الفريقين ناجم من عوائدهم وطباعهم ونزعاتهم ، وهو فرق يجعل كلّا منهم غريباً عن الآخر . فالذين ليسوا برُحّل يقيمون في أماكن لا يبرحونها قط ، وحالتهم الاجتماعية تشبه من عدة أوجه حالة سكان المدن .

واما البدو الرُّحّل الذين لا يربطهم بأرض سوى المنفعة الزمنية ، فينقلون خيامهم من مكان الى مكان ؛ فليسوا هم من الشعوب المتحضرة ، ولا من الاقوام المتوحشة ، ويحتلون بالصحارى المترامية الاطراف الممتدة من تخوم بلاد فارس حتى سواحل مراكش ، مؤلفين جماعات وقبائل مستقلة ، وفي غالب الاحيان متعادية . غير اننا نستطيع ان نحسبهم شعباً واحداً . ووحدة اللغة هي الدليل الاكبر على انهم من ارومة واحدة ؛ انما قبائلهم الافريقية هي الاحدث مهداً ، بما انها جاءت افريقيا بعد فتح الخلفاء لها . واما قبائل بادية العرب فان منشأها يعود الى اقدم العصور ، ومتسلسلة على التوالي حتى عصرنا ، فهي التي يتكلم عنها « ڤولني » في الصفحات التالية لانها الاقرب من موضوع حديثه ، وعليها يطلق عادة الاسم « عرب » فهي الاكرم اصلاً

والاقدم عهداً ؛ وقد يضيفون الى هذا الاسم ، اللفظة « بدو » التي تعني سكان البادية .

وليس من العبث ان يفتخر اهل البادية بكونهم اعرق العرب نسباً ، او ان يباهوا بأن ما من امة استطاعت ان تحافظ مثلهم على كيانها . والحق ان بلادهم لم يقوَ احد على السيطرة عليها ، وفي اثناء فتوحهم لم يمتزجوا بغيرهم . والفتوح التي ينسبونها الى العرب عامة تعود في الاصل الى قبائل اليمن والحجاز ؛ فالقبائل المقيمة في قلب البادية لم يغادرها في عهد النبي سوى عدد ضئيل من افرادها ، مدفوعين بعامل الطمع ، لذلك يعدهم النبي كفاراً وعصاة . ومنذ ذلك الحين لم يطرأ عليهم تغير ذو بال ، بما انهم حافظوا على عاداتهم واستقلالهم ، حتى اننا نجد اليوم في محيطهم ما ذكرته عنهم اقدم الروايات .

وقد يتعذر علينا ادراك العوامل التي تجعل فريقاً من البشر يؤثرون حياة لا تطيب لنا ، حتى اننا لا نتصور الاّ بصعوبة ما هي الصحراء ، او ما هي البواعث التي تحمل بعض البشر على الرغبة في الاقامة باصقاع جدباء . فن يمعن الفكر في الامر ، يجد ان عاملين اولين يحملان شعوباً اسيوية عديدة على قضاء العمر في رعي المواشي والانتقال من مكان الى مكان ، هما في المقام الاول طبيعة الارض الغير الصالحة للزراعة ، فهي التي تدعو المرء الى الاعتماد على الحيوانات المكتفية بحشائش البرية ؛ فان كانت الحشائش متفرقة رعى حيوان واحد ما ينبت منها في بقعة كبيرة . لذلك تقضي الضرورة بجوب اراضٍ واسعة لاجل الحصول على المراعي التي لا غنى عنها .

والعامل الآخر فساد الحكم الرازحة البلاد تحته ، اذ معظم الاراضي التي يتردد اليها الاكراد والتركمان على تخوم سوريا ، وفي جهات دياربكر

ونواحي الاناضول ، تصلح للفلاحة والزراعة ، بل هي خصبة ايضاً . لكن الدولة التي لا تكترث لمصير رعاياها ، تنكد عيشهم معسرة عليهم سبل الارتزاق ، بارهاقهم ظلماً ، وتركها اياهم يتخبطون في لجج الفوضى والاضطراب فهي اذاً المسؤولة في الاصل عن عدم استقرار تلك القبائل في صقع واحد . ومما لا ريب فيه ان هؤلاء الرحل يؤثرون الاقامة في مكان واحد ان تسنى لهم ان يعيشوا فيه بامان واطمئنان ، فيصبحون مع الايام فلاحين ؛ وبالعكس اذا دفع الاستبداد سكان قرية الى اليأس ، يهجرون حقولهم وبيادرهم ، وينتزحون عن ديارهم ، لاجئين الى الجبال ، وطائفين في السهول ، ناقلين سكنهم من مكان الى آخر ، وبغيتهم اجتناب ما يكدر صفاء عيشهم وكثيراً ما يصبح بعضهم لصوصاً وقطاع طرق .

وطبيعة الصحراء هي التي تحمل البدو على ان يكونوا رحلاً ؛ ولكي نعرف ما هي تلك الصحارى ، علينا ان نتمثل سهولاً عظيمة الاتساع ، لا منازل فيها ولا ماء ولا جبال ، تظللها دوماً سماء حارة الهواء صافية الاديم . يضيع البصر في افقها المتساوي كالبحر الذي لا نهاية له ؛ او علينا ان نتخيل اماكن تعلو ارضها وتهبط على التوالي كالامواج ، او تحمل على سطحها الحصى والصخور ، وهي عارية على الدوام ، ليس عليها سوى نباتات متفرقة ، او شجيرات عوسجية متشعثة ، لا يقلق عزلتها الا بعض الجراد والجرذان او الارانب والغزلان .

تلك هي على وجه التقريب البلاد الواقعة ما بين حلب وبحر العرب ، وبين مصر وخليج العجم في بقعة طولها نحو ستمئة فرسخ ، وعرضها نحو ثلاثمئة . ففي هذه الشقة الفسيحة ليست التربة واحدة ، بل هي خصبة على الحدود السورية وشاطئي الفرات ، وجيرية بيضاء في الداخل من الجانب الجنوبي ، وصخرية

في برية التيه والحجاز ، ورملية في الجانب الشرقي من اليمن .

ففي الاماكن الماحلة القليلة النبات ، تتضاءل القبائل وتتباعد مضاربها ؛ وحيثما تكن الارض جيدة التربة ، ترِدد فيها القبائل وتتدانُ مخيماتها .

ومحل الصحراء ناجم على الاخص من قلة الينابيع فيها ؛ فمطر الشتاء لايوجد العيون فيها ، ولا يحدث جداول دائمة . لذلك سكان تلك الانحاء ينتقرون الى الماء في شهر الصيف . فجفاف واحد يذهب بغلة سنة كاملة ، مجتلباً المحل والجوع والعطش . وليس حفر الابار هناك بالامر العسير ، إذ إن الماء ينبجس على عمق يسير ؛ غير انه زعاق . فاذا جف الماء ، وانتشر الجوع والعطش ، هجر السكان اراضيهم وارتحلوا بقضِّهم وقضيضهم عن ديارهم .

فبلاد هذا هو شأنها ، حالتها غير مستقرة ، وحكومتها غير حسنة ، يُفضل اهلها عيشة الرعيان الرحل على عيشة الفلاحين الثابتي السكن .

وفي الارض الصخرية او الرملية تنبت الحشائش على اثر سقوط المطر ، ويحيا العوسج والشيح والحواذن ، ويحدث في الاماكن المنخفضة مستنقعات ينمو فيها العشب والقصب ؛ فيكتسي حينئذ السهل بحلة خضراء ، فيكون الفصل فصل خير وفيض للقطعان واصحاب القطعان . غير ان ذلك كله يزول ويضمحل برجوع القيظ ؛ فلا يبقى حينئذ على تلك الارض الناعمة القهباء سوى سوق قاسية كالحطب لا تقوى الماشية على رعيها ؛ فتصبح البادية غير صالحة للسكن ، ويضطر اهلها الى الرحيل عنها .

على ان الطبيعة تداركت الامر ، فاوجدت في البادية حيواناً خشن الطباع ، قنوعاً ، زاهداً في الاكل والشرب . وذلك الحيوان هو الجمل ، وهو الوحيد الذي يناسب هواء تلك الاصقاع مزاجه . فالخالق عزّ وجلّ قد جعل بحكمته الازلية طباع هذا الحيوان تلائم صفات البادية واحوالها فوضعه في اراضٍ جدبة ،

وكونه بشكل يساعده على تجشم التعب ، وتحمل عذاب الجوع والعطش . فلم يعطه شكل البقر ، ولا طبيعة الخيل ، ولا هيئة الفيلة ، بل جعل له رأساً صغيراً في آخر عنق طويلة ، وفكاً قوياً يمكنه من سحق اصلب العلف . ولئلا يأكل كثيراً ضيق له معدته ، وصيره مجترًا وجرد سيقانه وافخاذه من العضلات التي لا تفيده في حراكه، وكسا قدمه بكتلة من اللحم؛ فقدمه تزلق على الوحل ولا تقوى على تسلق المرتفعات ، فلا يستطيع السير الا على ارض جافة مستوية . وأعده سبحانه وتعالى ليكون عبداً صبوراً خضوعاً . فلذلك لم يسلحهُ بانياب للدفاع بها عن نفسه، ولا جعل له قرن الثور، ولا حافر الفرس ، ولا سن الفيل، ولا خفة الأيل . فماذا يستطيع الجمل فعله اذا هجم عليه الاسد اوالنمر او الذئب. ولئلا تفنى فصيلته واراه في البراري الفسيحة الارجاء حيث لا نبات، ولا شجر، ولا خضرة تجلب اليها الطرائد فلا تدنو منها الوحوش الضارية المفترسة .

ولما دجن الجمل صار الواسطة التي جعلت أجدب ارض صالحة للسكن . فهو وأنثاه يمدان صاحبهما بكل ما يحتاج اليه ؛ فحليب انثاه يغذي البدوي وعياله؛ وكثيراً ما يأكلون لحمها ايضاً، ويصنعون النعال والسروج من جلدهما، والملابس والاخبية من وبرهما . واذا بخلت الارض بعلف على الفرس التي يعزها البدوي ، بادرت الناقة الى تغذيتها بحليبها ؛ ولم يكلفا صاحبهما بدل ذلك كله سوى الشيء اليسير من العوسج والشيح وبضع نوى مسحوقة .

فتلك هي أهمية الجمل في البراري والصحارى ، فلو اقصوه عنها لغادرها جميع سكانها ، وهم الذين يعتمدون عليه وحده دون سواه ؛ وتلك ايضاً هي حالة البدو التي خصهم الله بها ليجعل منهم شعباً فريداً بمعنوياته وماديانه . فهذه الصفات المميزة جعلت حتى جيرانهم السوريين ينظرون اليهم بعجب . وهؤلاء البدو هم على الاخص قبائل عنزة وخيبر وطي . ولما جاء بعضهم

عكا في ايام الشيخ ظاهر العمر ، كان لمنظرهم تأثير غريب بما كانوا عليه من نحافة خصر ، ونحول جسم ، واسمرار بشرة : فسيقانهم العارية الدقيقة لم يكن فيها سوى عضلات . وبطونهم كانت تبدو كانها لاصقة بظهورهم . وأما شعرهم فمجعد كشعر الزنوج . وهم ايضاً قد دهشوا مما رأوا : فكانوا يسألون بذهول كيف تستطيع البيوت والمآذن البقاء منتصبة في الهواء ؛ وكيف يجرؤ الناس على الدنو منها او الإقامة تحتها ؛ ولمَ يرضون بالسكن في مكان واحد ، ولا ينتقلون الى غيره . والأمر الذي أثار فيهم منتهى الدهشة البحر ، فإن مظهره فاق كل ما امكنهم تصوره . وقد حدثوهم عن الجوامع والمساجد والوضوء والصلاة ؛ فكانوا يسألون ماذا يعني كل ذلك ، ومن هم موسى وعيسى ومحمد . ولماذا الشعب الذي لا يؤلف عدة قبائل يخضع لعدة زعماء .

واما العرب المقيمون بالأراضي الواقعة على الحدود فانهم اكثر خبرة من بدو الصحراء ؛ فبعض قبائلهم الصغيرة تقيم في سهل البقاع ووادي الاردن وبلاد فلسطين ، لا كبير فرق بينهم وبين الفلاحين ؛ غير ان بدو الصحراء ينظرون اليهم بازدراء ويعدونهم عرباً غير أقحاح وعبيداً للاتراك .

والبدو على العموم صغار القامة ، نحاف الجسم مسفعو البشرة وهذه الصفات اكثر ظهوراً في بدو الصحراء منها في العرب المقيمين بالاراضي الواقعة على الحدود ، وأقوى في هؤلاء منها في جيرانهم الفلاحين . وقد نجد مثل هذا الفرق حتى في حيّ واحد . فالمشايخ اي الأغنياء وخدمهم هم في الغالب اكثر بدانة واطول قامة من غيرهم . ويمكن عزو ذلك الى غذائهم ، فالغذاء اليومي للرجل الواحد من عامة الشعب لا يتجاوز وزنه غالباً مئة وثلاثة وثمانين غراماً ، وهو امر يصعب تصديقه . وهذا الزهد في الاكل يبلغ اقصاه في عرب نجد والحجاز : فستّ أو سبع تمرات مغمّسة في السمن ، ومقدار ضئيل من الحليب

او اللبن يقوم بمؤونة المرء في اليوم الواحد . واذا تيسّر لاحد ان يضيف الى ذلك شيئاً من الطحين الخشن والارز، حسب نفسه سعيداً . واللحم لا يأكلونه الا في المواسم ، ولا ينحرون الجداء إلا في الاعراس والمآتم . فزهد كهذا من شأنه ان يجعل البدوي العادي يقدم على أكل احقر الطعام ، حتى انه لا يستنكف من أكل الجراد والجرذان والحراذين والأفاعي المشوية . ونفس هذا الزهد هو الذي يسوق البدوي الى التعدّي على الزرع وسلب السابلة . فزهدهم في الأكل ، بل فقرهم ، يجعلهم نحاف الجسم صغار القامة ، خفاف السير . واما دمهم فلا يخلو من المصالة ، ويفتقر الى الحر الشديد لكي يظلّ سايلاً . ولكنه طاهر نقي . لذلك الامراض عندهم اقل وقوعاً منها في البلاد العامرة .

إذن ليس زهد البدو في الاكل والشرب فضيلة ، وليس هوآء بلادهم هو وحده الذي يضطرهم اليه . ولا ريب ان طريقة تغذيتهم تحول دون تمدد معدهم . فتمكنهم من تحمّل هذا الزهد او التقتير الذي سببه الاول والأكبر عندهم كما عند غيرهم ، هو إمّا الضرورة التي تفرضها عليهم طبيعة أرضهم ، وإما حالتهم الاجتماعية كما سيأتي شرحه .

قد مرَّ بنا ان البدو يؤلفون عدّة قبائل ، تتخذ كل واحدة منها أرضاً فسيحة تعدها ملكاً لها ، لكي تستطيع ان تجد لمواشيهـا المراعي التي لا غنى عنها على مدار السنة . وكل قبيلة تؤلف مخيماً او عدة مخيمات متفرّقة في تلك الارض ؛ فإذا ما رعَت انعامها مـا على بقعة من العشب ، ساقتها إلى بقعة اخرى . وقد يكون هنالك بعض البقع التي ترى تارة مأهولة وتارة مهجورة . غير انه لا غنى للقبيلة عن تلك الارض بكاملها كل ايام السنة . فإذا قبيلة اخرى او بعض الأفراد دخلوا ارضاً ليست ارضهم عوملوا

معاملة اللصوص والاعداء ؛ فتنشب حينئذ الحرب فيما بينهم ؛ وبما ان قيود قرابة او بنود محالفة تربط بين قبيلة واخرى ، فلذلك تصبح الحروب شاملة ؛ فها ما يحدث عندئذ : عندما يعلم رجال القبيلة بوقوع التعدي على ارضهم يمتطون جيادهم ، ويجدون في اثر المعتدي ؛ فيتلاقى الفريقان ، ويتفاوضان ؛ وقد يتصالحان ؛ والا فانهما يتهاجمان ، ويتدانيان وهما يجريان بمنتهى السرعة ورماحهما منكوسة ؛ وقد يترامبان بها مع هي عليه من طول ؛ فينهزم عندئذ احدهما ، والصدمة الاولى هي الفاصلة ، والمغلوب يفرّ بسرعة من وجه الغالب ، فيواريه عادة سواد الليل . والقبيلة المغلوبة تبادر الى قلع خيامها ، وتمتد سائرة ليل نهار ، لتلجأ الى حلفائها . فالظافر الذي يكون قد بلغ مرامه ، يستولي على قطعان خصمه ، ويستاقها الى حيّه ؛ فيرجع بعدئذ المنهزمون الى ارضهم . واذا وقع قتلى في المعركة ظل الحقد ناشباً اظفاره بين الفريقين .

ان مقتضيات الامن في تلك القبائل اوجدت منذ أقدم العصور شريعة عامة توجب سفك دم القاتل ثأراً لدم القتيل . وحقوق الاخذ بالثأر تعود الى اقرب الناس من القتيل . فان تهاون في ذلك لحق به العار والشنار . لاجل ذلك يظل يتحين الفرص للانتقام . واذا هلك خصمه من جراء عوامل غريبة عنه ، فذلك لا يشفي غليله ؛ فيأخذ عندئذ ثأره من اقرب الناس الى الخصم . وتلك الاحقاد يتوارثها البدو خلفاً عن سلف ، ولا تخمد الا بانقراض احد الفريقين ، او باتفاقهما على قتل المذنب ، او دفع الدية ان مالاً وان مواشي . وفي ما خلا ذلك لا يبرم صلح ولا تعقد هدنة ، ولا تتم مصاهرة بينهما او وبين القبيلتين المنتميين اليهما ؛ فيقول بعضها لبعض لدى كل سانحة وبارحة « بيننا دم » فهذه العبارة هي بمنزلة حاجز لا يمكن خرقه . وبما ان الحوادث التي من هذا القبيل تزداد مع الايام ، لذلك يظل النزاع قائماً بين معظم القبائل

التي تمسي في الحالة حرب دائمة ، وهو امر يجعل افرادها رجال حرب متأهبين لخوض المعامع في كل ساعة .

وطريقة نصب خيمهم تجعل لمحلتهم شكل حلقة غير متساوية الاستدارة مؤلفة من جملة خيام بابعاد متفاوتة ، فينصبونها على ثلاثة او خمسة أبونة علوها خمس او ست اقدام . ومخيم كهذا يرى من بعيد كأنه بقع سوداء . غير ان عين البدوي الحادة النظر لا يفوتها تمييزه .

وكل اسرة تقيم بخيمة يشطرها حجاب شطرين ، يخصون احدهما بالنساء . والفسحة التي في وسط الحلقة الكبيرة يحظرون فيها مواشيهم ليلاً ، وليس هنالك متاريس حولها لحمايتها . وكلابهم هم العسس والحراس . ويبقون خيلهم مسرجة معدة للركوب لدى اول اشارة تشعر بدنو الخطر . وبما ان لا ترتيب عندهم ولا نظام ، فيسهل على العدو مباغتة خيامهم التي لا تقوى على وقاية الذين فيها . لاجل ذلك يحدث كل يوم تعد وخطف مواش . فالسلب والنهب هما شغل العرب الشاغل .

والقبائل التي تقيم في جوار المدائن والقرى حالتها اكثر اضطراباً من غيرها ؛ فالحكام الذين يعدون انفسهم سادة البلاد ، يعتقدون ان العرب رعايا متمردون او اعداء مقلقون ؛ فيضايقونهم ويضطهدونهم ، او يخاصمونهم بحجة ارض اكروهم اياها ، او يكرهونهم على دفع اموال لا يحق لهم مطالبتهم بها . وان نشب نزاع ما بين شيخ وآخر ، ايدوا تارة هذا وتارة ذاك ، وهكذا يتوصلون الى القضاء على الاثنين معاً . وكثيراً ما يسمون او يغتالون الزعماء ذوي الشجاعة والدراية .

والعرب يعدون الاتراك خونة ومغتصبين ، ويسعون دوماً في إلحاق الاذى بهم . فاذا دارت رحى القتال بينهم ، وقعت التبعة على الابرياء ، واصابت

الفلاحين الاضرار التي يحدثها القتال ؛ فيتلف الزرع ، وتخطف المواشي ، وتقطع الطرق ، ويقف دولاب التجارة .

تلك هي حالة العرب خارج البادية ؛ فهي معرضة لشتى الطوارىء .

وقد يحدث ان قبيلة ضعيفة تنمو وتقوى ، بينما قبيلة اخرى قوية تأخذ في الانحطاط او التلاشي ، انما ليس بفناء افرادها بل باندماجهم في قبيلة اخرى .

والقبيلة قد تتألف من اسرة واحدة او من اسر عديدة لبعض افرادها لقب « شيخ » او « امير » ؛ فهم يشبهون من هذا القبيل اعيان روما القديمة ، او اشراف اوربا الحديثة . ولواحد من هؤلاء الشيوخ او الامراء المقام الاول ؛ فهو المتولي عليهم . وكلما ازداد عدد اقربائه وابنائه وحلفائه ، قويت شوكته ، وعلا شأنه . وله طائفة من الخدم يلازمونه ويعيشون على نفقته . وقد يلتف حوله أُسرٌ صغيرة لا قبل لها ان تعيش مستقلة بنفسها ، نظراً الى ضعفها ؛ فهي تفتقر الى حماة وحلفاء . فلذلك هو والذين على شاكلته يعرفون باسم زعماء ، او يكنون باسم الاسرة السائدة المنتمين اليها . فيقال فيهم فلان ابن فلان من القبيلة الفلانية ، ولو انهم ليسوا من ارومة واحدة ؛ فمن هذا القبيل بنو تميم اولاد طي .

ان الحكم عند اهل البادية هو في آن واحد حزبي وشعبي ومطلق ، من غير ان يكون في الحقيقة لا هذا ولا ذاك ؛ فهو شعبي لان للشعب الرأي الاول في كل امر من الامور ، ولا يجري شيء الا برضى وموافقة الاغلبية . وهو حزبي بميله الى الاعيان ، بما ان اسر المشايخ تنعم بامتيازات لا يستطيع احرازها الا من كان صاحب جاه وبأس . ثم هو استبدادي اذ الشيخ المتقدم على الجميع له سلطة واسعة ، بل مطلقة ؛ ففي وسعه ان يمن في السلطة ، ويتمادى في الحكم مسيئاً الى رعيته . بيد ان هناك ما يردعه عن الاسترسال

في العسف والاستبداد . فان ارتكب فعلاً جائراً ثقيلاً ، كقتل احد ، صعب عليه التملص من العقاب ؛ فتبعة جريمته لا يخففها علو مقامه ، بل لا بد ان يثأر منه . واذا توانى في تأدية الدية قتل لا محـالة . وقتله ليس بالامر العسير نظراً الى نوع المعيشة التي يعيشها المشايخ في وسط اقوامهم . وان اغاظ رعاياه واساء معاملتهم هجروه وانضموا الى قبيلة اخرى . واقاربه انفسهم يتحينون عندئذٍ الفرصة لاسقاطه واستبداله بغيره . وليس في وسعه مقاومتهم ، اذ ما من احد من خارج القبيلة يأتيه لشد ازره . وهو ايضاً يعجز عن التفريق بينهم او عن انشائه فيهم حزباً موالياً له ، باغراء فريق منهم بالهدايا والعطايا ، وهو لا يملك من حطام الدنيا الا شيئاً يسيراً مثقلاً بالنفقات .

وعلى شيخ كل قبيلة ان يقوم بواجب الضيافة نحو زوّار القبيلة وقاصديها ؛ فهو الذي يستقبلهم جميعاً . والى جانب خبائه فسطاط واسع ينزل فيه كل غريب او كل عابر طريق . وفيه يعقد المشايخ والاعيان جلساتهم واجتماعاتهم لاجل النظر والتفاوض في مختلف الشؤون ، كنقل محلتهم ، وابرام صلح ، واعلان حرب ، والفصل بين قضايا الافراد ، ومعالجة ما يحدث بين قبيلة واخرى من المنازعات ، وما الى ذلك من الامور . فعلى شيخ القبيلة ان يقدم لهؤلاء الوفود القهوة والخبز والارز . واحياناً الجدي والحمل المشوي ، اي انه يضطر الى بسط سماطه دوماً . ولاجل المحافظة على سلطته ونفوذه ، يتحتم عليه ان يكون كريماً ، وفي نظر البدوي الجائع فضيلة الكرم رأس الفضائل . وقد اثبت الاختبار ان الشيخ الخسيس قصير النظر . وللقيام بتلك النفقات لا يعتمد الشيخ الا على قطعانه ، واحياناً على بعض الحقول المزروعة ، او على ما يغنمه في الغزوات ، او على الاتاوى التي يتقاضاها من عابري الطريق . ولعمري ان دخلاً كهذا لضئيل هو .

ان الشيخ الذي قصد اليه ڤولني ، ونزل ضيفاً عليه ، كان يعد من حيث الشوكة والغنى في طليعة مشايخ تلك الانحاء. مع ان نفقاته لا تتجاوز في مجموعها ما ينفقه عادة فلاح ميسور الحال؛ فما يملكه مقصور على بعض الاعبئة، والسجاد، والسلاح ، والخيل ، والابل ؛ وقيمة كل ذلك لا تزيد على الخمسين الف قرش. فلاجل ذلك كلمتا « مولى » و « امير » ليس لهما نفس المدلول الذي ينسبه اليهما الاوربيون . وقد نكون على صواب فيما اذا شبهنا الشيخ والامير باصحاب المزارع الواقعة في الانحاء الجبلية في فرنسا . فالفريقان مماثلان من حيث الاخلاق وبساطة اللبس والحياة البيتية . فالشيخ الذي تحت يده خمسمئة فارس لا يستنكف من اسراج فرسه والجامها بيده ، ووضع الشعير او التبن في مزودها ومخلاتها . وفي خبائه هي امرأته التي تحمص البن ، وتسحقه ، وتغلي القهوة ، وتعجن ، وتطبخ ؛ وبناته هن اللاتي يغسلن الثياب ، ويردن الماء والجرة على قمة رأسهن كما كانت بنات جنسهن يفعلن في عهد موسى وايام هوميروس .

فزهد البدو بل فقرهم يلائم المعيشة التي يعيشها زعماؤهم . فان ما تملكه اسرة بعض الابل ، والمعز ، او الدجاج ، وفرس وجهازها ، وخيمة ، ورمح ، وسيف ، وبندقية ، وغليون ، ومطحنة يدوية ، وقدر ، ودلو من جلد ، ومحمصة ، وحصير ، وبعض الثياب ، وعباء صوف اسود ؛ ومن الحلي : اساور ، وخلاخل من فضة او زجاج . فالاسرة التي لا يعوزها شيء مما جئنا على ذكره ، تعد غنية . ومما يتوق الفقير الى احرازه ، ويرغب فيه كثيراً ، الفرس . والحقيقة ان هذا الحيوان هو عندهم خير واسطة للاثراء ، فعليه يذهب البدوي الى الغزو ، ومقاتلة القبائل المعادية . والفرس يفضلونها على الحصان ، لانها لا تصهل ابداً ، وهي سلسة الانقياد ، وتدر الحليب الذي يغذي الجوعان ، ويروي العطشان .

ليسيرة هي حوائج البدو ، لانهم لا يكترثون الا لما لا غنى لهم عنه . فلذلك

نرى ان صنائعهم مقصورة على صنع الخيام والحصر ، واستخراج الزبدة من الحليب. وتقوم تجارتهم بتبادل الابل والجدآء ، والذكور من الخيل ، والالبان ، والاسلحة ، والثياب ، والارز ، والحنطة ، والنقود التي يطمرونها . واما العلوم والكتب فلا اثر لها عندهم ، ويندر ان تجد بينهم من له المام بالقراءة والكتابة : فلا يعرفون سوى رواية الحكايات التي تشبه « الف ليلة وليلة » وهم مولعون بسماعها ، وهي تشغل اكبر قسط من اوقات فراغهم . فعند المسآء يتربعون على الارض خارج الخيام او داخلها ، بحسب ما يكون الجو حارًا او بارداً . ففي فصل الشتآء ، يلتفون حول نار من روث مجفف ، يصطلون بها . ويفتتحون اجتماعهم بالتفكير من غير ان يفوهوا بكلمة ما ؛ ثم يبدأ احدهم فجأة ويقول : في ذلك الزمان وفي سالف العصر والاوان كان . . . ويتابع كلامه راوياً ما حدث لاعرابي شاب واعرابية صبية . ويقص كيف وقع نظر الشاب بادىء ذي بدء على الفتاة فشغف بها . ويعدد من ثم واحدة واحدة جميع صفاتها الحسنة ؛ فيطري عينيها السوداوين الجميلتين اللتين تشبهان عيون الغزلان ؛ ولحظها الذي يذهب سهمه الى اعماق القلوب ؛ وحاجبيها المنحنيين كقوسين من الابنوس الاسود ؛ وقامتها الظريفة الممشوقة كالرمح ؛ ومشيتها الخفيفة التي تماثل سير الفلوة ؛ وجفنيها المكحلين ؛ وشفتيها الزرقاوين واظافرها المخضبة بالحناء الذهبية اللون ، وثدييها المستديرين كأنهما رمانتان ؛ وكلامها الاحلى من العسل . ثم يصف ما يكابد الشاب من الالم في سبيلها ، وكيف يذوب من شدة هيامه بها الى ان يصبح جسمه كالخيال . وبعد ما يذكر الراوي محاولات الشاب ليرى حبيبته ، وما يضعه ذووها من العوائق في سبيله ، ثم اقدام الاعدآء على اختطافهم له ولها ، يختم حكايته باعادتهما متحدين سعيدين الى الخباء الوالدي . فيسر الحاضرون بهذا الختام المفرح ، مثنين جميعاً على بلاغة الراوي .

وللبدو ايضا الاغاني الغرامية التي تعبّر عن الشعور بشكل اصح واصدق من اغاني سكان المدن ؛ ذلك لان اخلاق البدو طاهرة فيعرفون الحب الصحيح. واما سكان المدن فانهم مرتطمون في الدعارة فلا يرغبون الا في الاستمتاع والتلذذ .

ان البدو ولا سيما الذين يقيمون منهم في قلب الصحرآء، لهم حالة تشبه من عدة نواحٍ ما هم عليه هنود اميركة ؛ غير انهم ليسوا متوحشين مثلهم ، ولا هم يأكلون اللحم البشري ، بل نجدهم اكثر لطفاً ، واحسن عشرة واسلس اخلاقاً. فلِمَ اذن هذا الفرق بين الشعبين .

ان البحيرات والغابات وكثرة المراعي ووفرة الكلاء في البلاد الاميركية تجعل العيشة التي توافق الرعاة سهلة مرغوباً فيها . غير اننا نجد ان نفس هذه الغابات قد انقذت الحيوانات اللاجئة اليها هرباً من سيطرة ابن آدم عليها الذي اضطر لاجل ذلك ان يصبح صياداً . فالعادات التي الفها قست طباعه ، ومشقاتُ الصيد خشنت جسمه ، والجوع الشديد الذي عقبه فجأة اللحم المصطاد الوافر ، صيّره شرهاً نهماً : فسفكه الدم ، وتشطيته الطريدة المقتنصة عوّداه القتل ورؤية الاوجاع ؛ فلما عضّه الجوع بنابه تمنّى اكل اللحم ؛ وبما انه لم يجد امامه سوى لحم قريبه فانه اقدم على اكله ؛ فقتل الانسان اخاه ، فامسى ذلك عادة عنده ؛ فصار سفاكاً فتاكاً غليظ الكبد .

واما البدوي فليست تلك حالته . اذ بعدما القاه القدر في سهول واسعة لا مآء فيها ، ولا شجر ، ولا قنائص ، لم يعد في وسعه ان يكون صياداً ؛ فاوجد الجلُ الميلَ فيه الى اقتناء الانعام لرعيها . وبما انه لم يجد امامه سوى الشيء اليسير من القوت ، لذلك اعتاد الزهد في الاكل قانعاً بلبن مواشيه وبعض الشيء من التمر . فهو اذن لم يشتهِ اللحم ، ولم يهرق

الدم ، ويداه لم تألفا القتل ، واذناه لم تعتادا سماع انين المتوجع المتألم ، فظل يخفق في احشائه قلب رقيق شفيق . وهذا الراعي الغير المتحضر ما ان عرف كيف يستخدم الفرس ، حتى غير اسلوب حياته ؛ فمقدرته على قطع المسافات الشاسعة بسهولة وسرعة جعلته رحالاً . كان حريصاً بعامل القحط ، فصار غازياً بدافع العوز والطمع . فهو اذن يحب الغزو . وان لقي مقاومة، اعتقد ان ما يغنمه لا يبرر المخاطرة بحياته . ولا يمكن استثارة غيظه الا بسفك دمه ؛ فتجده عندئذٍ شديد البأس ، ميالاً الى اخذ الثأر على قدر ما كان حريصاً على اجتناب الخطر .

وقد نعوا عليه ميله الى الغزو ؛ فنحن نجيب ، ليس رغبة في تبريره ، بل حباً للحقيقة ، انه لا يغزو الا الغريب الذي يعده عدواً فيفعل والحالة هذه ، ما يرتكز على السنن المألوفة المتبعة عند معظم الامم .

واما حياته الاجتماعية فيسودها الثقة والنزاهة والكرم الذي يشرف اعرق الشعوب مدنية . وهل من شيء اشرف وافضل من حقوق الضيافة التي يتمتع بها عندهم كل غريب وعابر سبيل . والعدو نفسه اذا ما مسَّ بوان او طنب خيمة الاعرابي صارت حياته في أمن ، فلا يجرؤ احد على مسها بأذىً . ومن الجبن ومنتهى الدناءة ، ومن العار الذي ليس بعده عار ، ان يثأر الاعرابي من خصم نزل ضيفاً عليه . واذا رضي باكل الخبز والملح مع نزيل ، فلا شيء في الدنيا يستطيع حمله على خيانته . والسلطان نفسه مع كل ما له من قدرة وسطوة ، لا يستطيع ان يخرج من القبيلة ضيفاً لجأ اليها واستجار بها ما لم تفنَ تلك القبيلة عن بكرة ابيها [1] .

(١) – يجعل العرب بعض الفرق بين ضيوفهم : فنهم المستجير ، اي طالب حمايتهم ؛ والمطانب ، اي الذي يجعل اطناب خيمته الى جانب اطناب خيامهم . فذلك يعني انه انضوى الى قبيلتهم فصار واحداً منهم .

فهذا الاعرابي ذو البخل والطمع خارج قبيلته ، ما ان يضع قدمه في حيه ، حتى يغدو كريماً جواداً ؛ ومهما يكن ما يملكه يسيراً فهو مستعد لاقتسامه مع غيره . واذا جلس للاكل ، مدّ خوانه عند مدخل خبائه ليدعو عابري الطريق الى الاتكاء معه . وهو صادق مخلص في كرمه ، لانه لا يعدّه فضيلة بل فرضاً واجباً ، لاجل ذلك يعتقد ان له على غيره ما لغيره عليه .

فاذا كانت فضائلهم هذه قد اوجدتها مقتضيات الزمان والاحوال ، فليسوا من اجل ذلك غير جديرين بالاعجاب والثناء ؛ فهم اذن سعداء من جراء حالة ادّت اليها تلك المقتضيات ، وهي التي عدّها اعقل المشرعين طريقة الحكم المثلى ، واعني بها المساواة في قسمة المال ، والنظام في توزيع الرتب . وبما انهم حرموا الكثير من الخيرات التي جادت بها الطبيعة على البلاد الاخر ، لاجل ذلك قلّت عندهم العوامل التي تلقي المرء في بؤرة الفساد .

وقد يتعذّر على زعمائهم تأليف حزب يدأب في استرقاقهم وابتزاز اموالهم ؛ فكل واحد في وسعه ان يكفي نفسه مؤونتها ؛ لذلك تراهم يستطيعون اكثر من غيرهم الاحتفاظ بطابعهم الخاص وصون استقلالهم من كل تعدٍّ . وهكذا يصبح فقر الفرد عندهم مصدر الحرية العامة وكفيلها .

وحريتهم هذه تشمل حتى الامور الدينية . اجل ، ان العرب المقيمين على مقربة من البلاد المتحضرة يحتفظون ، من باب السياسة ، بظاهر يدل على تمسكهم بالدين . غير ان هذا الظاهر غير متين ، وتعبدهم متراخٍ ، مما يجعلهم في نظر غيرهم ، كانهم لا دين لهم ، ولا شريعة عندهم ، حتى انهم هم انفسهم يقولون : الدين لم يجعل لنا . ويضيفون : وكيف يتسنى لنا الوضوء ، ولا مـاء عندنا ، وكيف نقوم بتأدية الزكاة ، ولا مال لدينا ؛ ولماذا نصوم

رمضان ، ونحن نصوم السنة كلها ؛ ولم نحج بيت الله الحرام ، ما دام الله موجوداً في كل مكان .

وكل منهم يفكر كما يشاء ، ويفعل كما يشآء . ويسود عندهم روح التسامح التام ، وهو الروح الذي يبدو جلياً من حديث وقع لثواني ذات يوم مع الشيخ احمد بن بحر زعيم القبيلة الواحدية الذي قال له : لماذا تريد العودة الى فرنسا ما دمت تستحسن عوائدنا ؛ وتعرف كيف تحمل الرمح ، وتركب الخيل ؛ فامكث عندنا ، نعطك عبآء وخبآء ، وتزوجك ببدوية صبية حسناء ، ونهبك فرساً ، وننزلك في ربوعنا على الرحب والسعة . فقال ثواني : ألا تعرف اني ولدت ونشأت في قوم دينهم ليس كدينكم ؛ فماذا يكون رأي البدوي في كافر او جاحد . فقال الشيخ : ألا ترى انت نفسك ان البدو يعيشون بمعزل عن الدين وكل منهم يتبع ما يمليه عليه ضميره ووجدانه . ان الاعمال للناس والدين لله .

وقد قال لثواني شيخ آخر ذات يوم عن غير قصد ، عبارة اعتاد قولها وهي : « صلِّ على النبي » وبدلاً من ان يجيبه ثواني الجواب المعتاد قال : ها انا ذا صاغ اليك . فلحظ الشيخ خطأه ، وتبسّم . وكان حاضراً ساعتئذ احد سكان القدس ؛ فتدخل وقال للشيخ : كيف توجه الى كافر كلاماً لا يجوز قوله الا للمؤمن . قال الشيخ : هي زلة لسان ، ولكن النية سليمة . وانما انت الذي تعرف عادات العرب واخلاقهم كيف تجيز لنفسك اهانة غريب اكلنا معه خبزاً وملحاً . ثم التفت الى ثواني وقال : هل الشعوب في بلاد الفرنج المتخذون لهم ديناً غير ديننا اكثر منا نحن المسلمين . اجابه : هم اضعاف المسلمين بما فيهم البدو . فقال الشيخ : الله غفور رحيم ؛ فهو يدين كل انسان بحسب اعماله .

ان تلك المبادىء التي يجلّها العرب ، ويعملون بها ، قلما تتبعها الشعوب المتحضرة . وقد نجدها عند التركمان والاكراد ؛ فهي اذاً من خصائص العيشة التي يعيشها الرعاة .

الاكراد

ان قبائل الاكراد منتشرة بكثرة في آسيا السفلى . واما وطنهم في الاصل فهو الجبال التي تنبجس فيها فروع الدجلة العديدة . فتلك الجبال تحدق بالشطر الاعلى لنهر الزاب الكبير ، ثم تمتدّ جنوباً حتى تخوم العراق الفارسي . وفي التقاويم الجديدة تدعى هذه البلاد كردستان ؛ وهي تعطي بوفرة الحبوب والكتان والسمسم والارز والعفص والحرير ، ويجنى منها ضرب من البلوط اللذيذ الطعم الذي يصنعون منه خبزاً . وقد جاء ذكرها في اقدم التواريخ . ويروون عنها شتى الاساطير . وقد تحدث عنها اكسنفون والمؤرخ الارمني موسى الخوريني .

واكراد عصرنا قد حافظوا على الكثير من عادات وطباع اجدادهم . ونيوبهر الذي جال في بلادهم في السنة ١٧٦٩ روى انهم يتبعون في جبالهم ضرباً من الحكم الاقطاعي . غير انه على اثر الفتن والمنازعات التي نشبت بينهم انتزح كثيرون من اسرهم وعشائرهم وتفرقوا في نواحي ديار بكر وارضروم واريفان وسيواس وحلب ودمشق . ويقدّرون عدد خيامهم بمئة واربعين الفاً . فيها مئة واربعون الف مخترط سيف . وهم كالتركمان رعاة رحل ، ولكنهم يختلفون عن التركمان ببعض عاداتهم وطباعهم . انهم يميلون الى النزو ، لذلك يخافهم سكان حلب وانطاكية حيث يسيطرون

على الجبال الواقعة شرقي بيلان . ويعرفون هنالك باسم « بغدشلية » . واما لغتهم فقد تعددت لهجاتها ؛ غير ان منشأها واحد هو الفارسية التي يتخللها بعض كلمات عربية و كلدانية . ومجمع نشر الايمان في رومـا طبع معجماً لها وضعه موريس غرزوني .

النصيرية

يقيم النصيرية في الجبال الواقعة بين انطاكية والنهر الكبير . ولمنشإهم واقعة تاريخية اوردها السمعاني نقلاً عن المصادر الاصلية . قال :

في السنة ١٢٠٢ للروم (٨٩١ م) كان يقيم بقرية نصر القريبة من الكوفة شيخ عده النـاس ولياً نظراً الى زهده ، ومواظبته عـلى الصوم والصلاة ؛ فتبعه جمهور غفير اختار من بينهم اثني عشر رجلاً لنشر تعاليمه . غير ان حاكم البلاد الذي ارتاب من امره قبض عليه والقاه في السجن . وحدث عندئذ ان تحرك قلب جارية السجان شفقة عليه ، فعزمت على انقاذه . فجاءتها فرصة سانحة انتهزتها في الحال . وهي انها رأت ذات يوم مولاها ثملاً ونائماً نوماً عميقاً . فاخذت بتؤدة مفـاتيح السجن من تحت وسادته . وبعدما فتحت بها للشيخ باب السجن ، اعادتها الى حيث كانت من غير ان يشعر بها مولاها . وفي الغد عندما جاء السجان يفتقد السجين ، دهش لرؤيته المكان خالياً والابواب مغلقة . فظن ان ملاكاً انقذ الشيخ ؛ ولئلا يلام بادر في الحال الى اذاعة الخبر . والشيخ ايضاً قص على تلاميذه الشيء ذاته ، هاماً بنشر تعاليمه ، وواضعاً سفراً كتب فيه في ما كتب : « انا فلان من قرية نصر ، رايت المسيح كلمة الله ، وهو احمد بن محمد بن حنيفة

من سبط علي . وهو ايضاً جبرئيل ، وقد قال لي : انت الذي تقرأ ؛ انت الرجل الذي ينطق بالحق ؛ انت الجمل الذي يصون المؤمنين من الغضب ؛ انت الدابة التي تحمل اوزارهم ؛ انت الروح (القدس) ويوحنا بن زكريا . اقض وعظ الناس ان اركعوا في اثنا. صلاتكم اربع ركعات ، اي ركعتين قبل شروق الشمس ، وركعتين قبل غروبها . وولوا وجهكم شطر بيت المقدس ، وقولوا ثلاثا : « الله القوي العلي العظيم » ؛ ولا تحفظوا بعد الان الا العيد الثاني والثالث ؛ ولا تصوموا الا يومين في السنة ؛ ولا تغسلوا قلفتكم ؛ ولا تشربوا مزراً ، بل احتسوا من النبيذ ما شئتم ولا تأكلوا لحم الحيوانات الضارية . « فهذا الشيخ جاء سوريا ، ونشر تعاليمه ؛ فآمن به الكثيرون . وبعد بضع سنين توارى عن الانظار ، ولم يعرف احد مكانه » .

والصليبيون في حروبهم زحفوا من المعرة الى لبنان ، متبعين مجرى نهر العاصي فلقوا النصيرية ، وقتلوا منهم خلقاً كثيراً . وغليوم الصوري الذي ذكر ذلك خلط بينهم وبين الحشاشين . ولعل هناك بعض الشبه بين الفريقين . فقال ان لفظة حشاشين كانت شائعة عند الفرنج والعرب ، من غير ان يعرف ما هو اصلها ؛ فالصليبيون الذين سموها في سوريا عندما كانت تلك الشيعة موضوع احاديث الناس ، جعلوا يرددونها هم ايضاً بقولهم Assassin [١] . وقد ترجموا كلمتي « شيخ الجبل » خطأً ، فقالوا « اختيار الجبل » بدلا من زعيم الجبل [٢] .

والنصيرية شيع وقبائل ، منها الشمسية والقدموسية والكلبية . والنصيرية لم تصل الا بمزيد الصعوبة الى الاصقاع القريبة من انطاكية ، والذين دانوا

(١) من حسه حساً اي قتله واستأصله .

(2) Le vieux de la montagne.

بها عددهم ضئيل حتى بعد حكم يوليانوس . فمنذئذ حتى الفتح العربي ، لم تقوَ الديانة المسيحية على الرسوخ هنالك ، اذ الانقلابات الفكرية لا تحدث بسهولة في الارياف كما في المدن حيث تتوفر الوسائل التي تساعد انتشار الافكار بسرعة جاعلة اما اخفاقها او نجاحها امراً واقعاً . فالنجاح الضئيل الذي احرزته النصرانية عند هولاء الجبليين مهد السبيل للاسلام ؛ فنشأ من العقائد القديمة والحديثة مزيج لا تجانس فيه ولا تناسب ، وهو عينه الذي كان الباعث على نجاح الشيخ نصر .

وقد ظهرت الديانة الدرزية بعد الشيخ نصر هذا بمئة وخمسين سنة . ولكن النصيرية لم يتبعوها ، بل حافظوا على دينهم ، ولو ان بينهم وبين الدروز بعض الشبه .

ان الكثيرين منهم يؤمنون بالتقمص ؛ وينكر بعضهم خلود النفس . على ان الفوضى الدينية والمدنية تحمل هولاء الفلاحين على التفكير كما يطيب لهم ، فيؤمنون بما يريدون ، او لا يؤمنون بشيء على الاطلاق .

وبلادهم مؤلفة من ثلاث مقاطعات يلتزمها زعماء يدعون « متقدمين » يؤدون الاموال الى صاحب طرابلس ، وجبالهم اقل انحداراً واوفر خصباً من جبال لبنان ؛ لكنها اكثر تعرضاً لعسف الحكام .

الموارنة

يقيم في الاماكن الواقعة بين بلاد النصيرية شمالاً وبلاد الدروز جنوباً ، شعب عرف منذ زمن مديد باسم موارنة ؛ فأصل منشأهم واتحادهم مع اللاتين كانا موضوع درس طويل ، وبحث دقيق ، طرقه مؤرخو الكنيسة . ويمكن تلخيص ما فيه من الاخبار المفيدة على الوجه التالي ، وهو انه في اواخر القرن السادس اذ كانت الحياة النسكية مرغوباً فيها ، عاش على ضفاف نهر العاصي القديس مارون الذي لفت الانظار بصلاحه وعيشته المنفردة وتقشفاته الشديدة . ويبدو انه حارب الغربيين في الجدال الذي كان آخذ محتدماً بين روما والقسطنطينية . وبدلاً من ان يثبط موته عزائم تلاميذه ، اضرم فيهم نار الغيرة ، وقد ازدادت تلك النار اضراماً على اثر المعجزات التي كانت قرب جثمانه . ولما شاع خبرها جاء اناس من قنسرين والمدن الاخر ، واقاموا له في حماة ضريحاً ومعبداً وديراً ذاع صيته في جميع الانحاء .

بيد ان الخصام بين العاصمتين ظلّ يمتد ويشتدّ ؛ فمال جمهور سكان المملكة الى الاشتراك في النزاع القائم بين الامراء ورجال الدين . وفيما كانت الامور على تلك الحالة وقد انحاز الى خصوم البابا الكثيرون في لبنان ، اشتهر بدفاعه عن عقائد اللاتين ، راهب من دير حماة اسمه حنا مارون ، طلق اللسان ، بليغ البيان ، فاوفده اصحابه الى القاصد الرسولي في انطاكية وهذا سامه مطراناً على جبيل ، وانتدبه للوعظ والارشاد في تلك الاصقاع .

ان الخصم اخذ يناهض المطران الجديد اشد مناهضة . فاضطر هو ايضاً ان ينازل خصومه ، مقاوماً العُنف بالعنف ! ثم جمع اليه اتباعه ، واقام معهم في لبنان ،

مؤلفاً منهم جماعة مستقلة ديناً ودنيا . وقد كتب عنهم احد المؤرخين البيزنطيين ما يلي [1] : « في السنة الثامنة لحكم قسطنطين بغنات (سنة ٦٧٦) اجتمع المردة واستولوا على لبنان . . . فقووا حتى استطاعوا التصدي للعرب . فاضطر الخليفة معاوية ان يعقد مع الروم هدنة لثلاثين سنة ، بدل غرامة تكفّل له بتأديتها ، وهي خمسون رأساً من الجياد الاصلية ، ومئة عبد وعشرة الاف دينار من الذهب » .

فلفظة مردة التي يستعملها المؤرخ ، سريانية ، معناها العصاة ، مما يدل على ان اللغة السريانية كانت شائعة ، آنئذ ، وان الشقاق الذي مزق الدولة البيزنطية كان دينياً ومدنياً في آن واحد .

ويبدو لنا ان منشأ هذين الحزبين ، ونشوب ثورة في البلاد سبقا الزمان المشار اليه ، اذ في السنة ٦٢٢ ورد ذكر اميرين هما يوسف وكسرى ! فالاول عاملاً على جبيل ، والثاني على البلاد الداخلية التي دعيت كسروان باسمه . وقد جاء ايضا ذكر امير ثالث سار في حملة على بيت المقدس ، ومات في بسكنتا محلّ اقامته ، بعد ما بلغ من السن عتياً .

اذن حتى قبل قسطنطين بغنات كان المتمردون المستاؤون من استبداد القياصرة وجور عمالهم يلجأون الى لبنان . ولا غرو ان يكون ذلك هو السبب الذي حدا يوحنا مارون وتلاميذه على الاعتصام بلبنان ؛ ونظراً الى ما كان لهذا الزعيم من النفوذ اتخذت الامة باجمها الاسم « ماروني » ولعمري اسم اشرف والطف من لفظة « مردة » .

ومهما يكن الامر ، فان يوحنا مارون جعل لهؤلاء الجبليين نظاماً ، ووزّع

(1) Cedrenus

عليهم سلاحاً ، ونصب عليهم زعماء ، حتى استطاعوا ان يحاربوا اعداء المملكة وخصوم دولتهم الصغيرة ، ويسيطروا في وقت قصير على البلاد المتحدة حتى بيت المقدس . والشقاق الذي حدث وقتئذ في الاسلام ، سهل لهم الفوز والنجاح ، فان معاوية عصى في دمشق الخليفة علياً ، الذي كان يقيم في الكوفة ؛ فاضطر خوفاً من خوض غمار حربين في آن واحد ان يعقد مع الروم معاهدة جدَّد عبد الملك عقدها ، مُلحاً على القيصر يوستنيانس الثاني ان يمنع الموارنة عن التصدي له . فرضي القيصر بذلك ، فبعث الى زعيم الموارنة رسولاً عهد اليه في قتله ؛ فنزل الرسول ضيفاً في داره حيث تسنَّى للرسول اغتياله ؛ وتوصل من ثمَّ بدسائسه ووسائل الاغراء الى سحب اثني عشر الف رجل من الجبل . وهكذا أُخلي الجبل من حماته فتمكن العدو من اكتساحه .

وقد حدث بعدئذ ما كاد يقضي على الموارنة بالفناء ، اذ ان يوستنيانس المشار اليه سيَّر اليهم جيشاً كبيراً بقيادة مرقيانوس وموريس ؛ فدمَّر جنودهما دير حماة وذبحوا رهبانه وزحفوا من ثم الى لبنان لمواصلة القتال . غير ان يوستنيانس خُلع في تلك الغضون . وكان خلعه في الليلة السابقة لليوم الذي ضربه موعداً لاحداث مذبحة عامة في القسطنطينية . وقد أذنَ خلفُه للموارنة في مقاتلة موريس ؛ فهجموا عليه واردوه حتفه ، وأبادوا جيشه .

وحينئذ لم نسمع عنهم شيئاً الى ان غزا الفرنج البلاد ؛ فكان الموارنة يعاهدونهم تارة ، ويعادونهم تارة . ففي تلك الحقبة التي دامت ثلاثمئة سنة خرج من يدهم جانب من اراضيهم . فاقتصروا على لبنان بحدوده الحالية .

ولا شك في انهم كانوا يؤدون الجزية للحكام العرب او الاتراك عند ما كان في استطاعة هؤلاء اجبارهم على ادائها . فتلك كانت حالتهم في سنة ١٠١٤ وهي السنة التي تخلى فيها الحاكم بأمر الله عن ساحل الجبل لامير حلب التركاني .

وقد اضطروا بعد مئتي سنة ان يخضعوا لصلاح الدين الايوبي على اثر انتصاره على الفرنج وابعادهم من البلاد .

وفي السنة ١٢١٥ اثبت الموارنة اتحادهم بروما ، وهو الاتحاد الذي لم تنفصم قط عراه ، وما زالوا يحافظون عليه حتى اليوم فغليوم الصوري الذي ذكر ذلك قال : انهم كانوا يعدون آنئذ اربعين الف مخترط سيف . وظل الامان باسطاً جناحيه على ربوعهم الى ان سيّر السلطان مراد الثالث عليهم القائد ابرهيم باشا في السنة ١٥٨٨ فقهرهم وفرض عليهم الضرائب .

فالاتراك الذين رغبوا في بسط سيادتهم عليهم ، وابتزاز ما استطاعوا من اموالهم ، حاولوا غير مرة ان يرسلوا جنوداً الى الجبل للاقامة فيه . غير ان الاخفاق كان نصيبهم . اذاً خضوع الموارنة للاتراك كان مقصوراً على اداء الضرائب الى صاحب طرابلس .

ان الحكم عندهم تدعمه العادات ، ولذلك لايخلو من النقص والمحذور لولا بعض العوامل الطيبة التي اولها الدين الذي كان يحول دون اقدام ذوي الطمع منهم على الاتفاق مع الاجانب على ارهاق الامة ؛ وثانيها شكل اراضيهم حيث تكثر المعاقل والحصون التي كانت تسهل على كل قرية ، بل كل اسرة ، ان تدافع عن نفسها ، وتمنع انتشار السلطة المطلقة عليها ؛ واما العامل الثالث فهو ضعف هذه الامم نفسها التي لم تتوصل منذ نشأتها الى مقاومة اعدائها المحدقين بها ، الا بمحافظتها على الاتحاد التام بين جميع افرادها ، وهو الاتحاد الذي لم يكن متيسراً ما لم يراعِ كل منهم جانب جاره ، ويكن مطمئن البال على عياله وماله . وهكذا استطاع النظام ان يتوطد بفضل التوازن الطبيعي ، ويمنع عن البلاد الاستبداد الشنيع ، ويصون المجموع من البلية الناجمة عن الفوضى والشقاق الوخيم باعتصام السكان باخلاق وعادات قامت مقام التشريع .

والامة طبقتان : السوقة ، والمشايخ ، اي الاعيان الذين يمتازون بقدم اسرهم ، وسعة حالهم . وجميعهم يعيشون في القرى والدساكر والبيوت المنفردة . والامة باسرها ، تزاول الفلاحة وكل يعمل بيده في الحقل الذي يملكه او يستكريه ، والمشايخ انفسهم يعيشون على هذا النمط ، ولا يمتازون الا بفروة يرتدون بها ، وفرس يملكونها ، وحياة الجميع هي حياة زهد وعفة . والامة على العموم فقيرة ولكن ما من احد فيها محروم ما لا غنى له عنه . واذا كان فيهم متسولون ، فهؤلاء ياتون الجبل من المدن الساحلية .

ان حقوق الامتلاك مرعية عندهم على ما هي في اوربا . واما الاعتداءات والتعديات فانها تحدث بكثرة في الانحاء التي يسيطر عليها الاتراك . واما في الجبل فان المسافر يستطيع ان يجول ليلاً ونهاراً باطمئنان تام . والغريب يجد عندهم الضيافة كما عند العرب ؛ غير انهم يميلون الى التقتير . واطاعة لاحكام الدين المسيحي يتزوجون امرأة واحدة ، وقبل زواجهم بها لا يتعرفون بها الا فيما قل وندر ، ولا يعاشرونها مطلقاً . وخلافاً لمبادىء دينهم قد حافظوا على عادة الثأر . وعملاً بعادة اوجدها فيهم التحذر وحالة البلاد السياسية ، فان جميع الرجال من مشايخ وفلاحين لا يخرجون من بيوتهم الا وبندقيتهم على كتفهم ومديتهم في نطاقهم . وهذه العادة التي ربما بدت لنا من الامور المزعجة ، تؤول الى تدريبهم على استعمال السلاح ، اذ كثيراً ما يضطرون الى الدفاع عن بلادهم ، وبما أنهم ليس عندهم جيش منظم ، فيتحتم على كل رجل منهم ان يكون جندياً عند الاقتضاء ، فلو وجد فيما بينهم من يحسن قيادتهم ، لفضلوا على معظم الجيوش الاوربية . وقد اثبت الاحصاء الحديث ان الذين يستطيعون حمل السلاح يناهز عددهم الخمسة والثلاثين الفاً . واما عدد جميع السكان فهو مئة وخمسة آلاف ، بما فيهم الكهنة والرهبان والرواهب المتوزعون على نحو مئتي دير ؛ واذا اضيف

اليهم سكان الثغور البحرية صار عددهم مئة وخمسة عشر الفاً ، اي سبع مئة وستين مئة نفس في الفرسخ الواحد باعتبار ان مساحة البلاد تناهز مئة وخمسين فرسخاً مربعاً . ولعمري انها نسبة كبيرة ، بما أن جانباً من لبنان صخري ، وما يمكن فلاحته من الاراضي قليل الخصب .

ومع اقرارهم برئاسة البابا ، يتخذ اكليرسهم زعيماً لقبه بطريرك انطاكية . وكهنتهم متزوجون ولا يتخذون نساء الا من الابكار . واذا ترملوا فلا يجوز لهم الزواج ثانية . ويقيمون القداس بالسريانية التي لا يفهمها الا نفر قليل ؛ ويقرأون الانجيل بصوت عال بالعربية لكي يفهمه الشعب ؛ ويتناولون بالشكلين ؛ وخبز الذبيحة فطير مدور بحجم الريال وثخانة الاصبع ، على نصفه الاعلى طابع ، وهو حصة الكاهن الذي يقطع النصف الآخر ويجعله في الكأس مع النبيذ ، ويناول المؤمنين منه بملعقة يستعملها للجميع .

وكهنتهم ليس لهم مكاسب ولا دخل مرتب ، بل يعيشون من حسنات قداسهم او تبرعات المؤمنين ، او مما يجنونه من شغل يدهم ، اذ البعض منهم لهم مهنة يزاولونها ، والبعض يملكون اراضي يحرثونها ويزرعونها ؛ وجميعهم يكدون ويجدون لاكتساب معاشهم ومعاش عيالهم ، معطين بذلك المثل الطيب ؛ وما يلقونه من اكرام واحترام يعوضهم عن قلة ذات يدهم وشظف عيشهم .

واما الحفلات الدينية فانها لا تجري في اوربا باكثر حرية واكبر حفاوة منها في كسروان . وكل قرية لها معبدها وكاهنها ولكل معبد جرس وهو أمر غير جائز في الانحاء الاخر الخاضعة للاتراك . والموارنة يفتخرون بذلك ، ولئلا يفقدوا شيئاً من امتيازاتهم هذه ، لا يجيزون الا المسيحيين ان يعيشوا بين ظهرانيهم . ويباهون باعتمامهم بالعمامة الخضراء . والمسيحي الذي يجرؤ على هذا العمل في بلد آخر يقتل في الحال .

ان ايطاليا نفسها ليس فيها مطارنة بقدر ما نجد منهم في هذه البقعة الصغيرة. ولكنهم حافظوا على تواضعهم ؛ وكثيراً ما يُرى الواحد منهم على ظهر بغلة يتبعه قندلفت واحد . ويقيم معظمهم في الديورة حيث يأكلون ويشربون كباقي الرهبان . واما دخل الواحد فانه لايتجاوز الست مئة غرش في السنة ؛ وهو لعمري مبلغ ضئيل لكنه كاف لتأمين جميع حوائجهم في بلاد كل شي فيها ثمنه بخس . وينتخبون من مصاف الرهبان ؛ ومما يؤهلهم لهذا المنصب درجة ثقافتهم التي يسهل عليهم بلوغها ، اذ الراهب او الكاهن العادي هنالك لايعرف سوى التعليم المسيحي والكتاب المقدس . ويجب القول ان الرهبان والكهنة في لبنان ذوو سيرة واخلاق هي قدوة للناس .

وفي لبنان من الديورة ما يربي على المئتين ، يتبع رهبانها وراهباتها قانون القديس انطونيوس الكبير ، محافظين عليه بتلك الدقة التي تعيد الى الاذهان ذكرى العصور الغوابر . وأما كساويهم فهي من الصوف الاسمر الخشن ، وهي تشبه ثياب الرهبان الكبوشيين وطعامهم كطعام الفلاحين ، غير انهم لا ياكلون اللحم مطلقاً ويكثر عندهم ايام الصيام ويصلون في الليل وفي النهار ، وصلواتهم طويلة . ويقضون باقي وقتهم في الفلاحة وتحطيم الصخور لبناء الجدر التي تستند اليها المراقي العريضة المستحدثة المعدة لغرس الكرمة وشجر التوت . وكل دير فيه اخ صانع احذية ، واخ خياط ، واخ حائك ، وأخ خباز ؛ اي ان بينهم رهباناً يعرفون المهن التي لا غنى لهم عنها . وكثيراً ما يُرى على مقربة من دير الرهبان دير آخر للراهبات ، ومع ذلك لم يسمع قط بحدوث ما يشين سمعتهم ، والراهبات ايضاً يعشن عيشة كلها جدٌّ وعمل وزهد ، ولاشك في ان نشاطهنَّ هو احسن وسيلة لصونهنَّ من عواقب البطالة الوخيمة . لاجل ذلك يجوز القول ان هذه الديورة قد ساعدت على نموّ الفلاحة .

وقد اشتهر دير قزحيا على سير ست ساعات من طرابلس شرقاً ؛ ففيه يطردون الارواح النجسة كما كان مسيحيو العصور الاولى يفعلون . وقد يبدو لنا انه ما زال باقياً في هذه الانحاء مجانين يقال ان فيهم روحاً نجساً ؛ وقد رأى التجار الفرنسيون الذين في طرابلس مجنوناً من هذا النوع حيَّر الرهبان وافقدهم الصبر والحيلة . فهذا المجنون كان يعتريه على حين غرة تشنج تصحبه نوبة تارة خفيفة وتارة صاخبة فكان يمزق ما تصل اليه يده ، ويعضّ ، ويرغي ، ويزبد ، ويقول الشمس الهي ، دعوني اعبدها ؛ فكانوا يسكبون عليه دلاء ماء ويجبرونه على الصوم والصلاة ؛ ويؤكدون انهم توصلوا بذلك الى طرد الروح الخبيث منه .

ونظراً الى تعلق الموارنة بالكنيسة الرومانية ، فقد خصَّهم البابا بمعهد في روما يتثقف فيه شبانهم مجاناً .

وفي لبنان ثلاثة او اربعة مرسلين متوزعين على غزير وطرابلس وبيروت يقوم بنفقات معيشتهم الرهبان الكبوشيون الفرنسيون . واما عملهم فهو الوعظ ، وتعليم الصبيان القرآءة والكتابة وامور الديانة ، وكتاب الاقتداء بالمسيح ، ومزامير داود . وكان لليسوعيين راهبان في عنطورة ؛ فحلَّ محلها رهبان لعازريّون . ومن الفوائد التي نجمت عن هذه الاعمال الرسولية ، انتشار معرفة الكتابة عند الموارنة ؛ فصار لهم في هذه البلاد نفس المنزلة التي للاقباط في مصر ؛ اي ان الاتراك ولاسيما الدروز جعلوا يعهدون اليهم في الاشغال التي يستدعي القيام بها معرفة الكتابة .[1]

(١) معلوم ان كل ما جاء في هذا المقال انما هو كما كان يجري في تلك الايام التي كان فيها فولني في هذه الاقطار . ولا شك ان اموراً قد تبدلت من اوجه ونواحٍ كثيرة .

الدروز

وفد الدروز على لبنان واقاموا فيه هرباً من الاضطهاد الذي أثاره عليهم مواطنوهم ؛ فمثلهم من هذا القبيل مثل الموارنة الذين اعتصموا بهذا الجبل ليأمنوا شرا أعدائهم ، واضطهاد خصومهم .

فكان الدروز والموارنة يوحدون كلمتهم عند دنو الخطر . لاجل ذلك قاوموا معاً الصليبيين ، وسلاطين حلب ، والمماليك ، والعثمانيين . وفي ايام السلطانين سليم الاول وسليم الثاني كانوا ينحدرون من جبلهم لشن الغارة على رعايا السلطان ؛ فينهبون ويسلبون ما تصل اليه يدهم . ومما كان يجرمهم على ذلك ، انهماك ذينك العاهلين بمحاربة فرسان رودس ، والفرس ، والبنادقة وغيرهم .

وقد بذل الحكام الاتراك قصارى جهدهم لردعهم ؛ لكنهم لم يفوزوا بطائل ، اذ الدروز كانوا دوماً ينتصرون عليهم . وقد ظلت تلك حالتهم الى ان ارسل عليهم السلطان مراد الثالث لاجل تأديبهم ، في السنة ١٥٨٨ القائد ابرهيم باشا الذي كان في القاهرة . فحمل عليهم ابرهيم ، فقهرهم ، واخذ منهم غرامة قدرها مليون قرش ، وفرض عليهم ضريبة سنوية .

فتلك الحملة اثرت في حالتهم العامة التي كانت مضطربة متقلقلة ، اذ كانوا يخضعون لمشايخ منقسمين فريقين ، اي فريق قيسي ، وآخر يمني . وقد تراءى لابرهيم باشا ان ينصب عليهم زعيماً يتكفل بجباية مال الدولة ، والسهر على الامن . فالذي اسند اليه ذلك المنصب الخطير ، ما لبث ان غدا صاحب نفوذ عظيم ، بل اخذت سلطته تنمو وتزيد ، حتى ضارعت

سلطة الملوك . فجاءت النتيجة خلاف ما كان الاتراك يتوخونه . فهذا الحاكم المطلق السلطة سيطر على جميع قوى امته حتى صار في وسعه ان يقاوم الدولة نفسها .

ان شوكة الدروز بلغت اشدها في اوائل القرن السابع عشر ، بفضل علو كعب الامير فخر الدين الشهير الذي ما ان تقلد زمام الحكم ، حتى بذل كل جهد للقضاء على سيطرة الحكام الاتراك ، والحل محلهم . وقد سلك لبلوغ هدفه طرقاً دلت على عقل ثاقب ، ورأي صائب ؛ فاول شيء بادر الى عمله اظهار اجلى دلائل الخضوع والولاء للحكومة التركية . وكان اللصوص العرب في تلك الحقبة دائبين في شن الغارة على سهل بعلبك ، وبلاد صور وعكا ؛ فظل الامير فخر الدين يتعقبهم ويقاتلهم حتى ابادهم ، وأنقذ من شرهم البلاد والعباد . وهكذا حمل السكان على الرغبة في ان يكون هو الحكم عليهم .

وكانت بيروت المدينة التي فضّلها على غيرها ، بما انها الطريق المؤدي الى اوربا ، وعلى الاخص الى مدينة البندقية التي كانت حكومتها من اشد اعداء الاتراك . ولكي يتسنى له الاستيلاء عليها ، احتج بالاختلاسات التي ارتكبها الآغا المتولي عليها ؛ فطرده منها ، واحتلها ، وبادر الى اعطائه الباب العالي الدليل على صدقه واخلاصه في ما فعل ، بارساله الى الدولة مالا جزيلا . وقد فعل نفس هذا الشيء لدى استيلائه على صيدا وصور وبعلبك . وما جاءت سنة ١٦١٣ حتى كان قد بسط سلطانه على البلاد كلها حتى عجلون وصفد .

فصاحبا دمشق وطرابلس قلقا من نشاطه ، وأوجسا شراً من امتداد سلطته ؛ فكانا تارة يتصديان له ، وانما بدون جدوى ، وتارة يدسان عليه

عند اولياء الامر في الاستانة ، وقصدهما اهلاكه . غير انه كان يظفر بهما بمساعدة جواسيسه واصدقائه المقيمين في العاصمة .

غير ان الباب العالي قد راعه بعدئذ تقدم الدروز المستمر فوطن النفس على تجريد حملة عليهم . فالامير فخر الدين الذي كان له في ايطاليا اصدقاء يعتمد عليهم ، ويثق بهم ، سافر اليها ، وغايته الحصول على تأييد حكومتها وهو التأييد الذي كانوا يعدونه به . وكان يعتقد ان مجيئه اليهم يوطد عرى الصداقة بينه وبينهم ، ويحملهم على البر بوعدهم له . وكان يظن ايضا ان ابتعاده عن البلاد من شأنه انه يسكن غضب الاتراك ويزيل مخاوفهم .

فابحر من بيروت بعد ما سلم زمام الحكم الى ابنه علي ، وقصد الى بلاد آل مديسيس . فقدوم امير شرقي الى ايطاليا اثار اهتمام الجمهور ، فجعل الناس يتساءلون ما هي الامة التي يمت اليها الامير ، ويبحثون عن اصل الدروز وفصلهم . غير ان الحوادث التاريخية والادلة الدينية كانت ملتبسة عليهم ، فلم يدروا هل هؤلاء الدروز هم مسيحيون ام مسلمون ، فتذكروا عندئذ الصليبيين ، وظنوا ان شعباً يلجأ الى لبنان ، ويقيم فيه رغم انف سكانه لا بد ان يكون من سلالة الصليبيين . فهذا الزعم كان يلائم الامير فخر الدين ، فادعى ان له صلة قرابة بآل لورين ، وأيد ادعاءه المرسلون والتجار الاوربيون ، والفريقان كانا يتوقعان ان يسفر ذلك عن ازدياد عدد المرتدين ، واتساع مجال التجارة . وجعل كل منهم يدلي بالبراهين التي تخطر بباله تأييداً لزعمه ، حتى ان علماء الانساب انفسهم وجدوا تناسباً بين لفظتي « دروز » و « درو » (Dreux) فقالوا ان الكلمتين منشأهما واحد ، وبنوا على ذلك الزعم اسطورة مؤداها ان جالية من الصليبيين جاءت لبنان بزعامة الكونت درو ، واستوطنت هنالك . غير ان البعض فطنوا

الى ان بنيامين دي توديل ذكر اسم الدروز قبل ان يكون هنالك صليبيون. فهذا القول ضعضع ذلك الادعاء ؛ وثمت حقيقة اخرى ، لو نظر اليهـا ، لانارت الاذهان منذ اول ساعة، وهي اللغة التي بها يتكلم الدروز ؛ فلو كانوا متسلسلين من الصليبيين لحافظوا على شيء من آثار اللغة الاوروبية ؛ بينما لغة الدروز هي العربية التي ليس فيها كلمة واحدة مشتقة من لغة اوربية .

واما فخر الدين فانه اقام تسع سنين في ايطاليا ، ثم عاد الى بلاده . وفي اثناء غيابه كسر ابنه علي الاتراك ، ووطد الثقة والطمأنينة في قلوب السكان ، وعالج شؤون البلاد بحكمة ودراية ، ولم يبقَ من ثم للامير فخر الدين الا ان يستفيد مما رآه في اوربا ، فيتقن اسلوب الحكم ، ويجلب الى شعبه السعادة والرفاهة . لكنه بدلا من ذلك مال الى الفنون التافهة الكثيرة النفقات التي ولع بها وهو في ايطاليا ؛ فشيَّد قصوراً اعدها للنزهة والانشراح ؛ وانشأ الحدائق والحمامات ، وزينها بالرسوم والصور والنقوش ، طاوياً كشحاً عن العادات المألوفة في بلاده .

غير ان عاقبة تصرفه هذا ما عتمت ان بدت للعيون ؛ فالدروز الذين كانوا يدفعون الضرائب الباهظة ، طفقوا يتذمرون ويتململون . ففريق اليمنيين استفاقوا من غفلتهم ، وجعلوا ينعون على الامير اسرافه . ثم ان البذخ والترف اللذين أمعن فيهما ، اثارا عليه حقد الباشاوات وحسدهم ؛ لاجل ذلك شنوا عليه الغارة ، لكنه ردهم على اعقابهم ومقاومته لهم أوّلوها للباب العـالي تأويلاً مضراً به .

فمراد الرابع استاء من ان احد رعاياه يجرؤ على التشبه به فـاعتزم اهلاكه ، آمراً نائبه على دمشق ان يزحف بجميع جيوشه الى بيروت مقر فخر الدين ، ويستولي عليها . ثم ارسل اربعين سفينة تضرب الحصار على المدينة ،

ومنع المدد من الوصول اليها .

فالامير الذي كان يثق بطالعه، ويعتمد على عون ايطالية له، لم يبالِ بالامر ، بل عزم على اقتحام العاصفة بلا تردد ولا وجل ؛ فاوعز الى ابنه الذي كان حاكماً على صفد ، بان يقطع الطريق على الجيش التركي . ومع ما كان من البون من حيث المدد ، بين جنوده وجنود الاتراك ، فان علياً لم يحجم عن التصدي لهم . وبعد موقعتين كان هو المنتصر فيهما ، لقي حتفه في موقعة ثالثة .

فانقلبت الامور حينئذ ظهراً لبطن ، وساءت الحالة واي سوء . فاوجس فخر الدين شراً ، وخاف ان يفقد جنوده ، وهو الذي آلمه موت ابنه اشد ألم ، وهمد نشاطه لطعنه في السن ، وعيشه عيشة البذخ والترف ؛ ففارقته شجاعته ، وتضاءلت فيه قوة التفكير ، ولم يعد يرغب الا الصلح ؛ فاوفد ابنه الثاني ومعه الهدايا الى الباشا الربان الاعلى ليعقد الصلح معه . غير ان الربان احتفظ بالابن والهدايا ، و طلب مجيء الامير نفسه اليه ، فخاف فخر الدين واركن الى الفرار . فالاتراك الذين كانوا نزلوا الى البر ، بادروا الى محاصرته في المكان الوعر الذي اعتصم به . ولما عجزوا عن الفوز به بعد حصار دام سنة بتمامها ، تركوه وشأنه غير ان رفقاءه في محنته سئموا وملّوا مما تحملوا من المشقات ، وكابدوا من البؤس والعذاب ، فخانوه بان اسلموه الى الاتراك .

لكنه لم ييأس من النجاة حتى بعد وقوعه في الاسر ، لانه ايقن بالعفو فذهب مع آسريه الى الاستانة ؛ والسلطان مراد الذي سُرّ برؤية امير عظيم يخرّ على قدميه ، عامله في بدء الامر معاملة طيبة ، ولكنه ما عتم ان تذكر ما فات ، واصغى الى حديث المتملقين من افراد حاشيته الذين كانوا يحضونه على قتله . ففي اثناء نوبة شديدة كالتي كانت تعتريه من حين الى حين امر بخنقه (١٦٣١) .

وقد بقي زمام الحكم في يد اسرة الامير فخر الدين الى ان انقرض منهـا

الذكور في القرن الثامن عشر؛ فاتفق المشايخ حينئذ الى نقل مقاليد الحكم الى آل شهاب ؛ فهم الذين كانوا على منصة الحكم حينما وفد ڤولني على سوريا .

والامير ملحم الذي تولى الحكم من سنة ١٧٤٠ الى سنة ١٧٥٩ هو الوحيد في اسرته الجدير بالذكر . فقد توصّل في خلال تلك الحقبة الى تعويض الخسائر التي مني بها بنو قومه ، واستعادة المنزلة التي كانت لهم ، ثم فقدوها على اثر ما نزل بالامير فخر الدين من المصائب والنكبات .

وكان الامير ملحم قد سئم الحكم في آخر ايامه ، فتنحّى عن منصبه في السنة ١٧٥٤ ، ليقضي ما بقي من عمره في العزلة على منوال « العقّال » . غير ان ما حدث بعدئذ من اضطراب امور البلاد اجبره على العودة الى منصة الحكم . وظلّ يسوس الجبل حتى السنة ١٧٥٩ وهي السنة التي مات فيها تاركاً ثلاثة بنين في سنّ الحداثة ، اكبرهم يوسف الذي لم يستطع ان يخلفه ، اذ لم يكن قد جاوز بعد الحادية عشرة من سنيه . لاجل ذلك آل الحكم الى عمه الامير منصور ، تبعاً لسنة شائعة في الشرق ، وهي ان لا يتقلد زمام الحكم من لم يكن بلغ سنّ الرشد .

فالامير الصغير يوسف لم يكن في طاقته ان يدافع عن حقوقه ؛ لكن رجلاً مارونياً اسمه سعد الخوري ، كان الامير ملحم عهد اليه ، في تأديب ابنه يوسف ، تكفّل بالقيام بذلك الدفاع ؛ فكان يروم ان يرى تلميذه اميراً قوياً صاحب بأس وسلطان ؛ فبذل اقصى الجهد ليبلغ هذا الهدف . واول شيء بادر الى عمله ، الانسحاب الى جبيل حيث كان الامير الفتى يملك اراضي واسعة . وهناك دأب سعد في اكتساب عطف الموارنة باسدائه الى افرادهم . فدخلُ تلميذه الوافر ، وضآلة نفقاته ساعداه على الحصول على ما كان يبتغيه . « فالتزام » مقاطعة كسروان كان في عهدة جملة مشايخ لم يكن الشعب راضياً عنهم . فسعد

فاوض صاحب طرابلس في الامر ، وتوصل الى اخذ « الالتزام » برمته .

وكان متاولة وادي بعلبك تعدّوا تخوم لبنان منذ بضع سنين ؛ فجزع الموارنة من جوار هؤلاء الناس ؛ فنال سعد الاذن من والي دمشق بمحاربتهم. فاغار عليهم في السنة ١٧٦٣، وتمكن من اقصائهم عن الاراضي التي كانوا يحتلونها.

وكان الدروز منقسمين فريقين ؛ فسعد حالف الفريق المخالف لمنصور... ودبّر بمهارة المؤامرة التي افضت الى سقوط العم وارتقاء ابن الاخ .

وكان الشيخ ظاهر العمر العربي صاحب بلاد الجليل المقيم في عكا ، بدأ بقلق الباب العالي بغزواته . فلمنعه من الامعان في تعديه ، قلّد الباب العالي عثمان باشا وبنيه ولايات دمشق وصيدا وطرابلس ، فاخذوا يُعدون العدة لشنّ الغارة عليه بجحافلهم . ومنصور الذي كان لا يجرؤ على مقاومة الاتراك بعد ما نجا منهم، نزع الى الاساليب المألوفة ؛ فتظاهر بمظهر المخلص لهم ، بينما كان في الخفاء يساعد عدوهم ، ذلك ما حمل سعداً على سلوك طريق مخالف ، معتمداً على الاتراك في مناهضة «منصور» . فتوصل الى ازاحته وتنصيب الامير يوسف محلّه (١٧٧٠) .

وفي السنة التالية زحف جيش علي بك المصري الى دمشق . فيوسف الذي دعاه الاتراك الى معونتهم، لم يستطع حمل الدروز على مغادرة جبلهم ، والانضواء الى الجيش التركي ، لانهم كانوا يأبون خوض حرب تدور رحاها خارج بلادهم . ذلك فضلاً من انهم كانوا متنافرين غير متحدين . على ان تقاعسهم عن موازرة الاتراك لم يضرّ بهم، اذ القتال جرى بسرعة في دمشق . فكانت عاقبته انكسار الاتراك . وصاحب طرابلس الذي فرّ عقيب الواقعة ابى الرجوع الى مقرّه ، موثراً الالتجاء الى الامير يوسف ؛ فنزل ضيفاً عليه .

غير ان الامور ما لبثت ان تبدلت على اثر انسحاب محمد بك قائد الجيش المصري، كما سيراه القارئ . فالامير يوسف الذي ظنّ ان علي بك صاحب مصر

مات ، وان الشيخ ظاهر العمر لا يقوى على مواصلة القتال وحده ، جاهر بعدوانه له .

وكان الحصار يهدد صيدا ؛ فارسل ألفاً وخمسمئة رجل من حزبه للدفاع عنها . وهو نفسه بعد ما توصّل الى حمل الدروز والموارنة على الانضواء اليه ، انحدر الى سهل البقاع على رأس خمسة وعشرين الف فلاح ، واعمل القتل والنهب في بلاد المتاولة التي كان رجالها آنئذٍ ضاربين الحصار على صور مع جيش الشيخ ظاهر . فسار من ثم الى صور هو واتباعه مهللين فرحين بذاك النصر المزعوم .

ولكن ما ان اتصل الى المتاولة خبر ما فعلوا ، حتى بادر خمسمئة رجل متوالي الى لقائهم ، والغيظ والغضب ملء قلوبهم . فانقضّوا عليهم بغتة ، وهزموهم شر هزيمة . وقد خيل الى رجال الامير يوسف ان الذي حمل عليه هو الشيخ ظاهر نفسه ؛ فدبّت الفوضى والخيانة في صفوفهم ، وجعلوا يقتلون بعضهم بعضاً في الطريق وهم منهزمون ، وقد تناثرت جثثهم على منحدرات جزين ، وفي غابات الصنوبر الواقعة على جانبي الطريق التي سلكوها . واما الذين ماتوا قتلاً بيد المتاولة فعددهم ضئيل .

فالامير يوسف الذي لحقه العار والشنار من جراء هذا الانكسار ، انسحب الى دير القمر . وقد اعاد الكرة على المتاولة بعد وقت قصير ، لكنه لم يفز بطائل . واما الواقعة الاخيرة فانها جرت في السهل الممتد ما بين صور وصيدا .

وعلى اثر ذلك اضطر ان يتنحّى عن الحكم لعمه «منصور» . لكنه ما لبث ان استعاد منصبه على اثر ثورة حدثت في السنة ١٧٧٣ الا انه لم يستطع الاحتفاظ بمقاليد الحكم الا باضرام نار حرب اهلية . ولكي يضمن لنفسه السيطرة على بيروت استعان بالاتراك ملتمساً من والي دمشق ان يوفد اليه رجلاً يستطيع الدفاع عنها ؛ فارسل الوالي اليه رجلاً مُغامراً يجدر بنا ان نجعل له ذكراً خاصاً نظراً الى النفوذ

العظيم الذي توصل الى احرازه ، والدور الخطير الذي قام بعدئذ بتمثيله .

فهذا الرجل الذي اسمه احمد ، ولد في بوسنة ، ولغته الاصلية السلافية ، كما شهد بذلك الربابنة « الرغوزيون »[1] الذين كان يحب محادثتهم . ويروون انه هجر وطنه وهو في السادسة عشرة من عمره ، هرباً من العقاب الذي استحقه بمحاولته اغتصاب احدى نسائبه . فجاء الاستانة ، ونظراً الى ضيق ذات يده باع نفسه من النخاسين الذين اتوا به الى القاهرة؛ فاشتراه علي بك وضمّه الى مماليكه .

وما عتم احمد ان اظهر ما كان متصفاً به من شجاعة وجسارة؛ فكان مولاه يعهد اليه في القيام بالاعمال الخطرة كاغتيال البكوات « والكشفة » الذين كان يرتاب من امرهم ؛ فيقوم احمد بذلك بنجاح تام ، لذلك كُني بالجزار . وكان ذا حظوة لدى علي بك . غير انه حدث بعدئذ ما جرَّ عليه سخط مولاه .

وكان علي بك كثير الريب شديد الحذر ، فاراد ذات يوم التخلص من رجل احسن اليه يدعى صالح بك . فعهد الى احمد في قطع رأسه ؛ لكن احمد ابى ان ينفذ امر مولاه لاسباب لم تعرف . وفي اليوم التالي علم ان مملوكاً آخر يدعى محمد بك قام بتلك المهمة ، وان علي بك فاه بعبارات دلت على شديد استيائه منه . فخوفاً من ان يصيبه ضرٌ ، فرَّ الى الاستانة ؛ وهناك سعى للحصول على رتبة كالتي كانت له في مصر ، ولما اخفق في مسعاه غادر العاصمة . فما ان وصل الى بيروت حتى مضى الى جبل الدروز ونزل ضيفاً على كاخية الامير يوسف . وبعد اقامته في لبنان ردحاً ، توجه الى دمشق حيث اعطي لقب آغا ، وجعل رئيس خمسين .

فما كاد يصل الى بيروت بمهمة الدفاع عنها ، حتى نادى بنفسه حاكماً عليها من

(١) من Raguse وهي مرفأ على البحر الادرياتيكي .

قبل الاتراك ، فعدَّ الامير يوسف ذلك تحدياً له ، فرفع احتجاجه الى والي دمشق ، ولكن الوالي لم يلتفت اليه . فنهض الامير وبادر من ساعته الى محالفة الشيخ ظاهر ، فاسرعا كلاهما الى ضرب الحصار على مدينة بيروت ، بمؤازرة سفينتين روسيتين اطلقتا القنابل عليها بدل مبلغ من المال قدره خمسمئة كيس [1] .

وبعد ما قاوم الجزار مقاومة عنيفة اضطر ان يستسلم . فاعجب الشيخ ظاهر بشجاعته ، واصطحبه الى عكا معاملاً اياه احسن معاملة حتى انه ولاه قيادة حملة صغيرة على احدى نواحي فلسطين . غير ان احمد الجزار انحاز الى الاتراك لدى وصوله الى بيت المقدس وعاد معهم الى دمشق .

ولما انتصر بعدئذ امير البحر التركي على الشيخ ظاهر العمر ، لم يجد اقدر من الجزار على المحافظة على سلطة الاتراك في تلك الانحاء ، فجعله حاكماً على صيدا . فغدا الجزار منذ تلك الساعة سيد الامير يوسف ، فتذكر حينئذ ما جرى بينه وبين الامير في حادث بيروت ، فوطن النفس على الانتقام منه . لذلك كان تارة يخاصمه ، وتارة يصالحه حتى استطاع ان يبتز منه نحو مليوني قرش في برهة خمس سنين . ولعمري انه امر يدعو الى الدهشة والاستغراب ، اذ التزام بلاد الدروز بأسرها كانت قيمته اربعين الف قرش فقط . وفي سنة ١٧٨٤ حاربه الجزار ، وعزله ، ونصب بدلاً منه امير حاصبيا المدعو اسماعيل . غير ان الامير يوسف تمكن من الرجوع الى دير القمر في اواخر تلك السنة بتأديته الى الجزار مالاً وافياً .

وما لبث الجزار بعدئذ ان القى القبض على سعد كاخية الامير متهماً اياه بانه هو الذي اثار الفتنة الاخيرة ، وتهدده بضرب عنقه عقاباً له . فخاف الموارنة على سعد الذي كانوا يجلونه وتوصلوا الى انقاذه من الموت باعطائهم الجزار الف كيس .

---

(١) الكيس خمسمئة قرش تركي ذهباً ؛ والقرش اربعون بارة .

حكومة الدروز

الدروز كالموارنة طبقتان : السوقة والاعيان ، ولو انهم جميعاً فلاحون . وكانت اراضيهم في البدء ملكاً لبعض الاسر ؛ فاضطر بعضهم ان يبيعوا او يكروا جانباً منها . والفرق بين هاتين الطبقتين هو الاساس الذي تقوم عليه السياسة الداخلية ؛ اي ان المصلحة الخاصة تأتي في المقام الاول ، ثم تليها المصلحة العامة . لاجل ذلك كان طمع بعض الاسر مصدر جميع الحروب الاهلية التي حدثت في البلاد ، وسبب سائر الاضرار التي نزلت بالشعب .

فالمشايخ الذين يملكون معظم الاراضي ، جعلوا لهم انصاراً واتباعاً يعتمدون عليهم في منازعاتهم . والزعيم الاعلى هو الحاكم او الامير . ومنصبه يرثه خلفاً عن سلف . وحق الوراثة محصور في الذكور . واذا مات الحاكم ولم يكن له وارث ، خلفه زعيم آخر باتفاق الشعب ورضى الاتراك ، اذ الحاكم يعد عاملاً من قبل هؤلاء على امته . وقد يحدث ان يولى عليهم حاكم رغم انفهم ، كما جرى في عهد الجزار . لكن الحاكم الذي لا يرضى به الشعب لايستطيع البقاء على كرسي الحكم ما لم تؤيده السلطة التي نصبته .

ان واجب الحاكم السهر على صيانة الامن ومنع الامراء والمشايخ من محاربة بعضهم بعضاً . وله الحق ان يعمد الى الوسائل الشديدة لاجبارهم على طاعته . وهو الذي ينصب القضاة ، محتفظاً بالسلطة العليا : فيمنح العفو ، ويحكم بالموت ، ويأمر بجباية الضرائب ويعين مقدارها ، ويدفع الى الوالي المال المفروض على الجبل . وهذا المال يختلف مقداره باختلاف مقدرة الامة على المقاومة فيما اذا حملت ما لا تطيق . وقد كان في الآونة الاخيرة مئة

وستين كيساً فالامير ملحم حمل الاتراك على جعله ستين كيساً فقط . وفي السنة ١٧٨٤ اي في ايام الامير يوسف صار ثمانين .

فهذه الضريبة التي يدعونها « الميري » فرضت على التوت والقطن والغلال والكرمة . فكان يجبى عن كل شجرة توت ثلاث بارات ، وعن كل مئة جفنة اربعين بارة . ويعاد الاحصاء من حين الى آخر لئلا يلحق الغبن باحد . وما من احد، اميراً كان او شيخاً او من السوقة، مُعفى من هذه الضرائب. ومن مصلحة الامير ان يحمل الاتراك على الاكتفاء بالقليل ، لانه يحتفظ بالفرق . وليس في وسعه ضم شيء اليها بلا موافقة الاعيان الذين يحق لهم معارضته إن اقدم على زيادتها من نفسه .

وموافقة الاعيان لا بدّ له منها ان اراد اعلان حرب او عقد صلح ؛ فعليه عندئذ ان يجمعهم لاستشارتهم في الامر . وكل شيخ بل كل فرد ذي مكانة ، له الحق ان يبدي رأيه . فالحكم عندهم هو شعبي ومطلق في آن واحد . بيد ان الامور بأسرها تسير هنالك على حسب تعاقب الحوادث ، وتكيُّف الأحوال . فان كان الحاكم صاحب عقل ودراية ، فعل ما شاء ، فهو حينئذ مطلق السلطة . والا فوجوده على كرسي الحكم وعدمه سيان ، بما ان الشرائع الثابتة معدومة هناك ؛ فالحاجة اذن الى نظام مستقر غير متقلقل اصل كل الاضطرابات التي تحدث في جميع البلاد الشرقية .

لا الحاكم ولا الامراء الاخرون لديهم جنود ؛ فليس عندهم سوى خدمهم وبعض العبيد الزنوج . وكل رجل ، ان شيخاً او فلاحاً يعد نفسه جندياً في اوان الحرب ؛ فيمضي الى المكان الذي يعينه الحاكم ، آخذاً معه كيس طحين وبندقية ورصاصاً وبارودا . واذا كانت الحرب اهلية تَسلّحَ الخدم والمزارعون والاقرباء والاصدقاء ، والتفُّوا حول سيدهم اوعميدهم ؛ فيبدو عندئذ ان تلك

الجماعات المتهيجة ستفتك بعضها ببعض . ولكنهم قلما يتقاتلون ، اذ في آخر ساعة يقوم افراد بالتوسط بين الفريقين فيصلحون ذات البين وتوسط كهذا يرحب به جميعهم ، ولاسيما الزعماء الذين يتحتم عليهم القيام بنفقات ذخيرة وميرة رجالهم . فهذا النمط المفيد المتبع في الحروب الاهلية ، لا يخلو من الضرر ان اتبع في الحروب الاخرى ، كما حدث في السنة ١٧٨٤ عند ما حاول الجزار التمهل والتسويف ، لعلمه ان الجيش كله يعيش على حساب الامير ؛ فالمقاتلون الذين كانوا يودُّون ان يقوم غيرهم بنفقاتهم أجلوا القتال ؛ فسئم الامير مماطلتهم واضطر ان يعقد صلحاً مضراً به وبشعبه .

فعندما اعلن الامير يوسف الحرب بالاتفاق مع المشايخ ، تسلّق منادون ذرى الجبال في المساء ، واخذوا يصيحون قائلين : هبوا الى الحرب ايها المشايخ الكرام ، فامتطوا جيادكم ، وخذوا سلاحكم ، واذهبوا غداً الى دير القمر . يا غيرة الله ! يا غيرة الدين !

فهذا النداء ما سمعه سكان القرى المجاورة ، حتى جعلوا يردّدونه ؛ فبلغ اقصى البلاد في وقت قصير . وكان لنبرة الصوت ودويّ الاصداء في هدوء الليل روعة وتأثير . ففي اقل من ثلاثة ايام بلغ عدد الرجال الذين لبوا النداء ، ووفدوا على دير القمر ، خمسة عشر الفاً . وكان في وسعهم البدء بالقتال في الحال .

وهؤلاء الرجال جميعهم مشاة ، ما عدا المشايخ والامراء . واما حربهم فانها حرب مراكز ، بما انهم يأبون الانحدار الى السهول ، مؤثرين الاماكن الوعرة لئلا يتعرضوا لهجوم الفرسان ، فيثبون من صخرة الى صخرة ، مصوبين نيران بنادقهم الى العدو من وراء المتاريس ؛ وهكذا يتقون قذائفه . انهم رماة ماهرون ؛ ويحسنون المباغتة والحملات الليلية الفجائية ، ويعرفون كيف يكمنون

للخصم ، ويدنون منه ، ويفتكون به . يقنطون سريعاً وسريعاً يستعيدون رباطة جأشهم فهم شجعان حتى التهور والمخاطرة ، لذلك تراهم احياناً قساة القلوب ولهم على الاخص صفتان تجعلانهم من احسن الجنود ، وهي الطاعة والصحة . ففي حرب سنة ١٧٨٢ قضوا ثلاثة اشهر في الهوآء الطلق ، لا خيام تظلهم ولا شيء يقيهم القرس سوى معطف من جلد خروف . واما غذاؤهم فانه كان الخبز العادي الذي يخبزونه تحت الرماد ، او على آجرةٍ ، وبصلاً اخضر ، وجبناً وزيتوناً ، وثماراً وشيئاً من الخمر . وقد عاشوا مئة يوم حيث جيش فرنسي او انكليزي متساوٍ لهم بعدده لا يستطيع ان يعيش عشرة ايام .

غير انهم يجهلون طريقة اقامة الاستحكامات ، واستعمال المدافع ؛ كما انهم لا يعرفون كيف يجب ان يعسكروا او يحاربوا حسب الاصول الحديثة . فلو وُجد فيهم من يتقن تلك الاصول ، لاقبلوا على تعلمها منه بطيبة نفس ؛ وليس من الصعب تدريبهم عليها .

وكان عدد حملة السلاح بحسب الاحصآء الاخير اربعين الفاً . فعدد افراد الشعب اذاً مئة وعشرون الفاً ؛ ولا يمكن زيادة شيء على هذا التقدير ، اذ ما من درزي يقيم في المدن الساحلية .

فان قابلنا مساحة الارض بعدد سكانها ، وجدنا الفاً وتسعمئة نفس في الفرسخ المربّع ؛ فلبنان يشبه فرنسة من هذا القبيل ؛ غير ان جانباً كبيراً من اراضيه بائر ، وما يعطي من القمح لا يكفي مؤونة سكانها ثلاثة اشهر . والغلات الاخرى هي الحرير والقطن اللذان قيمتهما لا توازي ثمن الحنطة التي يؤتى بها من حوران ، والزيت المجلوب من فلسطين ، والبن والارز المبتاعين من بيروت .

فازدحامهم في اراضٍ لا تفي بحاجاتهم ، يعود الى محاسن الحرّية التي

يتمتعون بها ؛ فان كل واحد منهم يعيش ناعم البال، مطمئناً الى ماله وعياله، بخلاف ما هي الحالة عليه في سائر البلاد الشرقية .

واما حياتهم من حيث سعة العيش او شظفه ، فانها تشبه حياة امثالهم في البلاد الشمالية ؛ الا انهم ههنا مرتاحو الفكر ، لا يساورهم خوف من مفاجأة جنود الدولة لهم ، بنهب بيوتهم وخطف افراد اسرهم ، والإمعان في حزبهم . فهذه المظالم لا أثر لها في الجبل . فالامن والطمأنينة هما اذاً الباعث الاكبر على نمو الشعب الدرزي ؛ وهناك داع آخر الى نموهم ، هو زهدهم .

ثم ان اسراً مسيحية عديدة تهجر البلاد التركية على التوالي ، وتأتي لبنان للاقامة فيه ؛ فالموارنة يرحبون بهم كاخوة ، والدروز يؤهلون بهم كضيوف ، مدفوعين بروح التسامح الذي اشتهروا به ، وبرغبتهم في ازدياد عدد الزرّع والمحالفين ؛ فيعيشون معاً بسلام ووئام .

والدروز لدى مقارنتهم حالتهم بحالة غيرهم من رعايا الدولة ، يرون انفسهم احسن حظاً من هؤلاء؛ وبما ان يد المستبدين لا تصل اليهم، فيشعرون في باطنهم بالتفوق على جيرانهم ، لانهم ليسوا اذلاء مثلهم . ولاجل ذلك نشأ فيهم الميل الى الافتخار والجدّ والنشاط ، والشرق بأسره يشهد لهم بما اتصفوا به من نباهة واقدام وشجاعة وجسارة ومروءة .

ثم ما من احد يغار على العرض مثلهم ؛ فان اقل اساءة او اهانة تؤول الى سفك الدماء . فغيرتهم تلك قد اوجدت فيهم حرصاً شديداً على افعالهم واقوالهم ، ومجاملة في التعامل مما لا نجده عند غيرهم من الشعوب . وقد يغالون في المجاملة حتى انها في غالب الاحيان لا تعبرّ عن حقيقة فكرهم وشعورهم . واما زعماؤهم فانهم يتفننون اساليبها نظراً الى اضطرارهم الى

مداراة زيد وعمرو . ثم ان الحذر متحتم على الجميع خوفاً من عاقبة الثأر الوبيلة . ولربما عادة الثأر بدت لنا عادة وحشية ، لكنها في بلد تشملها الفوضى ، تقوم مقام المحاكم القانونية التي عدلها ليس بالاكيد ولا بالسريع .

والدروز فضيلة اخرى عربية ، وهي اكرام الضيف ؛ فهم يقرون ويؤاوون بلا تصنع ولا مِنَّة من يطرق بابهم مستجدياً او عابر طريق . وقد رأى ڤولني غير مرة البعض من عامتهم يعطون السائل آخر كسرة من خبزهم . وعندما كان يقول لهم : انتم اولى بها ، كانوا يجيبونه : الله كريم . ألسنا جميعنا اخوة ، لذلك لا يقدم احد في بلادهم على اقامة فندق

ويعتبرون الخبز والملح رمز عهد لا يجوز الاخلال به . وقد تمرَّد ذات يوم احد اغوات الانكشارية في دمشق ، ففرَّ منها ، ولجأ الى الدروز . ولما علم الباشا بمحل اقامته ، طلبه من الامير مهدده بشن الغارة عليه فيما اذا ابى او توانى في تسليمه . فالامير طلبه من الشيخ تلحوق ، وهو الذي اجاره وانزله في داره . فغضب الشيخ وقال للذي اوفده الامير : متى كان الدروز يخونون الضيف ، ويردون المستغيث ؟ قل للامير : لا تسقط شعرة واحدة من رأس نزيلي ما دمت في قيد الحياة . فهدد الامير باخذه عنوة . فحينئذ سلَّح تلحوق جميع افراد اسرته ، وتأهب للمقاومة . فخاف الامير من نشوب فتنة وفزع الى وسيلة تُعدّ شرعية في عرفهم ؛ لاجل ذلك قال للشيخ : سأقطع من اشجارك خمسين شجرة توت كل يوم الى ان تسلم الآغا ؛ فقطعوا له الف شجرة . ولكنه لم يبالِ . فعندئذ غضب المشايخ الآخرون ، وتحزبوا لتلحوق ، واوشكت الفتنة ان تشمل الجبل باسره . غير ان الاغا فرَّ على حين غرة ، ومن غير ان يدري به تلحوق ، لان ضميره ونبَّه على كونه هو السبب الاول لكل ما جرى .

ان الدروز كالبدو يجعلون لقِدَم الاسر واصلها وفصلها شأناً كبيراً . غير ان ذلك لا يسفر عنه اي محذور او ضرر ذو بال . فان كرم المحتد والنسب لايعفي المشايخ وغيرهم من تأدية الضرائب ، ولا يخولهم اي حق استثنائي . كما انه لا يجعلهم يطمعون في الحصول على اتاوة او ضريبة اقطـاعية . وكل منهم سيد مطلق في بيته ، وما عليـه الا دفع المال المفروض عليه ، او وفاء اجرة البيت او الارض اللذين اكتراهما . ولا يطالبون بضريبة الارث . واميرهم لا يدعيّ انه المالك الاول لجميع العقارات الخصوصية والعمومية كما يدعي السلطان في الاماكن الاخرى من بلاد الدولة . غير ان في شرعية الارث عيباً سيء العاقبة ؛ فللآباء لهم الحق كله بنص الشرع الرومـاني ان يفضلوا ابناً على ابن ، فكان من جراء ذلك ان آلت الاملاك في بعض اسر المشايخ الى فرد واحد وهو بدّدها في سبيل كيد المكايد ودسّ الدسائس ؛ بينما اقرباؤه ظلوا كما يقولون هناك « امراء الجبن والزيتون » أي فقراء عدماء كغيرهم من عامة الشعب .

ثم ان الدروز ينفرون من مصاهرة اسرة غير اسرتهم ؛ فهم يفضلون القريب ولو كان فقيراً على الغريب ولو كان غنياً . وقد حدث ان قرويين لا جاه لهم ولا مال ، ابوا مصاهرة تجار من بيروت او صيدا اصحاب ثروة تربو على اثني عشر الف قرش . وعند العرب في سورية عادة شائعة ، وهي زواج الرجل بارملة اخيه كما يفعل اليهود .

وقصـارى القول ان الطابع الذي ميّز الدروز من غيرهم الروح الشعبي المتأصل فيهم ، وهو الروح الذي يسبغ عليهم نشاطاً قلما تجده في غيرهم من رعايا السلطان . جاعلاً عندهم تسامحاً جميلاً لا مثيل له . وفي ما خلا ذلك ، تراهم لا يختلفون عن باقي الشرقيين من حيث المعيشة والمزاعم والعادات : فالمضـارة

والطلاق جائزان عندهم ، غير انهما نادرا الحدوث في الاوساط الشعبية ، اذ انهماكهم في حراثة اراضيهم وزراعتها والاعتناء بها يجعلهم لا يشعرون باي حاجة مصطنعة . فهم لا يفرطون في الشهوات والعواطف التي تكثر في سكان المدن ، فالخمار الذي تستتر به نساؤهم ، يقيهم الابتغاآت التي تعتري المجتمع . فكل واحد منهم لا يعرف الا وجه امرأتـه واخته وكنته ، وكل يعيش في وسط اسرته .

والنساء حتى زوجات المشايخ ، يعجن ويحمصن البن ويغسلن الثياب ، ويطحن ، اي انهن يقضين الوقت في اشغال منازلهن . والرجال يفلحون الكروم وبساتين التوت ، ويبنون جدر المراقي التي يعدونها لنصب الشجر ، وغرس الاجفان ، ويحفرون المجاري ، ويفتحون القنوات .

وقد يتفق لبعضهم ان يجتمعوا مساء في باحة دار الشيخ ، او على بيدره ، او في بيت احدهم ، فيجلسون على شكل حلقة متربعين وخنجرهم في نطاقهم ؛ فيتسايرون ويتحادثون عن اشغالهم ، وغلة اراضيهم وعن المحل او الخصب ، والصلح او الحرب ، وعن مقدار الضرائب ، وسلوك الامير ، وسير الامور ، والحوادث السالفة ، والاحوال الراهنة ؛ وعما عساه ان يحدث في القريب العاجل ، او البعيد الآجل .

وكثيراً ما يترك الصبيان لعبهم ومرحهم ، ويأتون للاصغاء الى ما يقال في غضون تلك الاجتماعات . ولقد يعجب المرء اذا ما رأى اولاداً في العاشرة او في الثانية عشرة من عمرهم ، يتحدثون برصانة عن الاسباب التي حملت الجزار الى اعلان الحرب على الامير يوسف ، وعن مقدار المال الذي انفقه الامير . والزيادة التي ستضم الى الضرائب ، وعدد البندقيات التي في المعسكر وصاحب احسن فرس . فثقافتهم مقصورة على مثل هذه الامور ، فهم لا يعرفون غيرها ، ولا

يتعلمون قراءة المزامير كما يفعل النصارى ، ولا قراءة القرآن كما يفعل المسلمون .

انهم يجهلون العلوم المفيدة والملذة ، لكن عقولهم معصومة عن الافكار الفاسدة المضرّة . ولا ريب ان جهلاً كهذا لخير من اضرار علم ناقص . واما الفائدة التي نجمت عن هذا الجهل فهي المساواة في عقولهم ، مما جعلهم لا يشعرون كثيراً بالفرق الذي بين غنيهم وفقيرهم ، او بالتفاوت الذي بين كبيرهم وصعلوكهم .

الحق اننا لا نرى عندهم ذلك البون الشاسع الذي تجده بين طبقة واخرى عند غيرهم من الشعوب ، وهو البون الذي يذلّ الصغار ، ولا يرفع شأن الكبار ؛ فالمشايخ والسوقة يتعاملون بتلك الالفة المعقولة التي لا تمت الى الاباحة ، ولا هي تشبه الخنوع ، فالامير الكبير نفسه ليس سوى نبيل ريفي لا يأنف من قرى احقر فلاح ، والجلوس معه الى خوان واحد .

وقصارى القول ان طباعهم هذه هي طباع شعوب العصور الغابرة اي الطباع المختصة بالحياة الريفية وهي التي اضطرت الامم باجمعها ان تبدأ بها حياتها القومية . فالشعب الذي تلك حاله ، يعد كانه ما زال في اول مرحلة من التحول الاجتماعي .

المتاولة

يقيم المتاولة في الوادي العميق الذي يفصل لبنان عن جبال ولاية دمشق ؛ وهم شعب صغير مستقل بنفسه ، يختلف عن شعوب سورية الآخرين باعتقاداته وعاداته. ولم يكن لهم في ما مضى سوى مدينة بعلبك وبعض القرى والاراضي الواقعة في الوادي المشار اليه . والحكم عندهم يقوم به بعض المشايخ ، وعلى راسهم زعيم من آل حرفوش . وقد تكاثروا حتى وصلوا في القرن الثامن عشر الى اعالي البقاع ؛ ثم تغلغلوا في لبنان، واستولوا على اراض يملكها الموارنة ، ووصلوا حتى بشري ، فاضطر الامير يوسف ان يحمل عليهم ويردهم على اعقابهم . وعلى اثر بعض غاراتهم تسنى لهم ان يصلوا الى جوار صور؛ فاستاء صاحبا دمشق وصيدا من الاضرار التي الحقوها برعاياهما ، ومن تقاعسهم عن اداء اموال الدولة المستحقة عليهم ، وهدداهم بانزال اشد العقاب بهم ، ولو ان ذلك لم يكن بالامر الهين . فانتهز الشيخ ظاهر العمر الفرصة ، وتوسط بينهم وبين الواليين ، متكفلاً بدفع الاموال المستوجبة عليهم ، وواعداً بمنع تعدياتهم وغزواتهم . وبذلك تمكن من استجلابهم اليه ، فكان هو الرابح ، اذ كان في وسع هذا الشعب الصغير ان يمده بعشرة آلاف فارس كاملي السلاح .

وبعد ذلك بوقت وجيز استولوا على صور ، وجعلوها ميناءهم . وفي السنة ١٧٧١ آزروا الشيخ ظاهراً وعلياً بك المصري اذ كانا يحاربان الاتراك . غير ان الامير يوسف اجتاح آنئذ بلادهم . وكان الامير على مقربة من قلعة جزين حينما علموا، وهم عائدون من دمشق، بما الحق بهم من الاذى؛ فهب خمسمئة رجل منهم وهجموا كالليوث على رجاله عازمين عزماً اكيداً على الموت في سبيل اخذ ثأرهم .

فهذه المباغتة ، والاضطراب الذي نشأ منهـا ، والشقاق القائم بين حزبي الاميرين منصور ويوسف ، كل ذلك آل الى نجاح تلك المجازفة اليائسة ، حتى ان جيش الامير يوسف الذي كان يربو عدده على خمسة وعشرين الفاً ، ما عتم ان انهزم شر هزيمة .

غير ان ولاء المتاولة للشيخ ظاهر تضاءل عندما اخذ نجمه بالافول ؛ وقد انتهى بهم الامر الى التخلي عنه في غضون النكبات التي اودت بحياته . ولكنهم ما لبثوا ان نالوا جزاء ما فعلوا ، لان الجزار بعد ما سيطر على عكا وصيدا في السنة ١٧٧٧ اخذ يسعى لهلاكهم . لذلك اضطروا ، بغية مقاومته ، الى مصالحة الدروز والانضواء الى الامير يوسف ، ومع ان المقاتلين منهم كان قد تضاءل عددهم حتى لم يعد يجاوز السبع مئة ، فقد فعلوا ما لم يقوَ على فعله العشرون الفاً من رجال الامير يوسف المحتشدين في دير القمر ، فهم الذين افتتحوا وحدهم حصن مارجبا ، وقتلوا بحد السيف الخمسين او الستين ارنوطياً المختصين به . غير ان تفرق كلمة زعماء الدروز احبط الجهود ، ومكّن الباشا في نهاية الامر من السيطرة على الوادي كله وعلى مدينة بعلبك ذاتها .

الشيخ ظاهر العمر

الشيخ ظاهر عربي الاصل متحدر من قبائل البدو المقيمين بجوار بحيرة طبرية؛ وقد اشاع عنه خصومه للحط من قدره ، انه كان يرعى الابل في صغره ، ولكن ذلك لا ينافي كونه رفيع الاصل كريم المحتد . فمن عادة امراء العرب ، قديماً وحديثاً ، ان يقوموا باعمال يَعُدُّها الاوربيون مذلّة ؛ لذلك نرى المشايخ انفسهم يسوقون ابلهم ، ويعتنون بخيلهم ، بينما نساؤهم وبناتهم يطحنَّ ، ويخبزن ، ويغسلن الثياب ، ويردن الماء كما كانت تفعل النساء في عهد ابرهيم الخليل وهوميروس .

ولا ريب في ان حياة نشيطة كهذه تجلب السعادة ؛ فهي خير من البطالة المضرة والترف المملّ الذي يرتع فيه ويمرح كبراء الامم المتمدنة .

واما الشيخ ظاهر فمن الجلي الثابت ان اسرته كانت تعد من اقوى اسر البلاد ؛ فبعد موت ابيه في غرة القرن الثامن عشر آزر عمه واخوته في الحكم . فكان حكمه مقصوراً على صفد البلدة المحصنة الواقعة في وسط الجبال الى الشمال الغربي من بحيرة طبرية ؛ فضمّ اليها بعد وقت وجيز مدينة طبرية نفسها ، وقد رآه فيها بوكوك في السنة ١٧٣٧ منهمكاً في تحصينها ليتقي هجوم والي دمشق الذي كان قد خنق من مدة قصيرة احد اخوة الشيخ .

وفي سنة ١٧٤٢ جاء وزير آخر اسمه سليمان باشا العظم اخو الاول وخلفه، وحاصر الشيخ فيها ، وضربها بالمدافع ؛ مثيراً دهشة السوريين الذين لم يكونوا يعرفون الا النزر اليسير عن القنابل[1] فغدا الشيخ في ضيق شديد من جراء

(١) اطلع فولني على رسائل « جان جوزيف بلان » الذي رافق جيش سليمان باشا ؛

ذلك ، مع ما كان عليه من الشجاعة . وانما حادث فجائي أنقذه من المأزق الذي كان فيه ، وهو ان سليمان باشا لقي حتفه على اثر زحار شديد اعتراه على حين غرة . فاخوه وخلفه اسعد باشا لم يرغب في مواصلة القتال ؛ فاطمأن بال الشيخ من هذا القبيل .

غير ان نزاعاً نشب عندئذ بينه وبين عمه واخيه ؛ فقاتلهما وانتصر عليهما ؛ فاصبح سيد اسرته الاوحد والحاكم المطلق على بلاده : فاخذ من ثم يقدح الفكر لبلوغ ما كان يطمح اليه .

فالتجارة التي اقدم على تعاطيها ، على منوال ما كان الحكام والامرآء الشرقيون يفعلون حينئذ ، جملته يشعر بضرورة فتح طريق له من جهة البحر . وقد رسخ في ذهنه انه بامتلاكه مرفأ يستطيع ان يوجد بندراً يتوافد اليه الاجانب لابتياع غلاله باسعار طيبة ؛ فعكا الواقعة على مقربة منه ، كانت طبق مرامه . وكان منذ سنين عديدة يتعامل مع التجار الفرنسيين المقيمين فيها ، وكانت آنئذ في اسوإ حال تشبه قرية حقيرة غير محصنة ، يسهل اقتحامها والاستيلآء عليها .

وكان الباشا صاحب صيدا قد عمل على عكا احد الأغوات واصحبه بعض العساكر ؛ غير انهم لم يكونوا يجرؤون على الخروج منها ، بما ان البلاد التي حولها كان البدو مسيطرين عليها . والسهل هنالك وهو الذي كان فيما مضى كثير الخصب ، امسى بائراً تكثر فيه المياه الآسنة فتفسد الهوآء وتنشر الوبآء .

وكان مرفأها القديم خراباً ، لكن خورها الفسيح اعجب الشيخ الذي عقد النية على الانتفاع به . الا انه كان في حاجة الى عذر او حجة

وفيها وصف لذلك الحصار وضرب المدينة بالقنابل .

للاستيلاء عليه . فعلم ذات يوم بانه بُعث الى تلك المدينة باعتدة حربية لاستعمالها في مقاتلته فارسل الى آغاها كتاب تهديد ؛ ثم زحف فجأة اليها برجاله . فخاف الآغا خوفاً شديداً ، وفرّ اساعته منها ، وهكذا تسنّى للشيخ ان يدخلها ويستولي عليها بلا قتال (١٧٤٩) .

وكان عمره آنئذٍ نحو ثلاثاً وستين سنة . لربما ظنّ احد ان من كانت تلك سنّهُ ، لايقدم على مغامرة كهذه . بيد ان هذا الشيخ كان وهو في التسعين من عمره يعتلي جواداً جموحاً ويبدو عليه نشاط الشباب .

فاستيلاؤه على عكا كان عملاً شديد الخطر ؛ لكنه اتخذ الحيطة لنفسه بمبادرته الى ابلاغ صاحب صيدا الامر برسالة قال فيها : ان ما جرى بيني وبين الآغا لحادث شخصي ؛ فانا عبد السلطان المطيع واحد رعاياك المخلصين ؛ فاقوم بدفع المال الذي كان يؤديه الآغا ، واردع البدو عن اقلاق السكان والتعدي عليهم ، وابذل الجهد لاعادة البلاد الى سابق عهدها من الامان والعمران .

فتلك الاقوال وبضع مئات من الدنانير كان لها التأثير في ديوانَي صيدا والاستانة ؛ فقبل اولياء الامر ما فرض ، ومنحوه ما طلب . لكن الباب العالي الكثير الخبرة بمثل تلك الحيل واساليب الخداع لم تغرّه اقوال الشيخ ؛ وانما كان يأبى التضييق على اصحاب الاقطاعات ، لتيقنه بان محاربة جميع العصاة والمتمردين عليه ، عمل لا نهاية له يتطلب الكثير من المال ، والعدد الكبير من الرجال ، فضلاً عما يتعرض له من الاخفاق الذي يؤول الى حمل العصاة على التمادي في غيهم ، والاصرار على عصيانهم . لاجل ذلك يتذرع اولياء الامر في الاستانة بالصبر وطول الاناة مترقبين الفرص السانحة للايقاع بهم ، او مثيرين عليهم جيرانهم او اقرباءهم ، او ابناءهم انفسهم . والعصاة يسيرون جميعهم على نمط واحد ،

فلذلك تكون خاتمتهم واحدة .

والشيخ ظاهر ايضاً لم تغرّه مظاهر عطف ارباب الدولة عليه ؛ فعكا التي اراد ان يجعلها قاعدة حكمه، لم تكن منيعة فعزم على تحصينها ، مشيداً في سنة ١٧٥٠ بناية في الزاوية الشمالية المطلة على البحر ، فجعلها سكناً له ، ثم ركّب عليها مدافع ، واقام ابراجاً لحماية المرفإ ، وسوّر المدينة من جهة البرّ .

فتلك الاعمال عدها الاتراك عاديّة ، مع ان الغاية منها كانت واضحة جلية، ولو ان قصر الشيخ بجدره العالية القليلة الثخانة ، وخندقه الضيق ، وابراجه العتيقه الطراز لم يكن يقوى على صدّ مُغير ؛ فاربعة من المدافع العادية تدك بطلقتين الجدار دكاً ، وتحطِّم المدافع الاربعة البالية المنصوبة على علو خمسين قدماً ، حتى سور المدينة ذاته لا مناعة له ، وليس امامه خندق ، وعمقه لا يزيد على ثلاثة اقدام .

ففي تلك البلاد ما من احد يعرف كيف تبنى الحصون على مقتضى الاسلوب الحديث ذي الخطوط الدفاعية ، والمسالك المقبّية ، والمتاريس المتينة .

وبادر الشيخ بعدئذٍ الى اجراء اصلاحات جمة عادت عليه بجزيل الفائدة : فعربُ بني صخر والقبائل الاخر كانوا يعتدون على الفلاحين ، فاضطر هؤلاء الى الارتحال تخلصاً من شرهم ؛ فاقدم الشيخ على ردع المعتدين ، متذرعاً تارة بالتهديد، وتارة بالتوسلات واخرى باعطائهم سلاحاً ونفحهم بالعطايا والهدايا الى ان توصل الى نشر لواء الامن والطمأنينة على البلاد . فشرع الفلاحون يزرعون القمح ، فلا تأكله الخيل ويحصدون الغلة فلا تنهبها اللصوص .

فعجب الناس من هذا الانقلاب السريع ، وطفق يتوافد على بلاد الشيخ فلاحو البلاد الاخرى الذين كانوا في موطنهم يعانون الظلم ويسامون ذُلاً ، ويجردون مما يملكون ، فيجدون في كنف الشيخ التسامح في الدين ، والعدل

في الحكم ؛ حتى ان قبرص ذاتها التي رزحت تحت وقر الاستبداد ، وكابدت امرّ الويلات ، وقاست العذاب الاليم الذي انزله بها « كور باشا »[1] – اجل ان قبرص هذه شهدت انتزاح قافلة كبيرة من ابنائها الى عكا . فالشيخ اكرم وفادتهم ، واقطعهم الاراضي ، فجعلوها بساتين وحدائق . والأوربيون الذين لمسوا رواج تجارتهم ، بادروا الى فتح وكالات في عكا . وهكذا حييت الارض بعد ان كانت مائتة ، والمياه عادت الى السير في مجاريها ؛ فنقي الهوآء ، وغدت البلاد نظيفة لطيفة مستحبّة .

ثم وطد الشيخ محالفاته مع القبائل الكبرى ، وجعل ابناءه يصاهرونها ؛ فيجني من ذلك فوائد جمة ، اهمها حصوله على ملجإٍ امين فيما اذا أفل نجمه ، وزال سؤدده . ثم انه بعمله هذا توصل الى كبح جماح صاحب دمشق ، والى اقتناء الجياد الكريمة التي كان مولعاً بها . لاجل ذلك كان يجامل عشائر بني صخر وعنزة وغيرهما .

وقد حدث آنئذٍ انه شوهد لأول مرة في اسواق عكا وشوارعها ، هؤلاء الرجال الصفار الذين هيئتهم ادهشت السوريين انفسهم . وكان الشيخ يهبهم ملابس وسلاحاً . فكانت المرة الاولى التي رأت البادية رجالها يرتدون بالسراويل ، ويحملون بنادق حديثة ، وطبنجات جديدة ، بدلاً من القسي والبنادق القديمة الطراز .

وكان المتاولة يقلقون بال صاحبي دمشق وصيدا ، بغزواتهم ورفضهم دفع الاموال المفروضة عليهم ؛ فعرف الشيخ بثاقب عقله ما يستطيع ان يجنيه من

(١) عند ما جاء كور باشا قبرص ، ألقى القبض على بعض السكان والقاهم من اعلى الاسوار على كلاليب من حديد غرسها في الارض فكانت تنشب في اجسامهم فيظلون معلقين بها يقاسون من الآلام اشدها الى ان يقضوا نحبهم .

مخالفته لهم ؛ فتدخل في بدء الامر كوسيط صلح ؛ ولكي يوفق بينهم وبين الاتراك ، عرض على الفريقين ان يدفع هو تلك الاموال . فالوزيران اللذان رأيا ان الضرائب ضُمنت تأديتها رضيا بالامر ، فسرّ الشيخ بهذه الصفقة الرابحة التي انالته صداقة امة تستطيع ان تمدّه بعشرة آلاف فارس .

بيد انه لم يُتح له ان يجني ثمار نشاطه وهو ناعم البال ، لان دسائس ذوي قرباه كانت تضعضع سلطته وتقلق باله ؛ فهؤلاء لم يكونوا اقل خطراً عليه من ذاك المولى الواقف له بالمرصاد ، واعني به صاحب صيدا .

وقد نهج هو ايضاً خطة سيئة العاقبة بتوزيعه الحكم على ابنائه ، وتوليته اياهم على بلاد تعطيهم ما كانوا يشتهون ؛ فكان من جرآء ذلك انهم امعنوا في الاسراف وافرطوا في البذخ ، وعاشوا عيشة الزهو والترف ، فلما ضاع التوازن بين كفتي الدخل والنفقات ، اقدموا على ارهاق الشعب . فالشعب رفع شكواه الى الشيخ ، وهو بادر الى توبيخ ابنائه . فالمتملقون المفسدون وسّعوا شقة الفتق بين الاب والابناء الذين كانوا يعللون انفسهم بما كانوا سيصيبون من ميراث مستعجلين الاوان .

وكان عليه ان يعين وارثاً يخلفه في الحكم وسائر امتيازاته . لكن كلاً منهم كان يسعى ان يكون هو ذلك الوارث ، مما اضرم فيهم نار الحسد والشقاق . اما هو فانه اتبع حيالهم خطة عوجآء ، اي انه كان يوسع ذاك الشقاق ؛ ولعله كان يعتقد ان في ذلك فائدة له ، لكونه يضطرّ جنوده الى التدرُّب على اساليب القتال ، والتأهب الدائم للحرب . غير ان عمله هذا كان في الوقت عينه مثيراً للاضطرابات ومدعاة لباهظ النفقات التي آلت الى ازدياد الضرائب والمكوس ؛ فوقف دولاب الاشغال ، وكسدت التجارة ، ولحقت الاضرار الجسيمة بالبلاد .

ثم ان ديوان الاستانة لم يكن مرتاحاً لنمو سلطة الشيخ . ومما جاء ضغثاً على ابالة، الطلب الذي رفعه الشيخ الى الباب العالي راغباً في الاعتراف له بالسيادة على البلاد التي اقطعها ، وتقليده هو ووارثه من بعده الحكم الدائم عليها ، والمناداة به « شيخ عكا وامير الامراء وحاكم الناصرة وطبرية وصفد ، وشيخ بلاد الجليل بامرها » . فالخوف والمال حملا الباب العالي على منح كل ما طلب منه . على ان هذين الصلف والطمع اثارا اكثر فاكثر حسد اولياء الامر له ، وحقدهم عليه وكثيراً ما كانوا يعتبون بل يغضبون عليه ؛ غير انه كان يبادر كل مرة الى استرضائهم . ومع ذلك ظلت نار حقدهم عليه كامنة فيهم ، فلم تهن قط رغبتهم في الانتقام منه . ومما زاد الطين بلة الاعتداء الفظيع الذي وقع في سنة ١٧٥٧ على قفل الحجاج ؛ فستون الفاً منهم نهبت اموالهم وامتعتهم ، وذهبوا ايادي سبا في مجاهل الصحراء ملاقين حتفهم اما قتلاً او جوعاً وعطشاً . والغنائم التي استولى عليها المعتدون كانت عظيمة لا تقع تحت عد او حصر . والانكى ان هذا الاعتداء كان اهانة للدين بل كفراً به . وقد احدث في جميع الممالك العثمانية ألماً ما زالوا يشعرون به .

فالمعتدون كانوا البدو حلفاء الشيخ ظاهر . وقد استقبلهم في عكا واجاز لهم ان يبيعوا فيها ما كان في حوزتهم من الاسلاب . فالباب العالي وبخه على ذلك توبيخاً شديداً ؛ غير انه بادر الى تبرئة نفسه واسترضاء الباب العالي بارساله اليه العلم النبوي المعروف براية العقاب .

ومن هذا القبيل ايضاً حادث قرصان مالطة الذين كانوا يغيرون على الشواطىء السورية . فكان الشيخ يجيز لهم ان يدخلوا بسفنهم مرفأ عكا ، ناشرين راية غير رايتهم ؛ فيبيعون في المدينة ما يغنمونه من الاتراك ، او يتركونه في مستودعاتها الى حين الحاجة . فلما ذاع خبرهم صاح الناس يا للعار ، ويا للجريمة

الشنعاء . وقد غضب الباب العالي على الشيخ غضباً شديداً . واما هو فانه ادّعى جهله حقيقة الامر . ولكي يعطي الدليل على انه لا رغبة له في تأييد تجارة اثيمة كهذه ، جهّز حراقتين ، وبعث بهما في اثر القرصان . والحقيقة انه لم يرسلها لمقاتلتهم ، بل للاتصال بهم ومفاوضتهم بعيداً عن العيون .

وقد فعل الشيخ اكثر من ذلك ؛ فانه ادّعى ان خليج حيفا تعوزه وسائل الدفاع ، والتمس من الباب العالي الاذن بان يبني فيه على نفقة السلطان حصناً مجهزاً بالمدافع . فوافق الباب العالي على ذلك . وبعد وقت وجيز عاد فادّعى ان الحصن لا فائدة منه ؛ فدكّه ونقل الى عكا المدافع التي كانت فيه .

فاعماله هذه كانت تثير ارتياب رجال الاستانة منه وحنقهم عليه . وكانت طباع ابنائه الجامحة ، ولا سيما مهارة ابنه البكر العسكرية ، تقلقهم وتجعلهم يوجسون شراً . غير انهم جرياً على عادةٍ ألفوها ، كانوا يكتمون ما يجيش في صدورهم ، مكتفين بالعمل في الخفاء : فكانوا يوفدون اليه « قبوجيين » اى « مندوبين » ليطلعوا على الحالة عن كثب ، ويعهدون الى رجالهم في سورية في تحريض ابنائه بعضهم على بعض .

واكثر هؤلاء الرجال عنداً ، واصلبهم رأياً ، عثمان باشا والي دمشق ، وهو الذي قام بتمثيل الدور الاكبر في حرب علي بك المصري كما سيأتي شرحه . وكان قد نال رضى السلطان لارشاده الى المكان الذي كان مولاه سليمان باشا يخبأ فيه ثروته الطائلة (وعثمان هذا كان مملوكاً لسليمان) . فمقته للشيخ ظاهر جعل الباب العالي يوليه كامل ثقته . وكان يُظَنُّ الرجلَ الوحيدَ الذي يستطيع الظفر بالشيخ . لاجل ذلك عُيّن هو على دمشق ، وابنه الواحد على صيدا ، والآخر على طرابلس ، وضُمّت فلسطين والقدس الى حكمه . وقد قام بما كان الباب العالي يرغب فيه من مضايقة الشيخ ، لكن الشيخ لم يعبأ به ؛ فبدا حينئذ

للجميع ان الحرب ستنشب بينهما لا محالة .

وكان عثمان باشا على حسب العادة يطوف مرة في السنة في انحاء الولاية لجباية الميري ، مصطحباً كوكبة من الفرسان . وقد عنّ له في احدى جولاته انّ يفاجىء الشيخ الذي كان على مقربة من احدى القلاع يحاصر اثنين من أبنائه ، لا خوف يساوره من عثمان باشا ، بما انه كان بينهما عهد هدنة . فبعد ما امر عثمان بعض فرق جيشه ان تتبعه ، قام من دمشق ، ووجهته نابلس ، عازماً عزماً اكيداً على القضاء على الشيخ . بيد انه في تلك الغضون وصل ساعٍ يحمل الى الشيخ رسالة من الاستانة . ففضّها الشيخ وبعد قراءتها اوقف القتال ، وبعث الى ابنيه يطلب منهما اعداد سماط له ولثلاثة رجال يصحبونه ، قائلاً لديّ امور ذات شأن اريد ان احدثكما عنها . فوافياه في الميعاد المضروب ؛ وبعد ما اكلوا وهم منشرحو الصدور ابرز الرسالة وامر بقراءتها ، فاذا هي من الجاسوس الذي كان له في الاستانة ، يقول فيها : قد خدعك السلطان بعفوه الاخير عنك ، لانه اصدر في الوقت نفسه خطاً شريفاً بضرب عنقك ، وحجز جميع اموالك واملاكك ؛ وكل شيء قد تم الاتفاق عليه ما بين عثمان باشا وابنيه لتطويقك وقتلك مع جميع افراد اسرتك . وسيزحف عثمان باشا في جيش عظيم الى نابلس قصد مفاجأتك فيها . . .

قد يصعب على القارىء ادراك مدى الدهشة التي اعترتهم لدى سماعهم ما تضمنته تلك الرسالة ؛ فجعلوا من ساعتهم يتفاوضون في الامر . لكن كلمتهم تفرقت وآراؤهم تباينت ؛ فآثر بعضهم الزحف في جيش كبير لمقاتلة الباشا ، وابدى البعض الآخر غير هذا الرأي .

على ان علياً ابن الشيخ البكر الذي ترك في سورية ذكر مآثره ، بيّن لهم ان جيشاً كبيراً لا يستطيع السير بالسرعة المرغوبة لمباغتة الباشا ، فبطوه يدع للباشا

متسعاً من الوقت للتحصن ، فيصبرنهم حينئذ بعار اخلافهم بالهدنة . وحنثهم في العهد المقطوع . وقال ان الضرورة تستوجب عملاً فجائياً ، يأخذ هو على عاتقه القيام به ، وطلب خمسمئة فارس اعطوه اياهم في الحال .

فقام من ساعته وجدّ في المسير الليل بطوله . وعند انبثاق الفجر نزل في مكان متروٍ طلباً للراحة . ثم استأنف السير في المسآ . فوصل الى معسكر العدوّ في صباح اليوم التالي .

وكان الاتراك على حسب عادتهم مضطجعين في معسكرهم بلا نظام ولا حسس ؛ فانتضى عليّ وفرسانه سيوفهم ، وانقضّوا عليهم ، واخذوا يعملون القتل فيهم ؛ فاضطرب العدو اشد اضطراب ، وار كن من ساعته الى الفرار ، حتى ان الباشا نفسه لم يستطع اخذ فروه . وما كاد يترك خيمته فاراً حتى دخلها علي واستولى على صندوق ماله ، وعلى شالاته ، وفرائه ، وخنجره ، ونرجيلته ، والخط الشريف القاضي بضرب عنق الشيخ . فبدأت الحرب من تلك الساعة ، واخذت الغزوات والمناوشات والاصطدامات تتوالى ، فكان الاتراك الخاسرين في معظمها .

فالنفقات التي اقتضتها تلك الحرب ، استغرقت كل اموال الخزينة . ولملء فراغها تذرّع الباشا بالوسائل المعتادة . ففرض فدية على المدائن والدساكر والقرى ، وعلى الجماعات والافراد ، وكل الذين عُرف عنهم انهم ذو مال ، كان يؤتى بهم ، ويُطلب منهم اداء ما يملكون ؛ فان ابوا او انكروا ضربوا ضرباً مبرّحاً . فهذا العسف ادّى الى تمرّد سكان رملة وفلسطين ؛ لكن الباشا تمكّن من قمع عصيانهم بطرق فظيعة . واقترف مثل هذه المظالم في يافا . ومن امثال ما ارتكبه من الجور تعدّيه على الشيخ الجليل يوحنا دمياني ممثل دولة البندقية ، آمراً بضربه مئة ضربة على اخمص قدميه ، ولم يبقه في قيد الحياة الا بعد ما اخذ منه اربعة

عشر الف قرش توصل يوحنا المذكور الى جمعها بمنتهى المشقة .

فهذه المظالم التي هي عادية في الشرق ، من غير ان تكون دوماً فظيعة وعامة على هذا المنوال ، اضطرب لها السكان باجمعهم ، فجعلوا يتذمرون ويقولون انهم سيلجأون الى نصير غريب . وكان قد جرأهم على هذا القول قربهم من مصر التي كانت منتقضة على الدولة العثمانية .

تلك كانت الحالة في سورية عندما فكر في غزوها علي بك المصري فاتح مكة والصعيد . ومما كان يقوي عزائمه محالفته للشيخ ظاهر ، واستياء الشعب السوري من الولاة لما كان يقاسيه منهم ، والحرب الدائرة رحاها ما بين الروس والاتراك . لاجل ذلك اذاع في السنة ١٧٧٠ بلاغاً قال فيه : قد ايدني الله سبحانه وتعالى بنصر من عنده ؛ فمن الواجب عليَّ ان ادافع عن الشعوب المظلومة واقتصَّ من عثمان باشا المستبدّ العاتي .

ثم سيّر علي بك جيشاً من المماليك على غزة ، واحتل في طريقه الرملة واللد على اهون سبيل ، فكان من جرآء ذلك ان انشطر سكان يافا شطرين رغب احدهما في الاستسلام للمصريين ، وطلب الآخر من عثمان باشا ان يدافع عن المدينة .

وفي اليوم التالي وردت الاخبار منبئة باقتراب الشيخ ؛ فالمدينة التي ظنت نفسها في أمن ، اوصدت ابوابها في وجه الباشا . وفيما كان الباشا يستعد للهرب تحت جنح الظلام ، توصل البعض من رجاله الى دخول المدينة من جانب البحر ؛ فاعملوا فيها السلب والنهب . ولما جاء الشيخ في اليوم التالي لم يجد فيها احداً منهم ؛ فاستولى عليها وعلى الرملة واللد ، واقام حامية في كل منها .

وبعد ما تمهدت الامور على هذا النمط ، وصل الجيش الكبير بقيادة محمد بك في شهر شباط لسنة ١٧٧١ ، زاحفاً الى عكا بموازاة شاطىء البحر . فانضم

اليه هنالك نحو الف ومئتي متوالٍ بقيادة ناصيف، والف وخمسمئة صفدي بقيادة علي ابن الشيخ ظاهر، وساروا جميعهم الى دمشق في شهر نيسان. وسترى كيف انتصروا على الجنود التي حشدها عثمان باشا وابناؤه صاحب صيدا وطرابلس، وكيف قلب محمد بك ظهر المجن بغتة لحلفائه، وعاد ادراجه الى مصر بعد استيلائه على دمشق، واخذه الاهبة لدخول القلعة. وقد حدث آنئذٍ ان ابرهيم الصباغ كاخية الشيخ ظاهر سأل محمد بك عن الباعث على انسحابه على هذا المنوال؛ فكان جواب الملوك التهديد والوعيد. وعلى اثر ذلك بعث اليه ابرهيم برسالة ملأها توبيخاً، وهي الرسالة التي نجم عنها خصام جديد شديد.

واما عثمان باشا فانه رجع الى دمشق، واستأنف تعدياته ومظالمه؛ ولاعتقاده ان ما جرى اقلق الشيخ، وصرفه عن اتخاذ الحيطة لنفسه، عزم على مفاجأته في مدينة عكا ذاتها، وما كاد يشرع بالزحف حتى اتصل خبره بناصيف وعلي ابن الشيخ؛ فعقدا النية على مباغتته؛ لذلك خرجا برجالها خفية من ناحية عكا. ولما علما بانه معسكر على الساحل الغربي لبحيرة الحولة، استوليا على جسر بنات يعقوب، ثم انقضّا عند الفجر على جنوده، فاوردا الكثيرين منهم حتفهم، والذين بقوا احياء، دبّ الرعب في قلوبهم، وحاولوا النجاة بعبور البحيرة سباحة، بما ان الطرق من جهة البرّ كانت قد سُدّت عليهم؛ غير انهم في سرعتهم، وما كانوا عليه من الاضطراب، تعثّروا بخيولهم واعتدتهم، فتمكن العدو من اللحاق بهم وقتل اكثرهم. وقد هلك بعضهم غرقاً في البحيرة، وبعضهم غوراً في حمأتها. واما عثمان باشا فانه نجا بمساعدة اثنين من الزنوج اتباعه.

وكان ابنه درويش باشا قد حالف الدروز؛ فتوافد عليه الف وخمسمئة رجل من المقاتل بقيادة علي جنبلاط، فانضموا الى حامية صيدا.

واما الامير يوسف فانه اجتاح وادي المتاولة على رأس خمسة وعشرين الف

رجل ناشراً في تلك الانحاء القتل والخراب . ولما علم ناصيف وعلي بما اقترفه سارا اليه ؛ فجرت في ٢١ تشرين الاول سنة ١٧٧١ تلك الملحمة التي توصل في اثنائها خمسمئة متوالي الى الانتصار عليه ؛ فانهزام رجاله القى الرعب في صيدا التي هجم عليها الصفديون ؛ فشعر عندئذ جنبلاط بعجزه عن الدفاع عنها ، فانسحب منها. وقد نهبها رجاله قبل رحيلهم ، وعلى اثر ذلك دخلها المتاولة ، واخذوا في السلب والنهب هم ايضاً ؛ لكن زعماءهم ما عتموا ان تمكنوا من ردعهم والاستيلاء على المدينة باسم الشيخ ظاهر الذي عيّن عليها « دنكزلي » المشهور بشجاعته .

فالباب العالي الذي اعتراه الخوف الشديد على اثر انتصار الروس وفوز رعاياه العصاة ، عرض الصلح على الشيخ بشروط حسنة ؛ وحمله على قبول ما عرضه ، عزل عثمان وولديه ، ناعياً عليهم عجزهم وسوء تدبيرهم .

فالشيخ الذي كان قد ناهز السادسة والثمانين من سنيه ، رحّب بالصلح ؛ لانه كان يروم ان يقضي ايامه الاخيرة في هدوء وسلام . غير ان كاخية ابرهيم اثار عليه برفض الشروط المعروضة ، لانه كان يتوقع ان يأتي علي بك في الشتاء ويفتتح سورية . ويتخلى بعدئذ عن جانب منها للشيخ ظاهر . فكان ابرهيم يعتقد ان ذلك سيعود على مولاه بالخير العميم ، وعليه بالاموال الطائلة . فهذا الامل الخلاب خدع الشيخ ، وحمله على رفض ما عرضه عليه الباب العالي . فاخذ يتأهب لمواصلة القتال بنشاط جديد .

تلك كانت الحالة في سورية عند ما تمرد محمد بك في مصر على مولاه علي بك ؛ فابرهيم الصباغ لم يبالِ في بدء الامر بالحادث ، لكنه ما لبث ان علم ان علي بك فرّ من القاهرة ، والتجأ الى غزة . ففرار علي بك احيا الجرأة في مشايخ الاتراك من سكان يافا ، وحملهم على انتهاز الفرصة لاستعادة ما كان لهم من المنزلة والنفوذ ؛ فاستولوا على الارزاق التي كان الربان المصري رضوان انزلها في

المدينة ، وحرّضوا باقي السكان على التمرد ، وقطع الطريق على مماليك علي بك بمؤازرة شيخ نابلسيّ . وقد تفاقمت الحالة على اثر اشاعة مؤداها ان جيشاً عرمرماً احتشد في حلب وهو متأهب للزحف .

وكان يتحتم على الشيخ ألّا يبرح عكا والاحوال على ما هي ، لكنه اعتمد على نفسه ، ووثق بقدرته على معالجة الامور ، لذلك سار الى نابلس ، وانزل العقاب بالعصاة المتمردين . ولما وصل علي بك الى يافا ، جاء به الى عكا وانزله في قصره . ثم سارا كلاهما لمحاربة الاتراك والدروز الذين كانوا ضاربين الحصار على صيدا .

وكانت ست سفن روسية راسية في عكا للتموّن ، منتهزة فرصة انتقاض الشيخ على الدولة ، فاتفق الشيخ مع ربابنتها على مؤازرته بدل مبلغ من المال قدره ست مئة كيس . وكان عدد رجال جيشه آنئذٍ يناهز ستة آلاف من صفديين ومتاولة ، وجميعهم فرسان . وقد انضوى اليهم مماليك علي بك الثماني مئة ، ونحو الف رجل مغربيّ .

واما الاتراك والدروز فعددهم كان عشرة آلاف فارس ، فهؤلاء ما ان علموا باقتراب العدو حتى فكوا الحصار عن صيدا ، ورحلوا الى مكان واقع شمالي المدينة ، وانتظروا هناك قدوم الشيخ لمنازلته في معركة فاصلة .

فالمعركة المنتظرة جرت في اليوم التالي ، وقد اتبع فيها اسلوب حرب لم يكن مألوفاً من قبل في تلك البلاد ، فالجيش المصري اصطفّ صفاً واحداً من شاطىء البحر حتى سفح الجبل .

واما العقال فانهم اتخذوا لهم موقعاً مابين سياج الصبار والخنادق التي كانوا حفروها ليمنعوا بها خروج السكان من المدينة .

وكان الفرسان متجمعين في السهل من غير ان يتقيدوا بنظام . وقد نصب

الاتراك في السهل عدة مدافع ، قطر بعضها اثنتا عشرة اصبعاً ، وقطر البعض الآخر اربع وعشرون . وكانت المرة الوحيدة التي استعملت فيها المدافع في الاراضي المنبسطة في تلك الانحاء .

ووقف الدروز عند اسفل المرتفعات، وعلى منحدراتها ، لا متاريس امامهم، ولا مدافع معهم ، وسلاحهم البنادق فقط .

واما رجال الشيخ ظاهر فانهم الفوا جبهة مستطيلة ، وحاولوا ان يشغلوا من ذلك السهل بقعة لا تقلّ اتساعاً عن المكان الذي وقف فيه الاتراك ؛ فجناحهم الايمن كان مؤلفاً من رجال ناصيف والمغاربة ؛ وكان عليهم صدّ الدروز . وجُعل الجناح الايسر الذي كان بقيادة علي ابن الشيخ ظاهر ، مقابل العقال من غير ان يستند الى شيء ، لكنه اعتمد على السفن الروسية التي كانت تمخر في اتجاه ذاك الميدان مقتربة من الشاطئ .

وكان في الوسط العثماني مئة مملوك ، ووراءهم علي بك والشيخ ظاهر البطل الصنديد الذي كان يشحذ بحديثه حماس رجاله .

وقد ابتدأت المعركة عند ما أطلقت السفن الروسية بعض القنابل على العقال الذين بادروا في الحال الى الانسحاب من موقعهم . فجماعة الفرسان التي اخذت تتقدم ، بلغت مكاناً يبعد نحو غلوة عن المدافع التركية ؛ فالمماليك الذين كانوا يتقدمون شوقاً لاظهار ما اشتهر عنهم من الشجاعة والاقدام،هجموا كالليوث على العدو ؛ فجرأتهم القت الرعب في قلوب المدفعيين الذين عندما رأوا انفسهم وهم على الاقدام بين صفين من الجياد ، لا متاريس تحميهم ، ولا جنود مشاة يسندونهم ، اطلقوا بسرعة بعض القنابل ، ثم تركوا مواقعهم ولاذوا بالفرار .

فالمماليك الذين لم يصبهم ضرر كبير من تلك القنابل ، اجتازوا بسرعة البرق بالمكان المنصوبة فيه المدافع ، وهجموا هجوماً صادقاً على فرق العدو . فلم

تعطل المقاومة ، بل سادت الفوضى ودبّ الاضطراب في صفوف العدو ، ولم يعد احد منهم يعرف ما يجب عمله ، او يلتفت الى ما يجري حوله ؛ فلاجل ذلك كان الميل فيهم الى الفرار اقوى منه الى القتال . وكان اول من انهزم الوزرآء ، معطين المثل ، وفي الحال اقتدى بهم الآخرون .

فالدروز الذين لم يكن تأييدهم للاتراك عن رغبة كبيره ، او نفس طيبة ، ما ان رأوا فرار هؤلآء حتى ارتدوا على اعقابهم متغلغلين في الجبال .

ففي اقل من ساعة من الزمان خلا السهل من المحاربين . وقد اكتفى الحلفآء بهذا النصر المبين ، فلم يجدّوا في اثر المنهزمين الذين لجأوا الى بيروت ، مجتازين باراضٍ تزداد على التوالي صعوبة ووعورة .

على ان المراكب الروسية مخرت الى بيروت ، وضربتها بالقنابل ؛ ثم نزل بحّاروها الى البرّ واضرموا النار في ثلاثمئة بيت .

فعلي بك والشيخ ظاهر ما ان عادا الى عكا حتى عزما على الاقتصاص من النابلسيين وسكان يافا . ففي غرة شهر تموز لسنة ١٧٧٢ ، عسكرا امام يافا واوعزا الى السكان بان يتفاوضوا معهما في شأن غرامة يدفعونها اليهما . ولمّا ابى هؤلآء الاذعان ، ضربا نطاقاً حول المدينة ، غير ان حصارهما لها لم يكن بمقتضى الاصول المتبعة في اوربة . فمن صنف المدافع لم يكن لدى الفريقين الا عدد ضئيل منها وهي منصوبة بطريقة سيئة ؛ كما انه لم يكن هنالك من يحسن استعمالها . ثم ان الهجوم لم يبدأ به من خنادق ، ولم تستعمل الالغام ، ولو ان وسائل كهذه ليست بضرورية لهدم جدار عاديٍ قليل الثخانة لا حفائر امامه ولا متاريس تصونه . ان المحاصرين فتحوا فيه ثغرة منذ اول ساعة ، لكن فرسان علي بك والشيخ ظاهر ابوا دخول المدينة منها ، لان المدافعين عنها اقاموا اعراقيل في البقعة التي خلف الحائط ، بنثرهم فيها الحجارة الكبيرة ، وغرزهم الاوتاد ،

وفتحهم الحفائر، فكان القتال مقصوراً على تبادل الطلقات التي لم يكن مفعولها كبيراً .

وقد انقضت ثمانية اشهر على هذا المنوال، مع ما كان يشعر به علي بك من مسيس الحاجة الى الفراغ سريعاً من ذاك الحصار الذي كان يشرف هو عليه . ولما ضاق سكان المدينة ذرعاً، واوعنهم التعب والملل، ونفد ما كان لديهم من ميرة وذخيرة، اقدموا على الاستسلام بشروط رضوا بها . وكان ذلك في شهر شباط ١٧٧٣، فعيّن عليهم علي بك نائباً عن الشيخ ظاهر؛ ثم ذهب الى عكا حيث وجد الشيخ منهمكاً في اعداد ما يلزم لعودته الى مصر .

وما ان تمت معدات سفر علي بك، حتى عزم على الرحيل، من غير ان ينتظر قدوم الست مئة رجل الذين وعده الروس بارسالهم لنجدته؛ وعبثاً حاول الشيخ ان يثنيهُ عن عزمه؛ ولما رأى اصراره على السفر، اصحبه بالف وخمسمئة فارس بقيادة ابنه عثمان .

وبعد ايام قلائل وصل المدد المنتظر، لكن عدد رجاله كان دون المتفق عليه؛ فأسف الشيخ لعدم بقاء الحاجة اليهم، وقد عظم أسفه اذ رأى ابنه عثمان وفرسانه يعودون فجأة مدبرين، ويخبرونه بما فجعوا به هم ورجال علي بك.

فرأى الشيخ ان تلك النكبة حرمته حليفاً ونصيراً بذل هو الشيخ ما استطاع لتأييده وامداده بالمال والرجال، واوجدت له عدواً كثير الحقد، صلب المراس، اعني به محمد بك . فلا غرو إن آلمه هذا الامر ألماً شديداً . غير انه لم يقنط، ولم يفقد قط نشاطه .

وقد حدث حينئذٍ ما اعاد بعض السلوى الى قلبه . فالأمير يوسف، الذي ناصبه العداوة حزبٌ قوي من بني قومه، اضطرّ ان يلتمس من الوزير صاحب دمشق المؤازرة على احتفاظه بمدينة بيروت . فاوفد الوزير اليه احمد الجزار الذي

مرّ بنا ذكره . فهذا الرجل ما ان تولى الحكم على تلك المدينة حتى جعل منصبه ذاك وسيلة يتوصل به الى ارفع الرتب . فاول عمل اتاه كان استيلاءه على خمسين الف قرش من مال الامير ، ومجاهرته ان لا مولى له الا السلطان .

فالامير الذي اذهله هذا الغدر ، رفع شكواه الى صاحب دمشق ، ولكن لم يفز بطائل ، لان صاحب دمشق لم يعبأ به ، فمن شدة غيظه بادر الى محالفة الشيخ ظاهر ، وذلك ما كان يرغب فيه معظم الدروز .

فالشيخ سُرَّ بالحليف الجديد ، وجاء من فوره اليه ، وحاصر معه العاصي ، واتفق مع ربابنة السفن الروسية التي لم تكن بعد رحلت من تلك الانحاء على ضرب بيروت بالقنابل بدل مبلغ من المال قدره ستمئة كيس .

فالهجوم على المدينة براً وبحراً جاء بالنتيجة المتوخاة ، لان الجزار مع كل ما ابداه من الحزم والشجاعة ، اضطر ان يتخلى عن المدينة ، ويستسلم الى الشيخ ؛ فسار معه الى عكا وتمكن من الفرار .

على ان انفصال الدروز عن الاتراك لم يخمد نشاط الباب العالي الذي كان موقناً بفوزه في النهاية بجميع الخصوم المتمردين . لاجل ذلك اعاد عثمان باشا الى دمشق ، وخوله مطلق السلطة على سورية باجمعها ؛ فحشد عثمان باشا جيشاً عظيماً وسار فيه من وادي البقاع الى زحلة وقصده التغلغل في الجبل .

فنبأ زحف هذا الجيش العرمرم القى الذعر في البلاد ، والامير يوسف ، وهو الرجل المتردد الوجل ، اخذ يندم على محالفته الشيخ ظاهراً . غير ان الشيخ الذي كان يسهر على سلامة حلفائه ، بادر الى الدفاع عنهم . لاجل ذلك ما ان مرت ستة ايام على مجيء الاتراك بجحافلهم حتى علموا بان علياً ابن الشيخ آتٍ لمحاربتهم فهذا الخبر كان كافياً لالقاء الرعب في قلوبهم ؛ وعبثاً كان يقال لهم انتم اكثر عدداً من رجاله ، فهم خمسمئة فارس وانتم خمسة آلاف ، فلا تهابوهم .

بيد ان شهرة علي ، وما كان معروفاً عنه من بأس وبطش ، جعلا ذلك الجيش الكبير يرتمش خوفاً ، لاجل ذلك ما لبثت اوصاله ان تقطعت ، و رجاله ان تشتتت ، تاركين وراءهم معسكرهم وَجميع ما فيه من مال ومتاع غنيمة باردة لسكان زحلة .

وكان يلوح ان الشيخ سيتنفس الصعداء بعد هذا النصر المبين ، ويبادر بلا عائق الى اعداد العدة لدفاع كانت الحاجة اليه تزداد يوماً فيوماً . غير ان القدر قضى ان لا يذوق هذا الشيخ لذة الراحة حتى آخر نسمة من حياته . فمن زمن مديد كانت القلاقل والاضطرابات تتوالى بلا انقطاع ؛ فابناؤه الذين هم ايضاً كانوا قد طعنوا في السن سئموا انتظارهم الطويل للارث الذي كانوا يؤملون الحصول عليه . وفضلاً عن ميلهم الدائم الى التمرد ، جرت امور قوّت فيهم ميلهم هذا بل جعلتهم على حق في ان يسترسلوا .

فان الكاخية ابرهيم الصباغ الذي ولاه الشيخ ثقته ، كان يعتمد على المنزلة التي له ، ليزيد ثروته ، مستحلاً جميع الوسائل التي تسهل له ادراك غايته . فكان يحتكر القطن ، والغلال المعدّة للتصدير ، والاقمشة الاجنبية ، والنيلة ، والسكر . فجشعه هذا اثار عليه حنق ابناء الشيخ الذين كانوا يعدون ذلك تعدياً على حقوقهم ، فيحقدون عليه لاستعماله على هذا النحو السلطة التي خوّلها ، وكان كلما ارتكب تعدياً جديداً . ازداد كرههم له واستياؤهم منه ، وازدادت ايضاً العوامل الباعثة على القلاقل . والشيخ الذي بدأ يشعر بعجزه من جراء كبر سنه ، لم يعالج الامر بفطنة ، بل كان يصف ابناءه بالمتمردين الجاحدين الجميل ؛ ولم يكن يرى خادماً اكثر امانة ، واوفر ولاء واخلاصاً من ابرهيم . فذلك الفكر الضال افقده احترام ابنائه ، وبرّد استياءهم منه . فبدأت تظهر عواقب خطاه في السنة ١٧٧٤ .

فبعد موت علي بك المصري ، كما سيأتي شرحه ، رأى ابرهيم ان المخاوف اخذت كفتها ترجح على كفة الآمال ، فخفض صلفه ، ولم يعد يتوقع ان تأتيه الحروب بالارباح الجزيلة . واصحابه الروس اخذوا هم انفسهم يتحدثون عن الصلح؛ لاجل ذلك اضطرَّ هو ايضاً ان يعقد الصلح مع الاتراك . ففاوض في الامر القبوجي الذي يقيم في عكا ممثلاً الباب العالي ؛ فتمَّ الاتفاق بينهما على ان ينزع الشيخ وابناؤه سلاحهم ويتقلدوا الحكم على البلاد ؛ وينالوا رتبة الباشوية ، ويعيدوا صيدا الى الدولة ، ويؤدوا الاموال والضرائب ، كما كان يؤديها ابوهم .

غير ان هذه الشروط التي رضي بها ابرهيم من غير ان يستشير ابناء الشيخ ، لم تنل استحسانهم ، لانهم رأوا من العار ان يخضعوا ذاك الخضوع المذلّ . ومما زاد في استيائهم ان لم يعطَ احد منهم لقب ابيهم . لاجل ذلك تمردوا جميعهم ؛ فذهب علي الى فلسطين ، وتحصن بالخليل ، وانسحب احمد وسيِّد الى نابلس ، وعثمان الى قبيلة صخر . وهكذا انقضت تلك السنة في الشقاق والفتن والعصيان .

تلك كانت الحالة عند ما زحف محمد بك المصري الى فلسطين في بدء السنة ١٧٧٥ ، ومعه كل ما استطاع من جنود وسلاح ؛ فمدينة غزة العزلاء لم تحاول مقاومته ، واما يافا التي كانت تفتخر بانها مثلت دوراً ذا شأن في جميع الحوادث السابقة ، فانها كانت اكثر جرأة من غزة . لاجل ذلك تسلحت وكادت تحبط بمقاومتها جهود المغيرين عليها .

وكانت الادلة جميعها تنبيء بان ساعة هلاك الشيخ قد ازفت : فالدروز لم يجرأوا على تحريك ساكن ، والمتاولة كانوا مستائين ، وابرهيم يوجّه النداء تلو النداء الى هذا وذاك ، ولا من مجيب ، لانه ضنَّ بالمال على الجميع ، حتى

انه لم يبالِ بامداد المحاصَرين في يافا بالمواد الغذائية ، مما اكرههم على الاستسلام ؛ فاصبحت طريق عكا مفتوحة امام المغيرين .

ولما علم الشيخ وابرهيم ، بالنكبة التي نزلت بمدينة يافا ، انسحبا الى جبال صفد ، وحلَّ عليٌّ محلّ ابيه ، معتمداً على المعاهدة التي كان عقدها مع محمد بك . ولكن سرعان ما شعر بخطإه ، فهرب هو ايضاً . وهكذا اصبح المماليك سادة عكا . وكان من الصعب التكهن بما ستؤول اليه الحالة عندما حدث فجأة موت محمد بك ؛ فتغير سير الامور وانقلبت الحالة ظهراً لبطن .

وبعد رحيل المصريين عاد الشيخ الى قاعدة ملكه ، لكن العاصفة لم تهدأ ، لان طائفة من السفن الحربية التركية جاءت وحاصرت صيدا بقيادة امير البحر حسن باشا . فاتضح حينئذ للجميع خداع الباب العالي الذي كان يغش الشيخ بعبارات العطف والمودة ، بينما كان يُعد العدة في الخفاء لاهلاكه بالتآمر عليه مع محمد بك . وبما ان الدولة العلية كانت قد تخلصت من الروس منذ سنة ، فكان يسهل عليها الحصول على ما تبتغيه . والشيخ لم يفطن لخدائعها ، مع انه كان يتحتم عليه ان يتلافى على الاقل عواقب مكرها ، لكنه اغفل ذلك .

ودنكزلي نائب الشيخ على صيدا اضطرّ ان يُغادرها على اثر ضرب الاسطول التركي لها . ولما ابحر الاسطول بعدئذ الى عكا ، وتفاوض اولياء الامر هنالك في ما يجب عمله لاتقاء الخطر ، نشب بينهم نزاع كانت عاقبته القضاء المبرم على الشيخ . ففي غضون اجتماع عام اقترح ابرهيم المقاومة ، مدعياً بانه ليس لدى الاتراك سوى ثلاث سفن ، فلا يقوى بحاروها على الهجوم على المدينة براً ، ولا على الرسوّ بها قبالة القلعة من غير ان يتعرضوا للخطر ، كما انه

ليس في وسعهم النزول الى البرّ حيث يصدهم الفرسان والمغاربة ؛ فلا يبقى امامهم والحالة هذه سوى الرحيل .

فاعترض دنكزلي وقال يجب عقد الصلح ، بما ان مواصلة القتال من شأنها ان تعرّض للهلاك اناساً ابرياء ؛ فيمكن ملافاة الخطر بوسيلة هي بذل المال . وانا اعتقد ان الفي كيس تحوّل الربّان حسن باشا ذا الجشع والطمع من عدو الى صديق .

ذاك هو الامر عينه الذي كان ابرهيم على حذر منه واجتنب طرقه ، لذلك اجاب مدعياً بان الخزينة فارغة ، ليس فيها دانق ، وقد ايّد الشيخ قول ابرهيم .

فقال دنكزلي : الشيخ على حق فيما يقول ، وخدمه جميعهم يعرفون ان كرمه لايدع المال يستقر في خزائنه . وانما المال الذي يجود به عليهم أليس ماله ؟

قاطعه ابرهيم قائلاً : واما انا فاني افقر الناس .

فاجابه دنكزلي وهو يتميز غيظاً : بل قل انك اكثر الناس جبناً . ومن من العرب لايعرف انك قضيت اربع عشرة سنة وانت تجمعُ المال ؟ ومن لا يعرف انك احتبست التجارة ، واحتكرت بيع الاراضي ، وضننت على الجنود برواتبهم ، وجرّدت من الحنطة في اثناء حرب محمد بك جميع البلاد الواقعة حول غزة . وتركت مدينة يافا بلا ميرة ولا ذخيرة .

ولم يدعه الشيخ يواصل كلامه بل قاطعه مؤنبه على حسده وخيانته ، ومبرئاً كاخيته مما نسبه اليه .

فاستاء دنكزلي من هذا التوبيخ ، وترك المجلس من ساعته . ثم جمع مواطنيه المغاربة الذين كانوا يؤلفون الفريق الاكبر من حماة المدينة وامرهم

بان لا يطلقوا النار على الاتراك .

غير ان الشيخ الذي وطّن النفس على المقاومة ، امر باعداد ما يلزم للقتال . وفي الغد عندما اقترب الاتراك من المدينة ، وشرعوا بضربها بالقنابل ، ردّ الشيخ عليهم باطلاق النار من المدافع التي كانت على مقربة منه . واما المدافع الاخرى فان الذين وُكل اليهم امرها ، لم يأبهوا لاوامره ، ولم يحركوا ساكناً .

فلما رأى انه يخون ، ركب جواده ، وخرج من الباب الذي يؤدي الى حدائقه من جهة الشمال ، وقصده مغادرة المدينة . وبينما كان يسير بموازاة سور حدائقه ، اطلق مغربي قذيفة عليه اصابته في صلبه ، فوقع على الارض ؛ ففي الحال احاط به المغاربة ، وفصلوا رأسه وذهبوا به الى حسن باشا الذي بحسب عادة قبيحة كانت شائعة آنئذ ، اخذ يتأمل فيه ويكيل له الشتائم . ثم ملّحه لحفظه واخذه الى الاستانة ، وعرضه على السلطان وجمهور الشعب .

تلك كانت آخرة هذا الرجل ، ذي الشمائل الطيبة الذي لم تر سورية حاكماً عظيماً مثله . ففي ساعة القتال لم يكن احد اكثر منه شجاعة ونشاطاً ومهارة ورباطة جأش . واما في ميدان السياسة فانه كان ذا استقامة وصراحة لم تجعله مطامعه باسرها يحيد عنها ابداً ؛ فكان يفضّل مخاطر الحرب ومهالكها على الدسائس والخدائع . وقبل ان يلحق به ابرهيم ، لم يكن يعرف الرئاء والمداهنة اللتين كان ابرهيم يعدهما حذراً وفطنة . وصيت عدله ادّى الى استتباب الامن في بلاده بشكل لم يقوَ تعدد الاديان وتفرق النزعات على العبث به .

وكان متساهلاً متسامحاً على غرار عرب البادية في ما يختص بالاديان فقد ظلّ محافظاً على طباعهم وآرائهم واميالهم .

واما مائدته فانها كانت تشبه مائدة فلاح ميسور الحال ، وملابسه الفاخرة كانت مقصورة على بعض الفرآ . واما الحلى فانه لم يكترث لها قط ولم ينفق المال عن سعة الا على الجياد الكريمة ؛ فقد ادّى ثمانية آلاف قرش ثمناً للبعض منها .

وكان يميل الى النسآء ، لكنه كان في الوقت ذاته يغار على الآداب ؛ وقد توعّد بقتل كل من يرتطم بالدعارة جهاراً او يتعدّى على امرأة .

ثم انه كان كريماً بلا اسراف ، يكره التقتير من غير ان يميل الى التبذير .

وإنا لنعجب ، وتلك هي مزاياه ، من عجزه عن بسط سلطانه ، وتوطيد شوكته اكثر مما فعل . وانما السرّ في ذلك يعود الى جملة عوامل حسبنا ذكر ثلاثة منها .

اولاً — ان حكمه كان يعوزه النظام والاستناد الى اساس ، مما جعل الاصلاح بطيئاً مضطرباً .

ثانياً — ان الامتيازات التي منحها لاولاده قبل الاوان ، كان من جرائها ان ذرّت القلاقل قرنها منذ اول ساعة ، وحالت دون تقدم الفلاحة والزراعة ، وآلت الى البذخ والافراط في النفقات ، وتخاذل القوى ، وجرّ الخراب على البلاد .

ثالثاً — واما العامل الثالث وهو الاكبر ، فانه كان بخل ابرهيم الذي اعتمد على ثقة مولاه وضعفه الناجم عن كبر سنه ، ليشبع جشعه ، وليستولي على ما تصل اليه يده ، حتى نفّر من الشيخ الخدم والخلفآء والابنآء انفسهم . وفي الحقبة الاخيرة كان لوطأة طمعه اسوأ أثر ، حتى لم يعد الشعب يأنف من عودة الاتراك الى البلاد وبسط سيطرتهم عليها .

وكان ابرهيم شديد البخل ايضاً على نفسه ، ومع كل ما تدفق عليه من المال ، كان يعيش على الخبز والجبن والزيتون . ولشدة ميله الى التقتير كان يدخل الحوانيت الوضيعة ، ويقاسم اصحابها اكلهم الزهيد . ولم يكن يلبس الّا الاطمار البالية القذرة .

ومن كان يرى هذا الرجل الاعور الصغير البخيل كان يظنه شحاذاً فقيراً ، وليس وزير دولة وصاحب شأن وجاه .

وقد توصّل الى احراز ثروة تقدّر بالملايين ، وهي التي آلت بعدئذ الى الاتراك اذ ان سكان عكا ما علموا بموت الشيخ حتى ثار ثائرهم على ابرهيم ، فقبضوا عليه ، وذهبوا به الى حسن باشا الذي سُر بوقوع الرجل في قبضته ، لان ثروته كان خبرها شائعاً في جميع الاقطار ، وهي التي اغرت محمد بك ، وحملته على الاغارة على تلك البلاد . ولما طلب الباشا منه ان يعترف له بمقدار المال الذي في حوزته ، ويرشده الى مخبأه ، ادّعى انه لا مال عنده. فلا اللطف ولا العنف قويا على حمله على الاقرار بالحقيقة . غير ان المعلومات التي افضى بها مكّنت الباشا من العثور عند رهبان الاراضي المقدسة ، وفي منزل تاجرين فرنسيين على عدة صناديق كبرى ملأى ذهباً ، وكان احدها ثقيلًا جدًّا ، لم يقوَ سبعة رجال اشداء على زحزحته من مكانه . وبين الذهب المرصوص فيه عُثر على حُلى وجواهر ولآلئ. وماس وحجارة كريمة وخنجر علي بك الذي تساوي قيمة قبضته المرصّعة ثمانين الف قرش .

وقد بُعث بكل ذلك الى الاستانة مع ابرهيم نفسه الذي اوثق بالسلاسل . والاتراك الذين لم يكتفوا بما استولوا عليه ، املوا ان يعثروا على اموال اخرى . فعذّبوه بمنتهى القساوة ليحملوه على البوح بما بقي مخبوءاً . غير انه احتفظ برباطة جأش تثير الاعجاب .

فبعد ما استتبّت الامور لحسن باشا ، عمل الجزار على صيدا وعكا ، وعهد اليه في القضآء على العصاة الباقين . فنفّذ الجزار الامر ، مستعملاً تارة القتال ، وتارة الحيلة والنفاق ؛ فتوصّل الى حمل سيد وعثمان واحمد على الاستسلام ؛ ولم يقاومهُ الا عليّ ؛ وهو الذي كان الاتراك يرومون القبض عليه قبل غيره من ابنآء الشيخ .

وفي السنة التالية (١٧٧٦) بادر حسن باشا والجزار الى محاصرة عليّ الذي كان متحصناً في قلعة منيعة تبعد مسير يوم عن عكا . ولكنه فرّ منها ، ولاجل الفوز به تذرّعا بوسيلة سافلة دنيئة تدلّ على انحطاط اخلاقهما ، وهي انهما جعلا بعض المغاربة يقتالونه غدراً . فهؤلآء ادعوا امام بعض رجاله انهم طردوا من دمشق قاصّين عليهم حكاية ملفقة ، فجآءوا واستجاروا به . فرحب علي بهم ، وهو الرجل المضياف ، ولكن هؤلآء الانذال انقضّوا عليه ليلاً وذبحوه ، ثم جآءوا الجزار يطالبونه بمكافأتهم على عملهم .

ولما رأى حسن باشا انه تخلص من علي ، امر بقتل سيد واحمد واولادهما ، ولم يبقوا الّا على عثمان وحده ، لبراعته في نظم القريض ، فساقوه اسيراً الى الاستانة .

والمغربي دنكزلي الذي ارسلوه من عكا حاكماً على غزة ، هلك في الطريق ، ويُظن انه مات مسموماً .

والامير يوسف راعه ما جرى ، فبادر الى مصالحة الجزار . ومنذئذٍ دخلت بلاد الجليل في طاعة الاتراك ، ولم يبقَ من حكم الشيخ ظاهر العمر الّا ذكرى لا طائل فيها .

علي بك المصري

حليف الشيخ ظاهر العمر

(من كتاب فولني عن مصر)

لم يُعرف بالضبط تاريخ مولد علي بك . فمثله من هذا القبيل مثل معظم المماليك الذين اذا ما باعهم ذووهم ، او خطفهم النخاس ، وهم في سن الحداثة ، لا يدرون شيئاً عن اصلهم وفصلهم؛ حتى لو كانوا يعرفون من اي بلد جيء بهم ، او من هم اهلهم وذووهم، فانهم يؤثرون كتمان ذلك . فلا يبوحون به الى احد .

فالرأي الاكثر شيوعاً ان علي بك أباظيّ وُلد في القوقاس ، التي رقيقها مرغوب فيه ، ومُفضّل على غيره . فالنخاسون جاءوا به الى القاهرة في احدى قوافلهم ، فاشتراه الاخوان اليهوديان المكاسان يوسف واسحاق ، واهدياه الى الكاخية ابرهيم . ويُظن ان عمره كان آنئذ اثنتي عشرة او اربع عشرة سنة .

فقام عليّ في دار مولاه الجديد بالعمل المفروض على كل مملوك ، اي انه كان هنالك كما تكون الغلمان في قصور الامراء . وقد تعلّم ما يتعلمه عادة امثاله اي الفروسية وتسديد الرماية ، ولعب الجريد والسيف والترس ، وشيئاً من القراءة والكتابة .

وقد اظهر آنئذ من الترق ما اكسبه اللقب « الجن علي » . غير ان عوامل الطمع توصّلت بعدئذ الى كبح جماحه وتهدئة طيشه .

ولما بلغ السنة الثامنة عشرة او العشرين من عمره اذن له مولاه ان يرخي لحيته ، ويعني بذلك انه اعتقه ؛ والوجه الامرد لا يليق عند الاتراك الا بالرقيق

والنسآء . لاجل ذلك كان منظر الاوربيين الذين يحلقون شواربهم وذقونهم ، يترك في الشرقيين لاول وهلة تأثيراً غير مستحب . ولما أعتقه ابرهيم اعطاه امرأة ، وعيّن له راتباً ، واسند اليه منصب كاشف ، اي حاكم مقاطعة ؛ فجعله بذلك في مصاف البكوات الاربعة والعشرين .

فالنفوذ والمال والرتب التي حازها علي بك شحذت فيه عوامل الطمع ؛ وموت مولاه الذي حدث في سنة ١٧٥٧ فسح له المجال ، وحمله على الاشتراك في المؤامرات التي كانت تدبّر لتولية الحكام او عزلهم . وعليه تقع تبعة اغتيال الكاخية رضوان .

وكان كاخية في السنة ١٧٦٢ عبد الرحمان الذي ازدادت سطوته وعلا مقامه بتآلف بعض احزاب المماليك . وكان علي بك حينئذ « شيخ البلد » فانتهز فرصة غياب عبد الرحمان الذي سار الى مكة بقافلة الحجاج ، فنفاه . غير انه ما لبث ان نفي هو نفسه الى غزة . وبما ان غزة كان عاملاً عليها حاكم تركي ، فانها لم ترُقه . فتظاهر بالذهاب اليها . ثم حوّل طريقه الى صعيد مصر حيث بادر انصاره الى الانضوآء اليه .

فاقامته في جرجا سنتين جعلته يكتسب خبرة ممهدة له السبيل الى منصة الحكم التي كان يطمح اليه . ولما استدعاه اصدقاؤه الذين في القاهرة لبّى دعاءهم آتياً العاصمة على حين غرّة . واول عمل اقدم عليه قتله اربعة من المماليك خصومه ، ونفيه اربعة آخرين ، فاصبح من ثم زعيم الحزب الاكثر مدداً .

وما ان استولى على زمام الحكم ، حتى اخذ يبذل الجهد لانمآء سلطته . لذلك لم يعد يكتفي بلقب حاكم او قائم مقام . وكان يأبى الخضوع لدولة الاتراك ويتذرع بجميع الذرائع لجعل نفسه سلطاناً على مصر . فطرد منها الباشا الذي يمثل الباب العالي ، ورفض دفع الضرائب المعتادة ، واقدم على ضرب نقود

باسمه في سنة ١٧٦٨ .

وقد استاء الباب العالي من هذا الاعتداء على حقوقه ، والحط من قدره . غير ان معاقبة المتمرّد كانت توجب محاربته ، والحرب آنئذ لم تكن امراً مستطاعاً ؛ فاولياء الامر في الاستانة لم يكن يقلقهم ويشغل بالهم سوى شؤون بولونية ، ومطامع الروس ، لاجل ذلك كانوا يعمدون الى الوسيلة المألوفة في مثل هذه الاحوال ، الا وهي وسيلة المندوبين الملقبين بالقبوجيين . بيد ان السمّ والخنجر كانا يسبقان دوماً مرسة الخنق ، التي كان هؤلاء المبعوثون يأتون بها المتمرّد .

وبما ان الامور جرت كما اشتهاه علي بك فانه نشط في عمله . وكان جانب من بلاد الصعيد في حوزة بعض مشايخ العرب العصاة ، واحدهم المدعو همام قد توصل الى ارفع درجة من السلطة والنفوذ ؛ فعزم علي بك على القضاء عليه ، فاتهمه بانه يخفي امانة كان اودعه اياها الكاخية ابرهيم ، ويؤاوي العصاة اللائذين به . فسيّر عليه سنة ١٧٦٩ جيشاً من المماليك بقيادة خدنه محمد بك الذي استطاع ان يبيد في يوم واحد « هماماً » وانصاره .

وفي ختام تلك السنة اعدّ حملة اثارت اهتمام العالم ؛ فجهّز سفناً في فرضة السويس ونقل عليها جيشاً من المماليك الى جدّة بقيادة حسن بك . وعهد في الوقت ذاته الى محمد بك في الزحف الى مكة ، فتمكن محمد بك من الاستيلاء عليها بلا قتال ، فاعمل فيها السلب النهب .

وكان مرام علي بك جعل جدة بندراً ومستودعاً للبضائع الهندية . فهذا المشروع الذي اقترحه عليه تاجر شاب [1] نال ثقته ، كانت الغاية منه استبدال

---

(١) هو التاجر البندقي « روزتي » (Rosetti) الشهير اخو « بلتراد » الذي عزم علي بك على توليته رئاسة كمرك جدة .

الطريق القديمة التي تمرّ بالبحر المتوسط فالبحر الاحمر ، بطريق « رأس الرجا الصالح » .

اننا نطوي كشحاً عن الاخفاق الذي مُني به هذا المشروع ؛ فقد دلّ سير الامور على ان الوقت لم يكن قد حان للقيام بتنفيذه .

غير ان علي بك بعد انتصاره على احد مشايخ صعيد مصر ، وعلى شريف مكة ، ظنّ انه يستطيع ان يسيطر على العالم باسره ؛ فان المتزلفين المنافقين جعلوه يعتقد انه لا يقلّ عظمة ومقدرة وشوكة عن سلطان تركية نفسه . فلو فكّر في الامر ملياً ، لرأى ان مصر لا تساوي ولاية واحدة من ولايات تركية العديدة . والسبعة او الثمانية آلاف فارس الذين تحت يده لا يؤلفون سوى جيش صغير ضئيل العدد نظراً الى المئة الف انكشاري الذين لدى السلطان . لكن المماليك لا يعرفون تقويم البلدان ، وعلي بك الذي رأى مصر القريبة ، خالها اكبر من تركية البعيدة التي لم يرها ؛ لذلك عزم على الشروع في فتح بلاد جديدة ؛ وسورية التي كانت جارته لفتت نظره قبل غيرها ؛ وكانت تبدو له سهلة الغزو قريبة المنال .

فالحرب الروسية التي نشبت في تلك الحقبة ، شغلت الجيوش التركية باجمعها ، والشيخ ظاهر الذي تمرد على السلطان ، صار لعلي بك حليفاً مخلصاً ومساعداً قوياً . ثم ان الوزير صاحب دمشق كان يرهق السكان جوراً وعسفاً ، فيدفعهم الى شق عصا الطاعة . فهذه الامور مجتمعة جعلت علي بك يرغب في الاغارة على دمشق ، والظهور امام سكانها بمظهر منقذ الشعوب المظلومة وحاميها . فاذاع في السنة ١٧٧٠ بلاغاً ذكر فيه ما كان يضمره لعثمان باشا صاحب دمشق من العدوان ، وارسل خمسمئة مملوك لاحتلال غزة ، والسيطرة على الطريق المؤدية الى فلسطين .

فلما علم عثمان باشا باقتراب رجال علي بك ، اسرع الى ملاقاتهم بجيش كبير . فالمماليك الذين راعهم عدد عساكر الاتراك ، والسرعة التي وافوهم بها ، تحفزوا للفرار ، على ان الشيخ ظاهراً الرجل المقدام الذي لم ترَ سورية رجلاً اسرع وانشط منه ، جاء من عكا وانقذهم من مأزقهم .

فعثمان باشا الذي كان معسكراً قرب يافا ، لاذ بالفرار من غير قتال ، لدى سماعه بدنوّ الشيخ ؛ فاحتلَّ الشيخ يافا والرملة وجميع فلسطين ، وهكذا اصبحت الطريق مفتوحة امام جيش المصريين الكبير الذي كانوا ينتظرون قدومه .

وقد وصل ذلك الجيش في أواخر شهر شباط لسنة ١٧٧١ . فاذاعت الجرائد الاوربية ان عدد رجاله ستون الفاً . وفي اوربة كانوا يعتقدون انه يماثل جيوش روسية والمانية . غير ان طريقة تأليف الجيوش الاوربية غير متبعة في الشرق ؛ فستون الف رجل هنالك لا يمثلون ستين الفاً من الجنود الاوربيين . فذاك الجيش يمكن تقدير عدد رجاله باربعين الفاً ، منهم خمسة آلاف مملوك جميعهم فرسان ، والف وخمسمئة مغربي . ثم ان لكل مملوك خادمين راجلين سلاحها العصيّ ؛ فعدد هولاء الخدم اذاً عشرة آلاف . أضف اليهم الفي فارس « سرّاج » كما يدعونه هنالك من تبعة البكوات والكشفة . واما الباقون فهم من الباعة المرتزقة . ذلك هو الجيش كما وصفه لفولني شاهد عيان .

والقائد العام هو محمد بك الذي يلقبونه بابي الذهب ، نظراً الى زهو أجهزة جواده ، وجمال فرش خيمته . وكان خدناً لعلي بك .

واما النظام فانه كان مفقوداً بتامه من ذلك الجيش . فجيوش المماليك والاتراك ليست سوى جماعات من الخيالة الذين لا يتقيدون بنظام ؛ فلابسهم

مختلفة الازياء ، وجيادهم متباينة القدّ ، متنوعة اللون ، لا قاعدة في انتقائها ، ولا نظام في تسييرها .

فزحف هذا الجيش الكبير الى عكا ، تاركاً وراءه آثار اضطراب نظامه ، وذكرى تعدّياته على الارواح والاموال والاملاك . وكان احتشد في عكا من المتاولة الف وخمسمئة فارس ونحو الف مغربي . فبعد ما تفاوض الزعماء في الخطة الواجب اتباعها ، زحف الجميع الى دمشق ، وكان ذلك في شهر نيسان .

وعثمان باشا الذي توفَّر له الوقت للقيام باستعداداته ، قد تمكّن هو ايضاً من حشد جيش كبير ، وقد انضمَّ اليه وزراء صيدا وطرابلس وحلب وجنودهم ، فهولاء جميعهم كانوا واقفين بالمرصاد للعدوّ تحت اسوار دمشق .

ولا يخطرنَّ ببال احد ان تلك الجيوش تسير باسلوب موفق مرتّب كالذي جعل الحرب في اوربة فنًّا اساسه الحساب ، وقاعدته المنطق والتفكير . كلَّا ، فان الامر ليس كذلك عند الشرقيين ، فجيوشهم هوش بوش ، دأبها السلب والنهب في خلال زحفها . واما معاركها فانها ليست سوى غارات وغزوات . والقوي فيها هو الذي يذهب لملاقاة خصمه ، والضعيف هو الذي في غالب الاحيان ينهزم بغير قتال . وان ثبت مكانه التقى الخصمان ، واطلقت النيران ، واصطدمت السيوف والمزاريق والرماح . وكثيراً ما يعتري الخوف احدهما ، فيركن الى الفرار ويلحق به خصمه مدعياً الانتصار . وكثيراً ما تنتهي الحرب ايضاً بانتهاء المعركة الاولى .

فهذا الوصف صورة مصغَّرة لما جرى في سورية في سنة ١٧٧١ ؛ فجيشا علي بك والشيخ ظاهر العمر زحفا الى دمشق حيث كان الوزراء ينتظرونهما . فلما تدانى الخصمان في اليوم السادس لشهر حزيران ، دارت بينهما رحى المعركة

الفاصلة ، اذ المماليك والصفديون هجموا معاً هجمة صادقة على الاتراك ، الذين ما لبثوا ان لاذوا بالفرار ، منهزمين شر انهزام . وكان عثمان باشا اول المدبرين .

فالحليفان بعد فوزهما ذاك استوليا بسهولة على دمشق التي لم يكن فيها حامية تدافع عنها . واما القلعة فانها قاومتهم ، ولم يكن على اسوارها لا مدفع ولا مدفعيون ، بل كان على مقربة منها خندق غمرته المياه . وقد وقف على الاسوار بعض حملة البنادق الذين تمكنوا من صد فرسان العدو . ولكن بما انهم كانوا يعتقدون انهم هم المغلوبون فعزموا على اخلاء القلعة والاستسلام .

غير انه حدث آنئذٍ ما لم يكن في الحسبان . لان محمد بك اوعز بغتة الى رجاله في الرحيل اذ كانوا يتأهبون لدخول القلعة . فاثار ذلك ذهول الشيخ وناصيف اللذين حاولا سؤاله عن الباعث على نكوصه على عقبيه على هذا المنوال . غير انه لم يجبهما على سؤالهما ، بل هددهما شامخاً بانفه ، ورحل هو ورجاله بقضهم وقضيضهم ، كانهم منهزمون من وجه عدوّ جادّ في اثرهم ؛ فكان يُرى على الطريق المؤدية الى مصر ، فرسان ، ومشاة ، وذخيرة مبعثرة ، واعتدة وامتعة مطروحة . وقد عزوا هذا الامر المدهش الى اشاعة مؤداها ان علي بك مات فجأة في القاهرة ؛ والحقيقة ان المماليك عادوا ادراجهم على اثر مفاوضة سريّة جرت ليلاً في خيمة محمد بك ابي الذهب .

وتحرير الخبر ان عثمان باشا عمد الى رسائل الاغراء اذ رأى المقاومة لم تجدِ نفعاً . لذلك عهد الى احد امنائه طلق اللسان في مقابلة القائد المصري ، وحضه على الانفصال من الصفديين والابتعاد عن دمشق . فقد القى الرجل في ذهن محمد بك بكثير من الحذاقة ان الدور الذي يقوم به في الحملة على

دمشق ليس مشرفاً له وانه يخطئ ان ظنّ ان السلطان يترك علي بك يفعل ما يشآء ، من غير ان يُنزل به العقاب الذي يستحقه . ثم قال له ان التعدي على مدينة مقدسة كدمشق جريمة لا تغتفر ، وان من العجب ان يُفضل رضى علي بك على رضى السلطان ، وتخضع لمولى يعرضك دوماً للاخطار مضحّياً بك في سبيل مطامعه ومطامع كاخيته رزق القبطي .

فهذا الحديث كان له مفعول بعيد المدى في محمد بك ورفقائه ، فمن ساعتهم تشاوروا واقسموا على السيف والمصحف ان يعودوا في الحال الى القاهرة . فبرحوا دمشق ، وساروا بمنتهى السرعة الى مصر ، حتى ان نبأ قدومهم لم يصل الى علي الا قبل دخولهم القاهرة بست ساعات فقط .

فهذه المفاجأة القت علياً في اشد حيرة ، وودّ لو كان يعاقب القائد . غير ان الاقتصاص منه لم يكن بالامر الهيّن ، نظراً الى تضامن المماليك الاخرين واعتزامهم على الدفاع عنه ، لاجل ذلك اضطرّ علي بك ان يكتم ما كان يجيش في صدره من الحقد والغضب ، واخذ يترصّد الفرص .

بيد ان حرمانه فوائد حرب كثيرة النفقات لم يفتّ في ساعده ؛ فظلّ يرسل المدد تلو المدد الى حليفه الشيخ ظاهر ، واعدّ جيشاً جديداً لاستئناف الحرب . الا ان الحظ الذي ايده حتى تلك الساعة ، بدأ يقلب له ظهر المجنّ . فكانت اول خسارة مني بها استيلاء قرصان الروس بازآء دمياط ، على عدة مراكب شحنها ارزاً للشيخ ظاهر .

وعقب ذلك امر آخر كان شديد الضرر به ، وهو فرار محمد بك . وكان حادث دمشق لا يبرح عن باله ؛ لكنه بعامل المحبة التي كان يكنها لمحمد بك تردّد في معاقبته ، الى ان قسّت قلبه عبارة فاه بها عن غير قصد التاجر البندقي الذي مرّ بنا ذكره . فقال له علي بك ذات يوم : هل ملوك الفرنج

لهم ابنا اغنيآء كابني محمد . اجابه التاجر : كلّا فانهم يحذرون من ذلك ، لان الابنآء الكبار يتمنون ان يخلفوا اباءهم قبل الاوان [١] .

فهذا الجواب جاز بقلب علي بك كالسهم ، ومنذ تلك الساعة اخذ ينظر الى محمد بك نظرته الى خصم شديد الخطر ؛ فعزم على اهلاكه . ولكي يتسنى له ذلك اوعز الى جميع حراس ابواب المدينة ألّا يدعوا اي مملوك كان يخرج من المدينة بعد المسآء . ثم امر محمد بك ان ينطلق ليلًا الى صعيد مصر وكان يتوقع ان يلقي الحراس القبض عليه ، فيستطيع حينئذٍ ان يفعل به ما يشآء .

بيد ان الامور جرت بخلاف ما كان يرومه ؛ فكان من حسن حظ محمد بك ان تركه الحراس يرحل مع من كان معه من اتباعه ، لظنهم انه لا يقدم على مغادرة العاصمة ألا عملًا باوامر خاصة . ومنذئذ اخذت الحالة تتفاقم يوماً عن يوم .

ولما علم علي بك بما جرى بعث اناساً في اثره ، لكن محمد بك اخذ الحيطة لنفسه ؛ فلم يجرؤ هؤلآء على الدنو منه ؛ فانطلق الى الصعيد وهو يتميز غيظاً ونار الانتقام تستعر في احشائه .

وفي الصعيد جرى حادث كاد يورد محمد بك حتفه ، وهو ان ايوب بك نائب علي بك تظاهر كانه مستآء من علي بك ، واقسم لمحمد بك ان يؤيده في كل ما يريد عمله ؛ ولكن ظهرت بعدئذ رسائل من ايوب يعد فيها علياً بضرب عنق محمد في القريب العاجل ؛ فقبض محمد بك على ايوب بك وقطع يديه ولسانه وارسله الى القاهرة .

وكان المماليك يحسدون علي بك على ما اصاب من حسن حظ وثروة .

(١) ان التاجر البندقي نفسه هو الذي نقل الى فولني هذا الحديث .

فهجره اكثرهم ، وانضووا الى خصمه ، وكذا فعل ايضاً العرب اتباع « همام » وبغيتهم اخذ ثأرهم منه والحصول على ما يتسنى لهم من الغنائم . ففي مدة اربعين يوماً صار لمحمد بك من البأس والقوة ما جعله يغادر الصعيد ويأتي الى القاهرة . فلما اقترب منها ضرب خيامه على مسافة اربعة فراسخ منها .

فاضطرب علي بك اضطراباً شديداً وغدا حيران لا يدري ما يجب ان يفعل . ثم عمد الى خطة لم تكن المثلى ، وهي انه سيّر فرقة من عسكره على محمد بك بقيادة اسماعيل بك الذي كان يتحتم عليه الأ يأتمنه ، وخيّم هو وانصاره عند ابواب المدينة .

فاسماعيل الذي كان له ضلع في حادثة دمشق ، ما كاد يدنو من العدوّ حتى انضم اليه . واما عساكره فقد دبّ الاضطراب في صفوفهم ، فعادوا الى القاهرة كانهم منهزمون . وفيما كانوا يحاولون الالتحاق بباقي الجيش ، جدّ العرب والمماليك في اثرهم واكرهوهم على الفرار .

ولما رأى علي بك ذلك ، فقد رباطة جأشه ، ولم يعد يفكر الأ في انقاذ حياته وصيانة ثروته ؛ فرجع على جناح السرعة الى المدينة . واخذ من قصره ما كان يريد اخذه ، ثم فرّ الى غزّة مصطحباً معه ثماني مئة مملوك عزموا على الوقوف الى جانبه في الضرّاء كما في السرّاء . وكان مرامه التوجه الى الشيخ ظاهر العمر في عكا . غير ان سكان نابلس ويافا قطعوا عليه الطريق ، فاضطر الشيخ ان يأتي ويزيل بنفسه العوائق التي اعترضت حليفه ؛ فاستقبله الشيخ العربي بمظاهر الاخلاص الذي طبع عليه بنو قومه ؛ ثم جاء به الى عكا . وكانت مدينة صيدا محاصرة آنئذٍ ، وجيش عثمان باشا ورجال الامير يوسف يضيقون عليها الخناق . ولما استنجدت الشيخ ، بادر الى اغاثتها ، وقد رافقه علي بك ومماليكه ، وكان عدد الجيشين نحو سبعة آلاف فارس .

وما ان علم الاتراك باقترابهما حتى فكوا الحصار ، وذهبوا الى مكان قريب من النهر ، يبعد مسير فرسخ عن المدينة . وهناك دارت في شهر تموز لسنة ١٧٧٢ رحى معركة اكثر اهمية ، واتقن اسلوباً من سائر معارك تلك الحرب ؛ فالجيش التركي الذي كان اكثر عدداً من الجيشين الحلفين ، انكسر شرّ كسرة ، والوزراء الذين كانوا يقودونه ، لاذوا بالفرار . فبقيت صيدا خاضعة للشيخ ظاهر ، وبقي دنكزلي المغربي عاملاً عليها .

ومن ثم بادر الشيخ وعلي بك الى الاقتصاص من سكان يافا الذين تمردوا ونهبوا الملابس والميرة التي انزلتها هناك سفن علي بك قبل فراره من القاهرة . فالمدينة التي كان مسيطراً عليها شيخ نابلسي ، اوصدت ابوابها في وجههما . فدعت الضرورة الى ضرب الحصار عليها . وقد دام الحصار ثمانية اشهر ، مع ان سورها لم يكن سوى جدار عادي . فاضطرت المدينة الى الاستسلام ، وكان ذلك في شهر شباط لسنة ١٧٧٣ .

واخذ علي بك من ثم يفكر في الرجوع الى القاهرة ، ويتأهب للسفر واستعادة سلطته على مصر ؛ فامدّه الشيخ بما كان في حاجة اليه . والروس الذين حالفهم على اثر مفاوضته معهم في شأن قرصانهم ، وعدوه بان يؤيدوه ؛ غير ان ذلك لم يكن سهلاً وسريعاً . واما هو فانه كان على احرّ من الجمر ، يذوب شوقاً الى الرجوع الى مصر .

ومما جاء ضغثاً على ابالة ، تحريض كاخيته رزق القبطي الذي جعله يعتقد ان ساعة عودته قد ازفت ؛ فخيّل اليه ان الدلائل تنبي بحسن المآل ، وتبشر بقرب هلاك محمد بك ، لانه كان كسائر الاتراك يؤمن بالمنجمين ، ويركن الى الدجّالين ، ويثق بكاخيته ويصدّق تكهناته .

وفي اوائل شهر نيسان جاءته رسائل من الموالين الذين بقوا في القاهرة ،

قالوا له فيها : لقد سئمنا غطرسة عبدك العاقّ ؛ فنحن ننتظر بفارغ الصبر رجوعك.

فقبل وصول المدد الروسي الموعود به، ومن غير ان يذعن لنصائح الشيخ الذي كان يحثه على التأني والصبر ، غادر عكا ، مصطحباً معه الفاً وخمسمئة صفدي بقيادة عثمان ابن الشيخ . ولم يخطر قط بباله ان رسائل القاهرة اخذها محمد بك من اربابها قسراً لكي يخدعه بها ، ويوقعه في الفخ الذي نصبه له .

فتوغل علي بك في الصحرآء . وعندما اقترب من صالحية مصر، لقي جيشاً من خيرة المماليك ، عدد رجاله الف يقودهم مراد بك الشاب الذي ولع بامرأة علي بك ؛ وكان محمد بك قد وعده باعطائه اياها إنْ جاءه برأس رجلها .

وما كاد مراد بك يرى عن بعد الغبار المنذر باقتراب الخصم ، حتى حمل عليه ، والقى الاضطراب في صفوفه . وقد تسنىً له في قلب المعمعة ان يقبض على علي بك ، بعد ما شجَّ راسه بسيفه فساقه اسيراً الى محمد بك الذي كان على مسافة فرسخين .

فاستقبل محمد بك سيده السابق بمظاهر الاحترام التي يتقن اصطناعها المنافقون ، وبامارات الاسف والتوجع التي يسهل على الخائن ابداؤها ، وانزله بخيمة انيقة واصدر الاوامر بالاعتنآء به الاعتنآء الزائد ، قائلاً له : انا عبدك الذليل الذي يقبل موطئ قدميك .

وفي اليوم الثالث خُتم المشهد بموت علي بك موتاً نسبه بعضهم الى تأثير الجرح الذي اصابه ، وعزاه البعض الآخر الى مفعول السم الذي دُسَّ له . وهكذا ختمت حياة رجل لفت هنيهة انظار اوربة اليه ، واوجد في كثيرين أملَ إحداثه انقلاباً عظيماً في الشرق .

ولا ريب انه كان رجلاً فذاً ، وانما من الخطإ عدّه من الرجال العظام . والذين عرفوه حق المعرفة ، يشهدون انه كان متحلياً بصفات سامية حال دون استفادته منها افتقاره الى العلم والثقافة .

ولنضربنّ صفحاً عن يقينه بعلم الغيب الذي حمله على الاقدام على اعمال خطيرة كثيرة المخاطر قبل التفكير ملياً بعواقبها . ولنصرفنّ النظر عن خيانته، وحنثه المتواتر في يمينه ، واغتياله حتى المحسنين اليه ، بغية بلوغه هدفه ، ونيله مرامه ، فان أمةً تشملها الفوضى يتضاءل حرصها على اخلاق افرادها . وان انعمنا الفكر في ما اتاه من الاعمال ، اتضح لنا حيوده عن الطريق المثلى التي تؤدي الى ازدياد السؤدد وعلوّ الشأن ؛ فانه فعل ما في وسعه لاهلاك نفسه .

واما الامور التي استحق الملامة عليها فهي :

اولاً — ميله الى الغزو ميلاً جامحاً ، مما افضى الى تبدّد امواله ، وتلاشي قواه ، وخراب بلاده .

ثانياً — جنوحه الى الراحة قبل الاوان ، واعتماده على عماله في ادارة دفة الحكم ؛ فتضاءلت من جرآء ذلك هيبته في عيون المماليك ، ونشط فيهم الميل الى التمرد عليه .

ثالثاً — وهبه الاموال الطائلة لعزيزه محمد بك ؛ فزاد بذلك نفوذ خدنه ، وحمله على الاعتزاز بنفسه . وكان يجب عليه ان يحذر الاصغاء الى الممالقين لئلا يفتتن باقوالهم الخداعة ، وهم الذين في كل بلد يلتفون حول ارباب الثروات ، طالبين سعة العيش عن طريق الغش والتملق .

ومع ذلك لا يسعنا الاّ الاعجاب بما كان يميزه من البغاة الذين تولوا السيطرة على مصر . واذا كانت عيوب ثقافة ناقصة حالت دون ادراكه

ما هو الفخر الحقيقي ، فقد تاق دوماً الى احرازه . وشوق كهذا لا يشعر به ذوو النفوس الوضيعة ؛ ولم يكن يعوزه ألا ان يقرب اليه اصحاب المبادىء الطيبة والتجار الاوربيون الذين شهدوا ارتقاءه فسقوطه ، يدهشون لعدم تأسف الشعب عليه ، فينعون على الشعب تلون الطباع ، وجحد الجميل ؛ وقد فاتهم ان الشعوب تصدر حكمها على سادتها ، وتحبهم او تكرههم ، وتمدحهم او تذمهم ، بحسب ما يكونون قد عسّروا لها او يسّروا وسائل المعيشة . ولعمري ان الحكم الذي تصدره عليهم على هذا المنوال لصائب عادل . ومن العبث ان يقال لها : قضت تجارة البلاد وصناعتها واعلاء شأنها القيام بهذا العمل او ذاك . فان حاجَ المعيشة يجب ان تُقدَّم على كل شيء آخر . فاذا افتقر جمهور الشعب الى الخبز ، فمن حقه على الاقل ان يضنَّ على سادته بالحمد والثناء . وهل يستصوب الشعب المصري غزو الصعيد ، وفتح مكة ، والاستيلاء على سورية ، ان لم يعد ذلك عليه بالخير وتحسين حاله ؟ ومما لا ريب فيه ان هذه الحملات والغزوات كانت وبالاً على مصر ، لان الحروب آلت الى ازدياد الضرائب ، فاثقلت كاهل الشعب . فالحملة على مكة وحدها بلغت نفقاتها عشرة ملايين واربعماية الف قرش . وقد اوجد خروج الحنطة من البلاد لتغذية الجيش المحارب وجشع بعض التجار المحتكرين من ذوي الحظوة لدى اولياء الامر ، مجاعة هائلة اضنت البلاد في السنتين ١٧٧١ — ١٧٧٢ .

ألم يكن سكان القاهرة والقرى المتضورون جوعاً ، على حق بسخطهم على حرب استنزفت الاموال الطائلة ، ولم يقدم عليها علي بك الا رغبة منه في ترويج التجارة مع بلاد الهند ، وهي تجارة لا ينتفع بها الا نفر قليل ؟

وهل اخطأوا بقدحهم في اسرافه اذ رأوه يؤدي ثمانين الف قرش ثمن قبضة خنجر ، ولو عد المالقون المنافقون كرماً مثل هذا التبذير الذي كان الشعب المصري وحده يتحمل وقره .

وما هو فضل علي بك ان جاد بمال لم يكابد أدنى مشقة في الحصول عليه؟ افمن ليس من العدل ان يتصرف باموال الامة ليشبع اهواءه ، او يكافئ من يروم مكافأتهم ، على خدمة خصوصية خدموه بها ، كما فعل مع قيم قصره[1] .

الحق ان ما من عمل من اعماله اوحته اليه مبادئ العدل والانسانية ؛ بل كان الطمع والصلف الباعث على كل ما فعل . فهل نعجب بعد ذلك اذا ما رأينا الشعب الذي عامله بتصلف وتجبُّر ، لا يثني عليه ، بل يذمه ويكرهه ؟

---

(١) عندما رحل علي بك الى المنفى ، وقد نفي ثلاثاً ، ضرب خيامه على مقربة من القاهرة ؛ وكان قد اعطي مهلة اربع وعشرين ساعة ليفي ديونه . ومن الذين كان مديناً لهم مملوك اسمه حسن ، اقرضه خمسمئة ريال . ولما جاءه حسن في خيمته ظن انه اتى ليطالبه بالمال ، فاخذ علي بك يعتذر اليه عن قصر ذات يده . غير ان حسناً اخرج من بدرته خمسمئة ريال ، وقال له : انت في عُسر فخذ هذا المال . فخجل علي بك منه واقسم ان يجعله صاحب ثروة لا مثيل لها ان عاد من المنفى ، وقد وفى بوعده ، لانه عندما رجع الى القاهرة جعله ماثن قصره . وعلى الرغم من اختلاساته الكثيرة فانه لم يزجره قط .

وصف بعض ما جرى من الحوادث بعد موت علي بك

(عن كتاب فولني عن مصر)

تفاقمت احوال المصريين بعد موت علي بك ، لان الذين خلفوه ، لم يحسنوا التصرف ، ولم يقتفوا من آثاره ما كان جديراً بالمدح والثناء . ومحمد بك الذي حلّ محله في شهر نيسان لسنة ١٧٧٣ ، لم يظهر في سنتي حكمه سوى رداءة لص ونذالة خائن . ولكي يبرّر جحده جميل المحسن اليه ، ادّعى انه فعل ما فعل للمحافظة على حقوق السلطان واطاعة لأوامره .

وقد بعث الى الاستانة بجميع الاموال التي ابى علي بك تأديتها ، كما انه اقسم يمين الطاعة للسلطان ، وبعد موت علي بك اعلن ثانية خضوعه التام ؛ ولإعطاء الدليل على غيرته واخلاصه ، التمس الاذن في محاربة الشيخ ظاهر . والباب العالي الذي كان يرغب في ذلك ، بادر الى اعطائه الإذن المطلوب ، والانعام عليه بلقب « باشا القاهرة » .

ومنذ تلك الساعة اخذ محمد بك يفكر في اعداد العدّة لحرب لا يرجى منها اية فائدة سياسية ؛ اذ السياسة لم يكن لها شأن في شنه الغارة على الشيخ ظاهر العربي المتمرد على السلطان في سورية . فمعاداته له كان الباعث عليها حقده واهواؤه . فانه لم ينسَ ما فعله الشيخ لمؤازرة علي بك ، كما انه كان يتوقع الحصول على غنيمة عظيمة باستيلائه على ثروة ابرهيم كاخية الشيخ التي كان يُشاع عنها انها لا تقع تحت حصر .

فكان يرى في القضاء على الشيخ اصابته هدفين ، هما الثأر والاثراء ، لذلك لم يتردد قط في الاقدام على تلك الحرب ، بل تأهب لها بالنشاط الذي

كان يوحي اليه به حقده وطمعه . فجهز جيشه بمدافع عديدة ، وجاء بمدفعيين اجانب ، عاهداً في قيادتهم الى الانكليزي « روبنسن » . ونقل من السويس مدفعاً كبيراً طوله ست عشرة قدماً كان ملقى هناك منذ زمن طويل .

فزحف الى فلسطين في شهر شباط من سنة ١٧٧٦ . ولدى اقترابه من غزة رأى حاميتها المؤلفة من رجال الشيخ ظاهر انها لا تقوى على المقاومة ، فانسحبت منها . وبعد استيلائه عليها ، تابع سيره الى يافا . فهذه المدينة التي كان فيها حامية ، واعتاد سكانها القتال ، لم ترضَ بالاستسلام ، فضرب الحصار عليها .

ان يافا تقع على ساحل لا يعلو معظمه عن سطح البحر الا يسيراً . وهي مشيدة على اكمة مخروطة الشكل ، ترتفع عمودياً نحو مئة وثلاثين قدماً . والبيوت القائمة على منحدرها ، لمجموعها منظر جميل . وعلى ذروتها قلعة صغيرة تشرف على ما حولها . والاكمة يحيط بها سور عند اسفلها ، لا متاريس عليه ، علوه اثنتا عشرة او اربع عشرة قدماً ، وثخانته قدمان او ثلاث اقدام . والشرفات التي في اعلاه هي وحدها التي تميزه من اسوار الحدائق والبساتين . وهذا السور الذي لا خنادق له ، تمتد امامه حدائق حيث شجر البرتقال والليمون ينمو نمواً مدهشاً .

فتلك هي المدينة التي اغار عليها محمد بك . وكان يدافع عنها نحو ستمئة صفدي يؤازرهم بعض السكان . وكان لديهم مدافع فلزية تزن قنبلتها اربعاً وعشرين ليبرة ، فنصبوها كما اتفق لهم على قواعد من خشب صنعوها لها بسرعة ؛ واجابوا العدو على دعوته لهم الى التسليم ، بكيلهم له الشتائم والتهديد والوعيد . واطلقوا عليه نيران بنادقهم ، ظانين ان الحقد والجرأة يقومان مقام المقدرة والمهارة .

ولما رأى محمد بك انه يجب اخضاعهم عنوة ، نصب خيامه بازآء المدينة . غير ان هذا المملوك الذي كان يجهل فنّ الحرب اتخذ لمعسكره بقعة لا تبعد سوى مسافة غلوة عن مدافع القلعة . فالقنابل التي اخذت تتساقط عليه ، لفتت نظره الى خطإه ، فابعد المعسكر قليلاً ، لكن القنابل التي ظلت تنهال عليه ، اجبرته على ابعاده ثانية ، فنصبوا خيمته بعيداً ، وهي التي اسرفوا كل الاسراف في ترويقها وفرشها ؛ وضربوا حولها خيام المماليك .

واما المغاربة فانهم اقاموا لانفسهم اخصاصاً من اغصان شجر البرتقال والليمون ؛ وفعل باقي الجيش ما استطاع لايجاد مآوٍ له . ثم اقاموا حرساً في اطراف المعسكر . ومن غير ان يفتحوا متاريس ظنوا ان ما فعلوه من شأنه ان يصون معسكرهم ؛ واخذوا من ثم يطلقون على المدينة مدافعهم التي نصبوها على قلعة تبعد نحو مئتي قدم . فاصلاهم المدافعون عن المدينة ناراً حامية جندلت الكثيرين منهم .

ومن البديهي ان يتوصلوا الى فتح فجوة واسعة في جدار ثخانته نحو ثلاث اقدام . وكان من المحتوم ان يجتاز بها المماليك ، غير انهم راموا عبورها وهم على صهوة جيادهم ؛ فقيل لهم ان ذلك غير مستطاع . فكانت المرة الاولى التي رضوا ان يسيروا فيها على الاقدام ؛ فكان لهم حينئذٍ منظر غريب بسروالهم الفضفاض ، وبنشهم [1] ذي الكمين العرضين المشمرَّين ، وطبنجاتهم وسيفهم الاحدب ، وهم يتعثرون بالانقاض وبما كان على الارض من العوائق والعراقيل .

وقد خُيّل اليهم انهم فازوا الفوز كله اذا اجتازوا بتلك الثغرة ؛ لكن المدافعين عن المدينة الذين كانوا يرون الامور على حقيقتها ، لم يتصدوا لهم حتى وصلوا الى ارض الفضآء التي ما بين المدينة والسور ؛ فامطروهم حينئذٍ من سطوح البيوت ونوافذها وابلاً من الرصاص ، مما اذهل المماليك واكرههم على الانسحاب .

---

(١) كلمة تركية تعني ردآء من جوخ كالجبة .

وقد اعادوا الكرة مراراً بايعاز مراد بك . غير ان محاولتهم لم تجدهم نفعاً . وكان محمد بك يرى كل ذلك ، فيتميز غيظاً . وقد دامت تلك الحال ستة وستين يوماً .

واما المحاصرون الذين كان عددهم ينقص على التوالي على اثر غاراتهم على العدو ، فانهم سئموا انتظار المدد الذي كانوا يؤملون قدومه من عكا ، فابوا مواصلة الدفاع عن المدينة وحدهم .

وكان المسلمون ينعون على المسيحيين قضاءهم الوقت في الصلاة ، وتفضيلهم البقاء في الكنائس على النزول الى حومة الوغى . لذلك عزم بعضهم على مفاوضة العدو في شأن تسليم المدينة اليه ، بشرط ان يؤمن على نفوسهم واموالهم واملاكهم .

وكان الاتفاق قد تم بين الفريقين عندما دخل المدينة بعض المماليك ، منتهزين فترة الهدوء التي تلت المفاوضة . ولما شرعوا في النهب ، قاومهم السكان . وعلى اثر ذلك استؤنف القتال ؛ فهجم عندئذٍ الجيش باجمعه على المدينة . فشهدت يافا في ذلك اليوم من الاهوال ما تقشعر له الابدان . لأن المماليك قتلوا بحدّ السيف المئات من النساء والاولاد والرجال والشيوخ . ومحمد بك الذي كان متوحشاً بقدر ما كان جباناً ، امر بأن يؤتى برؤوس هؤلاء الضحايا الذين بلغ عددهم الفاً ومئتين ، وترصّ امامه بشكل هرم .

فتلك النكبة الهائلة التي حدثت في ١٩ ايار سنة ١٧٧٦ نشرت الذعر في البلاد ، حتى ان الشيخ ظاهراً نفسه هرب من عكا ، واقام مقامه ابنه علي الذي ما زالت سورية باسرها تشيد بشجاعته ، مع كل ما شانَ سمعتَه من تمرّده المتوالي على ابيه . وقد ظنَّ عليٌّ ان محمد بك لا يخون العهد الذي

قطعه له . على ان المملوك ما ان وصل الى عكا ، حتى طلب منه رأس ابيه برهاناً على صداقته واخلاصه .

ولما رأى انه خُدع ، غادر المدينة التي غدت غنيمة باردة للمصريين . وما كاد التجار الفرنسيون ينجون منهم ، حتى دهمهم خطر هائل ، وهو ان محمد بك الذي علم ان ابرهيم الصباغ كاخية الشيخ ظاهر اودعهم كل ما يملك من ثروة ، توعّدهم بالقتل ان لم يأتوه بها في ميعاد ضربه لهم .

غير ان حسن الطالع انقذهم فجأة من الخطر ، لان المملوك اصيب على حين غرة بمرض خبيث لم يمهله سوى يومين فهلك وهو في ريعان الشباب . ويعتقد مسيحيو سورية ان موته كان عقاباً له لانتهاكه حرمة معبد ايليا النبي الذي على جبل الكرمل ، ويروون انه كان وهو ينازع يرى النبي في هيئة شيخ جليل ، فيصرخ قائلاً : ابعدوا عني هذا الشيخ الذي يرعبني ويلازمني .

فما ان ذاع خبر موته حتى قام جيشه من ساعته وعاد الى مصر . فانسحابه اتخذ شكل هزيمة على غرار ما حدث له لدى انسحابه من دمشق .

اصلاح غلط

صفحة	سطر	خطأ	صوابه
٣	١٦	هل بلدك بعيدة	هل بلادك بعيدة
٥	١٩	الحرية الحق	الحرية الحقيقية
١٠	٨	يتألفوا فيها تألفاً	يتآلفوا تآلفاً
١٢	١	غير أن لفظ هاتين اللغتين	غير أن هاتين اللغتين
١٣	٧	والشمية	والشمسية
٣٤	٤	اقض وعظ	امض عظ
«	١٩	والنصيرية لم تصل	والنصرانية لم تصل
٣٥	٣	تساعد انتشار	تساعد على انتشار
٣٨	٢	البلاد المتحدة	البلاد الممتدة
«	١٦	واردوه حتفه	واوردوه حتفه
«	١٧	وحينئذٍ	ومنذئذٍ
٣٩	١٧	هذه الام	هذه الأمّة
٤٣	١	على سير	على مسير
«	٧	الشمس ابي	الشمس امي
«	١٥	حلّ محلّها	حلّ محلهما
٤٥	١٢	هو الحكم عليهم	هو الحاكم عليهم
٤٨	١٠	يرغب الا الصلح	يرغب الّا في الصلح
٤٩	١	فاتفق . . . الى نقل	فاتفق . . . على نقل
٥٠	١٧	فضلاً ن	فضلاً عن

صفحة	سطر	خطأ	صوابه
٥١	٨	رجل متوالي	رجل متوال
٥٣	١٧	مالاً وافياً	مالاً وافراً
٥٧	٣	وهي الطاعة والصحة	هما الطاعة والصحة
٥٨	٦	في حزبهم	في ضربهم
〃	١٢	الزرّع	الزرّاع
٦١	١٣	فيتسايرون	فيتسامرون
٦٤	١٠	تضائل	تضاءل
〃	١٢	افتتحوا	اقتحموا
〃	١٣	المختصين به	المعتصمين به
٦٧	٥	نحو ثلاثاً	نحو ثلاث
〃	١٤	التأثير في	التأثير الحسن في
〃	١٥	ما فرض	ما عرض
٦٩	٩	فيجني	فجنى
٧١	٢	الاعتراف له بالسعادة	الاعتراف له بالسيادة
٧٢	١٥	واكثر هؤلاء	وكان اكثر هؤلاء
٧٤	١٧	انهم ذو مال	انهم ذوو مال
٧٦	٧	جراب الملوك	جراب المملوك
٧٧	٢	لتلك الملحمة	تلك الملحمة
〃	١٠	عثمان ووادیه	عثمان باشا وولديه
〃	١٢	كاخية ابرهيم	كاخيته ابرهيم
〃	١٣	اثار عليه	اشار عليه

صوابه	خطأ	سطر	صفحة
موقفا	موقعاً	٢٠	٧٨
ووقف الدروز	ووقت الدروز	٤	٧٩
الثماني مئة	العثماني مئة	١٢	«
اذهله هذا الغدر	اذهله هذا القدر	٤	٨٢
رحلت عن	رحلت من	٨	«
أن يتسللوا اليه	أن يسترسلوا	١١	٨٣
بزَر	بزَد	٢١	«
ساحة القتال	ساعة القتال	١٤	٨٧
افضى بها بعضهم	افضى بها	١٤	٨٩
كما يدعونهم	كما يدعونه	١٦	٩٥
وسائل الاغراء	رسائل الاغراء	١٩	٩٧
مملوك يخرج	مملوك كان يخرج	٦	٩٩
الجيشين الحليفين	الجيشين الحلفين	٤	١٠١
خيمته	الحاشية – سطر ٣ – خيمنة		١٠٥
رأت حاميتها	رأى حاميتها	٥	١٠٧
تلعة	قلعة	١٠	١٠٨
عريضين	عرضين	١٦	«
يؤمّن لهم نفوسهم	يؤمّن على نفوسهم	٩	١٠٩

هدية «الرسالة المخلصية»
في سنة ١٩٤٩

سوريا ولبنان وفلسطين

في

القرن الثامن عشر

كما وصفها احد مشاهير الغربيين

بقلم

الاستاذ حبيب الدوفي

الجزء الثاني

المطبعة المخلصية
دير المخلص - صيدا (لبنان)

تمهيد

نزف الى قرائنا الافاضل الجزء الثاني من كتاب الرحالة ڤولني عن بلادنا فهو تتمة الهدية التي قدمتها « الرسالة » في العام الغابر . والكلام في هذا الجزء يتناول تقسيم هذه البلاد الى خمس ولايات او ايالات ، هي : حلب ، وطرابلس ، وصيدا او عكا ، ودمشق ، وفلسطين . وقد وصف المؤلف كلًّا منها كما كانت عليه ايام كان يتنقل فيها . فاتى وصفها ، على اقتضابه ، مستهوياً للقارئ بما يطلعه عليه من الاحوال الماضية التي لم يبقَ اليوم لاكثرها من اثر . ثم عقب على ذلك كله بنظرة شاملة لخص فيها اقسام هذه البلاد وما كان يجبى منها من اموال السلطان ، وما يترتب على جبايته من عنت وارهاق وما الى ذلك . ثم تناول الكلام الصناعة والتجارة والفنون والعلوم وبعض العادات والطباع ...

الّا ان حضرة استاذنا السيوفي أغنانا عن مطالعة بعض آراء عقد لها المؤلف كلاماً طويلًا دون ان يكون فيها للمطالع الا الاستنكار والسآمة . فكان له فضل الاديب الناقد الذي يهمه فائدة المطالعين لا شهرة الابتداع .

وزاد فأفرد ، في ملحق قصير ، نبذة عن مظالم الجزار ، اقتضبها من مصادر اخرى غير كتاب ڤولني ، استكمالاً للفائدة عما يخص هذه البلاد مما يستدعي شكرنا الحميم .

« الرسالة »

سوريا ولبنان وفلسطين

الجزء الثاني

تقسيمها الى ولايات او ايالات

بعد ما فتح السلطان سليم الاول سورية بانتزاعها من يد المماليك جعلها خمس ولايات [1] وهي : حلب ، وطرابلس ، وصيدا او عكا ، ودمشق ، وفلسطين . وعيّن على كل منها حاكماً مطلق السلطة . وقد طرأ بعدئذٍ بعض التغيير على هذه الولايات من حيث الحدود ، واما الوضع العام فانه ظلّ على حاله .

ولاية حلب

ان جانباً من ولاية حلب تتوالى فيه الاودية والجبال ، والجانب الآخر تكثر فيه السهول ذات التربة الخزفية ؛ فالعشب ينمو فيها بقوة ووفرة على اثر سقوط الامطار . ولكن لا فائدة ترجى من هذا الخصب ، اذ معظم

---

(١) كان الاتراك يدعون (Pachalik) المنطقة التي كانوا يعيّنون عليها حاكماً له رتبة « باشا » وقولي في كلامه عن ولايات سورية قد حافظ على ذات اللفظة التركية . واما نحن فقد استعملنا لفظتي « والٍ وولاية » للدلالة على الحاكم والبلاد المعهود اليه فيها ، من غير ان تنظر الى ما كان لهاتين الكلمتين من المعنى المصطلح عليه في دواوين الدولة العثمانية التي جعلت لعمالها النائبين عنها في اواخر عهدها درجات ارقاها درجة « والٍ » ويليها في الرتبة درجة « المتصرف » « فالقائم مقام » « فالمدير » . ثم اننا لم نجعل فرقاً بين « الايالة » و« الولاية » ، واللفظتان معناهما واحد ، فهما مترادفتان .
(راجع « المنجد » للاب لويس معلوف اليسوعي) .

الاراضي تظل بوراً ، ولا ترى بقع مزروعة الا في جوار القرى والمدن ، وهي تعطي القمح والشعير والقطن . ويغرسون في الاراضي الجبلية الزيتون والتين والكرمة . ويزرعون التبغ في المنحدرات القريبة من الساحل . ويخصّون بشجر الفستق الاراضي القريبة من مدينة حلب . واما المروج فانهم يتركونها لعشائر التركمان والاكراد الرحل الذين يرعون عليها انعامهم .

والولي هو نائب السلطان « والملتزم » العام [1] واما في ولاية حلب فانه يعهد في « التزام » الضرائب الى محصّل ، ومدة التزامه سنة واحدة ؛ والبدل الذي يؤديه الى الباب العالي مقداره سبعمئة كيس [2] فضلاً عن مبلغ آخر من المال يناهز خمسة وثلاثين الف قرش ينفح به ارباب الامر واصحاب النفوذ في الاستانة ليشملوه بعطفهم ورعايتهم ، وبعد ان يدفع هذين المبلغين يحق له ان يتقاضى :

اولاً — مكوس البضائع الواردة والصادرة .

ثانياً — الرسم على رعي القطعان التي يأتي بها الاكراد والتركمان كل سنة من ارمينية ونواحي ديار بكر لبيعها في سورية .

ثالثاً — خمس ما يستخرج من ملاحة « جبول » . ثم الضريبة المفروضة على الاراضي . وتقدَّر جميعها بستمئة او سبعمئة الف قرش .

فوالي حلب الذي حُرم مصدر ارباح طائلة كهذه ، يتقاضى راتباً قدره ثمانون الف قرش ، وهو مبلغ لا يوازي نفقاته ، اذ عليه ان يصلح الطرق ، ويرمم القلاع ، ويقوم بنفقات الجنود الذين تحت يده ، ويبعث بالهدايا الفاخرة الى

---

(١) الملتزم عند المولدين الشخص الذي يضمن البلد او الاعشار او غير ذلك بمال معين يدفعه للحاكم بدل ريعها .

(٢) الكيس خمس ليرات ذهب ؛ والليرة مئة قرش تركي صاغ ؛ والقرش التركي اربعون بارة .

الوزراء ليحظى برضاهم ويحتفظ بمنصبه . غير ان الباب العالي يعرف حق المعرفة ان ما يفرضه الوالي من الضرائب على الاكراد والتركمان ، والقرى والافراد ، يدرّ عليه الاموال الوافرة . ومما يروونه من هذا القبيل ان « عدلي » باشا الذي كان والياً على حلب حوالي سنة ١٧٧٢ توصل في مدة خمسة عشر شهراً الى جمع مبلغ عظيم من المال قدّروه بمليون وستمئة الف قرش ، مما كان يأخذه من الاتاوى ، ويفرضه من المغارم ، حتى ضجر السكان منه فطردوه من مدينتهم شرّ طرد .

ومدة حكم الوالي تكون عادة قصيرة الاجل . ومن المحتوم عليه ان يحافظ على السكينة في ولايته ، بمؤازرة الفٍ او الفٍ ومئتي جندي ما بين راجل وفارس ، ويضم اليهم عند الحاجة الانكشارية (1) المقيمين في البلاد العامل عليها .

ويؤلف الانكشارية فرقة في كل من الولايات . ويتحتم عليهم ان يكونوا دوماً متأهبين للحرب . وبما انهم يتمتعون ببعض الامتيازات والانعامات ، فان الناس يقبلون برغبة على الانضوآء الى سلكهم . وكانوا يتبعون في ما مضى نظاماً خاصاً . غير ان حالتهم هبطت بعدئذٍ الى اقصى دركات الانحطاط . لذلك لم يبقَ للنظام القديم من اثر . فهم في الحقيقة شبه عساكر ، وليسوا سوى ارباب حرف وفلاحين وجهّال كباقي اصناف الجنود ، لكنهم اقلّ طاعة واصعب انقياداً من غيرهم . فان استبدّ الحاكم ، وظلم الرعيّة ، كانوا اول من نشر لوآء العصيان . فهم الذين خلعوا عدلي باشا الذي مرّ بنا ذكره ، وابعدوه

(1) طالع عن فرقة الانكشارية هؤلآء نبذة وضعها الاستاذ السيوفي سنة ١٩٦٠ وهي تطلب منه في دمشق : باب توما (سوريا) – او من المطبعة المخلصية : دير المخلص ، قرب صيدا (لبنان) .

عن حلب ؛ فاضطرَّ الباب العالي ان يعيّن واليًا آخر بدلاً منه .

وتقتصُّ الدولة من الانكشارية العصاة ، بقتلها زعماءهم ؛ لكنهم لا يلبثون ان يتخذوا زعماء غيرهم . ولكثرة ما عانى الحكام من المتاعب من هؤلاء الجنود الوطنيين ، قد اتخذوا جنوداً من الغرباء الذين لا اقرباء لهم هنالك . وهم صنفان ، مشاة وفرسان . ويعدُّون الفرسان وحدهم رجال حرب ؛ ويدعونهم « دولة » او « دلاتي » او « دلي باش » او « لاوند » ، وسلاحهم السيف القصير والغدّارات والبندقية والرمح . ويتعصبون بقلنسوة من اللباد الاسود اسطوانية الشكل ، ليس لها كناف ، طولها نحو خمسة وعشرين سنتمتراً ، فلا تقي العينين اشعة الشمس ، وتزلق بسهولة من على رؤوس هؤلاء الناس المحلوقة .

وسروج خيلهم يصنعونها على النمط الانكليزي من قطعة واحدة من الجلد ، يمدونها على مقعد من الخشب ؛ فهي مسطحة غير مريحة .

واما كسوتهم فهي تشبه كسوة المماليك ، لكنها اقل اناقة . فثيابهم البالية واسلحتهم الصدئة ، وافراسهم المتباينة القد واللون ، تجعلهم يشبهون اللصوص . والحقيقة ان معظمهم كانوا في الاصل لصوصاً ، وظلوا لصوصاً حتى بعدما صاروا جنوداً .

ان اغلب الجنود الفرسان في سورية اكراد وتركمان وقرمان قتلوا ونهبوا وسلبوا في مواطنهم ، ثم لجأوا الى الوالي فوجدوا في كنفه عملاً ومأوى . وفي جميع انحاء المملكة يتألف الجيش من افراد على شاكلتهم . وبما انهم لا يتقيدون بنظام ، فان اخلاقهم تظل على حالها ؛ فهم آفة المدن والقرى ، لانهم يتعدّون على الجميع ، ويسلبون وينهبون لدى كل سانحة وبارحة . والجنود المشاة هم اسوأ حالاً ؛ وكانوا فيما مضى يُجنَّدون من البلد ذاته الذي يقيمون فيه . وانما في العهد الاخير اخذ فلاحو تونس والجزائر ومراكش يتوافدون على

سورية للتجند فيها طلباً لعيشة غير متيسّرة لهم في موطنهم؛ فمن المغاربة اذاً تتألف الجنود المشاة، وليس اخف منهم، اذ ما يملكون من امتعة مقصور على بندقية صدئة، وخنجر، وحقيبة من جلد، داخلها قيص وسروال «وطاقية» حمرآء وخفان. ورواتبهم خمسة قروش في الشهر؛ واما نفقات اكلهم فالوالي يقوم بها. فحالتهم اذاً لا بأس فيها. وراتب الفرسان ضعف راتب المشاة. ويجري تصنيفهم على حسب الاسلوب التتري القديم؛ فيُجعَلون شراذم، والشرذمة عشرة رجال، وقلما تكون كاملة العدد، اذ الآغا المعهود اليه في صرف رواتبهم، يبذل جهده ليحتفظ لنفسه بجانب كبير منها بانقاص عددهم الى اقصى حدّ مستطاع. واما الرؤسآء فانهم يغضون الطرف، لان جانباً من المال المختلس على هذا المنوال يعود اليهم. والوالي نفسه له ضلع في الامر، لانه الشريك الاكبر. ولئلا يضطروا ان يدفعوا الرواتب بتمامها، يتغاضون عما يرتكبه جنودهم من الاعتداءات او يقترفونه من الذنوب والعيوب.

ففوضى كهذه قد جرّت الخراب على معظم الولايات، بما فيها ولاية حلب حيث لم يبقَ سوى اربعمئة قرية من الالف والمئتين المدونة في سجلات الميري. والتجار الفرنسيون الذين كانوا في حلب في القرن الثامن عشر رَوَوا ان معظم القرى القريبة من المدينة صارت الى الخراب، لان اصحابها اخلوها ولجأوا الى حلب حيث تغفل عنهم عين الظالم العاتي.

وقاعدة هذه الولاية مدينة حلب ذاتها التي تقع في وسط سهل متسع يمتدُّ ما بين نهري العاصي والفرات، متّصلاً من جهة الجنوب بالصحرآء. والبقعة المشيّدة عليها تربتها جيدة، ويجري فيها سلسال لا يجفُّ، وينبجس من جبال عينتاب، ثم يصب في بطيحة واقعة على مسافة ستة فراسخ من حلب، يكثر فيها طير القوق والهلوف. وتتوالى من ثمَّ الرياض الرائعة في الارض المنبسطة،

على ضفتي جدول الماء بقرب المدينة .

وحلب هذه هي الطف مدن سورية ، وانظفها ، واحسنها بناء ؛ فمن اين تلجها تعجبك مآذنها العديدة وقبب مساجدها البيضاء المستديرة ، فتريح ناظريك من رؤية السهل الاغبر المملّ المحدق بها .

وفي وسط المدينة تلّ يحف به خندق ، وعلى قمته قلعة خربة ، تشرف على ما حولها ، فمنها يمتد البصر جنوباً وشرقاً الى نهر الفرات ؛ وشمالاً الى جبال بيلان المجلّلة بالثلج ؛ وغرباً الى سلسلة الجبال التي ما بين نهر العاصي والبحر . وقد صمدت للعرب عدة اشهر ؛ غير انها تعجز في عصرنا عن صدّ اي هجوم كان ؛ فجدارها المنخفض القليل الثخانة خرب ، وابراجها الصغيرة ليست احسن حالاً ، ومدافعها الاربعة لا فائدة منها ، بما فيها المدفع الرفيع الطويل الذي غنموه من الفرس في حصار البصرة ؛ والثلاثمئة والخمسون انكشارياً الموكولة اليهم حراستها ، لا يقيمون فيها ، بل في حوانيتهم ، اذ الآغا قائدهم لا يجد فيها مكاناً يصلح لايوانهم . وفيها بئر يأتيها الماء بقناة محجوبة من عين تبعد فرسخاً ونصف الفرسخ . وفي اطراف المدينة حجارة كبيرة مبعثرة ؛ فهذه قبور .

وهنالك تلال تجعل الدنو من القلعة سهلاً ، وعلى احدها دار الدراويش المشرفة على القناة وجدول الماء . فحلب اذن غير محصّنة ، مع انها باب سورية من جهة الشمال . واما كمدينة تجارية فهي ذات شأن كبير ، اذ فيها تلتقي القوافل الرائحة والغادية ما بين ارمينية وديار بكر وبغداد وبلاد فارس . وهي تتصل بالخليج الفارسي وبلاد الهند من طريق البصرة ؛ وبمصر ومكة من طريق دمشق ؛ وبأوربة من طريق الاسكندرونة واللاذقية . والمتاجرة فيها تقوم بالمقايضة . واهم بضائعها القطن ، والصوف ، والغزل ، وانواع الحرير

المنسوج فيها ، والاقمشة الغليظة المصنوعة في القرى ، والنحاس ، والوبر ، وشعر المعز الوارد من الاناضول ، وعفص بلاد الاكراد ، والفستق ، والشال ، والشاش الهندي .

وما تستورده من الخارج جوخ « لانغدوق » ، ودودة القرمز ، والنيلة ، والسكر ، وبعض التوابل والابازير ، وبنّ اميركة الذي يأتون به خلسة اذ استيراده ممنوع ، فيمزجونه بالبن اليمني .

وللفرنسيين في حلب قنصل وسبع وكالات ، ولكل من الانكليز والبندقيين وكالتان ، ولكل من الانوريّين والهولنديين وكالة وفي السنة ١٧٨٤ انشأت فيها الحكومة الفرنسية قنصلية ، وعهدت فيها الى تاجر يهودي غني بادر من ساعته الى حلق لحيته ليرتدي بالكسوة الرسمية ، ويشدّ السيف على وسطه . وكذلك الروس اتخذوا لهم داراً هنالك جعلوها مقراً لقنصل يمثلهم . والمعاملة الطيبة التي يجدها التجار الاوربيون في هذه المدينة ، لا يجدون مثلها في سائر مدائن الشرق .

وتأتي حلب بعد الاستانة وازمير من حيث كثرة السكان ، فيظن ان عددهم فيها يناهز مئتي الف نسمة . واما هواؤها فانه جاف وملائم للذين لم تعترهم الامراض الصدرية . غير ان وبآء غريب الشكل ، يدعونه « حبة حلب » منتشر فيها وفي ما حولها ، وهو بثر يكون في ابتدائه التهابياً ، فيصير من ثم قرحاً يدوم سنة . وهو يخرج عادة في الوجه ، فيترك فيه اثراً مشوّهاً . ويزعمون انه يعتري ايضاً كل غريب يقيم في حلب ثلاثة اشهر . وقد دلت الخبرة على ان انجع دوآء له عدم استعمال اي ما دوآء ، ولا يعرف له من سبب ، وانما يظن انه ينجم من طبيعة المآء الذي يشربونه ، لانه منتشر ايضاً في القرى المجاورة وبعض انحآء ديار بكر .

وحمامها الذي كانوا يزجلونه الى بغداد ، حكايته ليست باسطورة . وقد بطل استخدامه في نقل الرسائل منذ اواسط القرن الثامن عشر ، لان قطاع الطرق كانوا يقتنصونه . واما طريقة زجله فهي انهم كانوا ينقلونه على الخيل الى المكان المراد عودته منه . وعندما يراد ارسال الاخبار ، تربط بطاقة برجله ، ثم يطلق سبيله ، فيصل من اسكندرونة في ست ساعات ، ومن بغداد في يومين . وهذا النوع من الحمام لا يختلف عن غيره الا بانتفاخ وخشونة منخره الذي يكون عادة املس في غيره من الحمام .

ومنظر حلب عن بعد يجلب اليها طيور البحر التي وجودها هنالك يستثير الدهشة . واذا ما صعد المرء بعد الظهيرة الى سطح بيت ، وحرّك يده كأنه يلقي في الفضاء كسرات من الخبز ، رأى الطيور تنقضُّ فجأة ، وتخطف وهي طائرة الكسر الملقاة اليها على سبيل التسلية .

ويلي حلب من حيث الاهمية مدينة انطاكية التي اشتهرت في سالف العصور بزهو سكانها . فهي اليوم بلدة خربة ، منظر بيوتها المبنية باللبن ، وطرقها الضيقة الخربة يدل على فقرها وبؤس اهلها . والبيوت قائمة على الضفة الجنوبية لنهر العاصي بقرب جسر قديم خرب . ويعلوها جنوباً جبل عليه سور شيّده الصليبيون ، وهي تبعد عن الجبل نحو الف ومئتي قدم . وفي هذه المسافة تتوالى الحدائق والخرائب .

وانطاكية اكثر ملاءمة من حلب لسكن التجار الاوربيين ، واقامة مستودعاتهم عليها . فلو ازالوا من مصب نهر العاصي الطمي المتراكم فيه — والمصب يبعد ستة فراسخ عن انطاكية — لسهل على المراكب صعوده ، وانما بسحبها ، بما ان مجراه شديد الانحدار ، لذلك يدعوه السكان « العاصي » . وعرضه داخل المدينة يقارب اربعين قدماً . وعلى مسافة سبعة فراسخ من مصبه صعوداً

يجتاز بحيرة ينمو فيها السمك ولاسيما الجرّي او ثعبان الماء الذي يقددون منه كل سنة مقادير كبيرة .

ولم يبقَ في انطاكية اثر لغابة « دفنة » ، او ذكر للمشاهد الدعارية التي كانت تمثل فيها . واما سهلها فتربته جيدة ، الا انه بور ، وقد ترك لقبائل التركمان الرعاة . غير ان الجبال التي الى جانبي النهر تكثر عليها بساتين التين والكروم والتوت التي شجرها مغروس بنسق لطيف لا مثيل له في غيرها من الاماكن . والملك المقدوني « سلوقيوس نقاتور » الذي شيَّدها ، اقام ايضاً على ضفة العاصي عند مصب النهر مدينة حصينة دعاها باسمه ، لا يرى اليوم منها الّا انقاض ومغاور في صخر مجاور ، وبقايا رصيفي مرفإ .

وعلى مقربة من ساحل البحر نحو الشمال جبال عالية دعاها واضعو تقاويم البلدان الاقدمون « رسوس » ؛ وهو ذات الاسم الذي ما زال باقياً حتى الآن في لفظة « رأس الخنزير » التي تسمَّى بها زاوية هذا الساحل .

والخليج الذي يزداد وغولاً شرقيَّ الساحل ليس فيه ما هو جدير بالذكر سوى مدينة الاسكندرون التي على شاطئ البحر ، مع انها قرية لا سور لها ، قبورها اكثر من بيوتها ، وهي الثغر الوحيد في سورية كلها حيث تستطيع السفن القاء مراسيها من غير ان تنقطع حبالها . غير ان محذوراته كثيرة واضراره جسيمة ؛ فهواؤه مؤذٍ ، وشتاؤهُ شديد الرياح كثير العواصف . واكثر رجال البحر الذين يقضون الصيف فيه ، يموتون بامراض تعتريهم ، وهي امراض تنشرها المستنقعات التي تكثر في جواره .

والتجار الاوربيون المقيمون في حلب لهم في الاسكندرون وكلاء ومستودعات . ولا شيء فيها يسترعي النظر سوى ستة او سبعة ضرائح من رخام جيء بها من انكلترة ، كتب عليها : « هذا ضريح فلان الذي مات في

ريعان الشباب متأثراً بالهواء الموبوء » . والذين يبرأون من مرضهم يقضون فترة النقه في بيلان الواقعة في قلب الجبال على مسافة ثلاثة فراسخ ؛ وهي بلدة هواؤها نقي وماؤها عذب زلال .

ولما ضاق تجار حلب الاوربيون ذرعاً بضار الاسكندرون ، فكّروا في نقل مستردعاتهم الى اللاذقية ؛ فاقترحوا على الباشا صاحب طرابلس اصلاح مرفإها على نفقتهم نظير اعفائهم من المكوس والضرائب لمدة عشر سنين ، وابانوا له ما ينجم عن ذلك من الفوائد في مستقبل الايام ؛ فاجابهم : « مالي والمستقبل ؟ كنت امس في مرعش ، وقد انتقل غداً الى جدّة ؛ فلِمَ احرم نفسي الحاضر الاكيد في سبيل مستقبل غامض لا امل لي فيه » .

وفي وسط الجبال شمالي حلب ، مدينتا كلّس وعينتاب اللتان سكانهما ارمن واكراد واتراك . وبما انهم يعيشون جميعهم في سلام ووئام ، فلا يستطيع الحكام الاستبداد بهم .

وعلى مسير يومين من حلب شمالاً بشرق بلدة « ممبج » التي كانت تعرف قديماً باسم « بمبيس » (Bambyce) . ولم يبقَ فيها اثر لهيكل الالاهة الكبرى التي وصف عبادتها لكيانوس . والامر الوحيد الجدير بالذكر قناة محجوبة طولها اربعة فراسخ يسيل الماء فيها منحدراً من الجبال ؛ وكانت المجاري المماثلة لها كثيرة في هذه الارجاء ، اذ الاشوريون والماديون والفرس كانوا يعتقدون ان الدين يفرض عليهم جرّ الماء الى الصحارى لانماء وسائل الراحة والرفاهة ؛ لاجل ذلك يرى ما بين بقعة واخرى آثار جليلة تدلّ على ان البلاد كانت آهلة في العصور الخوالي ؛ وتلك الآثار هي انقاض قرى قديمة ، وصهاريج خربة ، وبقايا قلاع وهياكل ، واقعة جميعها على الطريق التي بين حلب وحماة .

وفي السهل الواسع الذي في تلك الانحاء عدة تلال بيضوية الشكل وهي

من عمل البشر ، ومنها تل « خان شيخون » الذي طول دائره الف واربعمئة قدم ؛ وهو شاهد ناطق للجهود العظيمة التي كانوا يبذلونها في اقامة مثل هذه التلال التي تتوالى بين فرسخ وآخر ، وعلى جميعها انقاض قلاع واطلال هياكل ، لأن الاقدمين كانوا يؤثرون القيام بفرائض العبادة في الاماكن العالية .

واما الآن فبدلاً من تلك الحدائق والبساتين ، لا يرى المرء الا اراضي بائرة مهملة ، مع ان تربتها جزيلة الخصب ، وما يزرعونه في بعضها من القطن والسمسم ينجح نجاحاً تاماً .

وجميع الاراضي الواقعة على حدود الصحرآء ، ليس فيها مآء جار ولا ينابيع ؛ ومآء الآبار مالح ؛ والامطار التي يعلقون الآمال عليها لا وجود لها الا فيما ندر . لاجل ذلك ما من شيء له منظر كئيب كما لتلك الاراضي الماحلة القاحلة حيث لا شجر ينمو ولا عشب ينبت ؛ او لهذه المساكن المبنية باللبن التي تتألف منها القرى ؛ او لهؤلاء القرويين البؤسآء المعرضين دوماً لعسف الحكام ، وجور الظلام ، وتعدي البدو .

والعرب المقيمون هنالك يدعون « الموالي » ؛ فهم اغنى واقوى القبائل العربية طرًّا ، بعضهم فلاحون ، والبعض الآخر يؤازرون عرب نجد في تسيير القوافل ما بين حلب والبصرة ، او دمشق او طرابلس عن طريق حماة .

ولاية طرابلس

تشمل ولاية طرابلس البلاد الممتدة بموازاة البحر الابيض ما بين اللاذقية ونهر الكلب . فحدودها غرباً مجرى هذا النهر وسلسلة الجبال المطلة على نهر العاصي . واكبر جانب منها جبلي ، وليس فيها ارض منبسطة الا تلك التي تقع بين طرابلس واللاذقية . وجداولها العديدة تجعلها كثيرة الخصب ، واخص غلتها القمح والشعير والقطن . غير انهم لايهتمون كثيراً بفلاحتها ، بما انهم يفضلون عليها الاراضي الجبلية .

وحاكم طرابلس مطلق السلطة في الشؤون العسكرية والمالية ، ويقلد الحكم لسنة واحدة ببدل قدره مئة وخمسون كيساً يؤديها الى الباب العالي ، وعليه ايضاً ان يقوم بنفقات الجردة التي تقدر بسبعمئة وخمسين كيساً ؛ والجردة هي القمح والشعير والارز التي يذهب بها الى قفل الحجاج في البادية ، فيعتاض من ذلك بالاتاوى والمغارم والضرائب والمكوس وما يتقاضاه من تلزيم بلاد النصيرية ولبنان . فالمال الذي يدخل عليه من هذه المصادر وافر جداً . وعليه كذلك ان يقوم بنفقات الخمسمئة فارس والجنود المغاربة الذين تحت يده ؛ وهؤلاء ليسوا احسن حالاً من زملائهم الذين في حلب .

والحكام الذين تعاقبوا على طرابلس ، حاولوا مراراً ان يديروا هم انفسهم دفة الحكم في بلاد النصيرية والدروز . غير ان هذين الشعبين كانا يقاومان بالسلاح دخول الاتراك الى بلادهما ، لذلك اضطروا ان يعهدوا في جباية الاموال منهما الى « ملتزمين » يرضيان بهم . ومدة الالتزام سنة واحدة ؛ والحاكم هو الذي يطرحه في المزاد ؛ فيتزاحم الاغنياء لأخذه ؛ وهكذا يستطيع الحاكم ان

يثير التحاسد والاضطراب في تلك البلاد ، جاعلاً نيرانها مضطرمة على الدوام ، وذلك ما فعله الفرس والاشوريون في البلاد التي كانوا يسيطرون عليها .

ففي اواخر القرن الثامن عشر كان ثلاثة زعماء او متقدمين ملتزمين بلاد النصيرية . واما بلاد الموارنة والدروز فان التزامها كان معهوداً فيه الى الامير يوسف ببدل قدره ثلاثون كيساً .

واول مدينة جديرة بالذكر في هذه الولاية ، طرابلس ذاتها ؛ فهي قاعدة الحكم ، وتقع على مسافة ربع فرسخ من مصب نهر « قاديشا » ؛ ويفصلها عن البحر سهل صغير مثلث الزوايا ، اتساعه نصف فرسخ ، في طرف البلدة التي ترسو المراكب بقربها . وليس هنالك مرفأ ؛ واما الخليج الذي ما بين الشاطئ والصخور المعروفة بجزر الارانب والحمام ، فان المراكب تحذر الرسو فيه لكثرة الصخور التي في اسفله وللارياح التي تعصف بشدة على جميع هذا الشاطئ . وفي عهد الصليبيين كانت تحمي الخليج ابراجٌ رأى ڤولني سبعة باقية منها .

وعلى مقربة من طرابلس بساتين التوت الابيض والرمان والبرتقال والليمون ، وهي اشجار تحمل احسن الاثمار والذها . ويكثر هنالك الصبّار الذي ينبت بشكل غير منتظم .

وقد يبدو ان السكن في هذه المدينة مستطاب ، الا انها معرضة لانتشار الاوبئة فيها ، وعلى الاخص في فصل الصيف ؛ فهي من هذا القبيل كقبرص والاسكندرون ، اذ بساتين التوت القريبة منها يغمرونها بالماء لجعل الاشجار تورق ثانية ، فيحدثون مناقع عديدة . ثم ان المدينة ليست مفتوحة الّا من جهة الغرب ؛ لذلك لا يهبّ عليها النسيم ، فالمرء يشعر فيها بتعب ونصب دائمين . وفي الميناء الهواء اكثر رطوبة منه في المدينة ، الّا انه

انقى وامرأ لانه طلق .

وفي الساحل الجنوبي لسهل الصغير المشار اليه ، آثار مساكن ، واعمدة محطمة داخلة في الارض او مغشاة برمال البحر ، وهي التي استعمل الصليبيون الكثير منها في الاسوار التي شيدوها .

وتجارة طرابلس تقوم بالحرير الخشن الذي يصنعون منه ضفائر ، الا ان صنعها آخذ بالتضاؤل لبوار اشجار التوت التي لم يبقَ منها سوى سوق منخورة . واصحابها لا يقدمون على نصب غيرها ، او على احداث بناء جديد ، لئلا يظنهم الحاكم مثرين ، اذ من يعرف عنه انه يحرز مالاً ، طلب منه تأديته ؛ فان أبى او انكر ، ضرب ؛ وان اعطى ضرب ايضاً ليعطي اكثر فاكثر .

والطرابلسيون يأبون الخنوع ؛ فلقب الانكشارية الذي يتخذونه ، والعمامة الخضراء التي يعتمرون بها ، متخذين صفة الاشراف ، يحملانهم على العصيان . ففي اواسط القرن الثامن عشر ، أثار الحاكم ثائرهم ، ودفعهم الى اليأس بما اقترفه من اعمال الجور والاستبداد ؛ فطردوه ، وظلوا ثمانية اشهر مستقلين بشؤونهم . فالباب العالي بعث اليهم رجلاً اتقن اساليب النفاق ، فتوصل الى اخضاعهم بكيله لهم الوعود الطيبة وقسمه الأيمنَ المحرَّجة ومنحهم العفو والامان ؛ ثم انتهى به الامر الى خنق ثمانية منهم في يوم واحد ، وهم الذين ترى جماجمهم في مغارة قرب « قاديشا » .

والفرنسيون الذين لهم في طرابلس قنصل وثلاث وكالات ، يقايضون على الحرير والاسفنج المستخرج من قعر الخليج ، بالجوخ والدودة القرمزية ، والسكر ، والبن الاميركي . وانما هذا الثغر هو دون اللاذقية اهمية .

فمدينة اللاذقية التي انشأها « سلوقيوس نقتور » ودعاها « لاودوقية » تقع على الشاطئ الجنوبي لبقعة ارض مستطيلة داخلة نصف فرسخ في البحر .

ومرفأها كباقي المرافئ التي على هذا الساحل ، يحيط به رصيف من الحجارة ، وله مدخل ضيق ؛ ويمكنه استيعاب خمسة وعشرين او ثلاثين مركباً . بيد انهم اهملوه ، فتراكمت فيه الحجارة والاتربة حتى انه لم يعد يسع اربعة مراكب ؛ والسفن التي يزيد محولها على اربعمئة طن لا يمكنها ان تعوم فيه . وكثيراً ما تجنح السفن عند مدخله ؛ ومع ذلك فان التجارة في هذه المدينة رائجة ، وعلى الاخص تجارة التبغ الذي يشحنون منه سنوياً الى دمياط عشرين مركباً فيأتيهم بدلاً منه الارز الذي يقايضون عليه بالزيت والقطن في سوريا العليا . وفي عصر « سترابون » كانوا يبعثون الى مصر عن طريق الاسكندرية بمقادير كبيرة من النبيذ المشهور المستخرج من عنب الكروم التي على منحدرات الجبال .

ويقدرون عدد سكان كل من طرابلس واللاذقية باربعة آلاف نسمة .

وعلى الساحل الذي ما بين هاتين المدينتين جملة قرى كانت في العصور الخوالي مدائن محصنة ، كجبيل وطرسوس وغيرهما . وهنالك اماكن عديدة تدل آثارها التي اندثر الكثير منها ، انها كانت آهلة عامرة في سالف الزمان ، ومنها جزيرة ارواد او ارادوس القديمة الجديرة بالذكر ، وهي التي روى عنها « سترابون » ان دورها كانت اكثر طبقات من بيوت روما . وبعامل الحرية التي كان ينعم بها سكانها نموا وتكاثروا حتى اصبح عددهم عظيماً . وكانوا يزاولون الملاحة ، ويمارسون الفنون والصنائع ؛ والجزيرة اليوم خالية خاوية ، حتى ان النقل لم يحفظ لنا ذكرى عين الماء العذب التي عثر عليها الارواديون في قاع البحر فكانوا يستمدون الماء منها بقمع من الرصاص وانبوب من جلد يركبونه عليه .

والى الجنوب بلاد كسروان الممتدة من نهر الكلب حتى طرابلس ؛ واكبر مدنها جبيل او بيبلوس القديمة التي عدد سكانها ستة آلاف . ومرفأها

كرفا اللاذقية . ونهر ابرهيم هو نهر ادونيس ، القديم الذي يبعد فرسخين الى الجنوب ؛ وعليه جسر بقوس واحدة ، فتحتها خمسون قدماً ، وارتفاعها ثلاثون . ويدل شكله على ان العرب هم الذين شيدوه .

والاوربيون يترددون الى اهدن وبشري التي فيها معهد للمرسلين . وفي فصل الشتاء يقصد جمهور كبير من القرويين الى الساحل تاركين بيوتهم التي طمرتها الثلوج ، في عهدة بعض الحراس . وتبعد بشري عن غابة الارز ثلاثة فراسخ ، مع ان الرجل لا يستطيع قطع هذه المسافة الَّا في سبع ساعات . ويدَّعي ڤولني ان اشجار الارز هذه الذائعة الشهرة ، تشبه عجائب الدنيا الاخر . فان دنوت منها ، رأيت ان صيتها يفوق حقيقة حالها . ويقول ان هنالك اربع او خمس شجرات ضخمة ، ليس لها اية صفة خاصة ، ولا هي جديرة بما يكابده المرء من المشقة في سبيل رؤيتها .

وعلى حدود كسروان بمسافة فرسخ واحد من نهر الكلب تقع قرية عنطورة الصغيرة حيث كان للآباء اليسوعيين دير حسن الموقع ، قريب من الساحل ، يشرف على الوادي الذي امامه . وعلى مقربة منه عين غزيرة الماء تسقي بساتين الدير وكرومه . وكان الآباء رغبوا في ان يضموا اليه دير نساء يبعد نحو ربع فرسخ . غير ان الروم الكاثوليك الذين هم اصحابه لم يوافقوهم على ذلك ؛ فاقاموا ديراً آخر الى جانب ديرهم دعوه دير الزيارة . وكانوا قد بنوا ايضاً على بعد مئتي قدم مدرسة اعدوها للطلبة الموارنة والروم الكاثوليك ؛ لكنها بقيت خالية . واللعازريون الذين حلُّوا محلهم لهم هنالك كاهن واخ مساعد .

ولاية صيدا

التي يقال لها ايضاً ولاية عكا

الى جنوب ولاية طرابلس ، وعلى طول ذات الساحل ، ولاية ثالثة دعيت باسم صيدا ، وهي المدينة التي كانت قاعدتها . ويمكن ايضاً تسميتها ولاية او ايالة عكا . فقبل الشيخ ظاهر كانت تشمل بلاد الدروز ، وجميع الساحل الممتد من مجرى نهر الكلب حتى جبل الكرمل . وبقدر ما كانت سلطة الشيخ تنمو وتتسع ، كانت البقعة التي يسيطر عليها الوالي تصغر وتضيق ، حتى انها لم تعد تشمل سوى مدينة صيدا وحدها التي طرد منها في نهاية الامر .

غير انها ما عتمت ان استعادت حدودها السابقة على اثر اضمحلال سلطة الشيخ ؛ فالجزار الذي خلف الشيخ في الحكم ، ضمّ اليها بلاد صفد ، وطبرية ، ومدينة قيصرية التي كان يحتلها عرب بني صخر ، وبعلبك التي كانت تابعة لولاية دمشق ؛ ثم نقل سكنه الى عكا ، للاستفادة مما اجراه فيها الشيخ من العمران . فهذه الولاية بعد ان ضُم اليها ما ضُمّ ، صارت تشمل جميع البلاد الواقعة ما بين نهر الكلب وقيصرية فلسطين جنوباً ، والبحر المتوسط غرباً ، ولبنان الشرقي والجانب الاعلى من نهر الاردن شرقاً .

فتلك الاراضي الواسعة قد زادت الولاية شأناً ، واعطتها مزيّتين حسنتين ، هما الموقع والخصب . فسهول عكا ، ومرجعيون ، وصور ، والحولة ، والبقاع الاسفل ، اشتهرت بجودة تربتها ؛ فان ما يزرع فيها من شعير ، وذرة ، وقطن ، وسمسم ، يعطي عشرين او خمسة وعشرين ضعفاً . واراضي قيصرية فلسطين فيها غابة من شجر البلوط لا مثيل لها في سورية باسرها . واراضي صفد ينبت

فيها قطن يحاكي قطن جزيرة قبرص ، وما يزرع من التبغ في الاراضي الجبلية التي في جوار صور يضارع بجودته تبغ اللاذقية ، بل هنالك بقعة يُجنى منها صنف له رائحة عطرية كرائحة القرنفل يبعثون به الى القصر السلطاني في الاستانة . ويتوافر في بلاد الدروز النبيذ والحرير .

وتُعدُّ هذه الولاية بندراً لدمشق وسائر سورية ، بفضل موقعها على الساحل وكثرة خلجانها .

والوالي حاكم مطلق السلطة ، وملتزم عام ؛ فهو يدفع سنوياً الى الباب العالي مبلغاً ثابتاً قدره سبعمئة وخمسون كيساً . وفضلاً عن ذلك ، عليه ان يموّن قفل الحجاج ، على غرار زميله والي طرابلس ، مقدماً للقفل من الارز والقمح والشعير ما يساوي مئة وخمسين كيساً . والالتزام مدته سنة واحدة يمكن تجديدها . واما دخله فهو : اولاً الميري او ضريبة الارض . — ثانياً الاموال المفروضة على الدروز والموارنة والمتاولة وبعض عشائر العرب . — ثالثاً المال الجزيل الذي يدخل عليه من التركمان ومن طريق الاتاوى والمغارم . — رابعاً المكوس التي جُمل بدل التزامها عن جميع الموانئ والخلجان الف كيس .

ومما كان يأتيه ايضاً بالارباح الطائلة استغلاله الاراضي الواسعة ، وتسليفه التجار والفلاحين المال بالربآ ، فما يجنيه من ذلك يربو على ثمانية ملايين قرش .

ولأوليآء الامر في الاستانة خطة لا يحيدون عنها ، وهي جعل المال المفروض على الملتزم ثابتاً ، اي تركه بلا زيادة ولا نقصان ، مهما كثرت الارباح . ولاجل ذلك يَدَعونه يجمع المال بأمان واطمئنان ، حتى اذا جاءت الساعة توصلوا ببعض الحجج الى الاتيان اما برأسه او بصندوق ماله .

فالباب العالي رضي من الجزار نظراً الى خدمه ؛ فهو الذي مهّد السبيل الى

القضاء على الشيخ ظاهر العمر واولاده ، وقمع عرب قبائل صخر ؛ وخفض جناح الدروز ، وكسر شوكة المتاولة فلاجل ذلك اجزل له الانعامات ، ومنحه رتبة «باشاه» ولقب «وزير». ولكن الباب العالي ما لبث ان داخله الارتياب من نشاطه الجامح ؛ فنشأ في كليهما شعور دالٌ على تضعضع الثقة ؛ مما حمل الجزار على اتخاذ الحيطة لنفسه ؛ فجعل يجمع الجنود ، باذلاً جهده لجعل معظم افراد جيشه من مواطنيه البشناق والارنأوط ، حتى اصبح عددهم تسعة آلاف فارس ، ذلك علاوة على الالف مغربياً الذين كانوا تحت يده . وكان له ايضاً اربع سفن حربية غنمها من اصحاب جزيرة مالطة .

فتلك الاحتياطات التي تظاهر باتخاذها احترازاً من العدو ، جعله في مأمن من المباغتات . لكن الباب لم يقف مكتوف اليدين ، بل كان يبعث اليه «القبوجيين» عاهداً اليهم في اغتياله . والجزار ايضاً لم يكن غافلاً عن امر هؤلاء المندوبين ؛ فكان يراقبهم مراقبة شديدة منذ ساعة وصولهم . فالزحار الفجائي الذي اورد اثنين او ثلاثة منهم حتفهم ، اخمد رغبة غيرهم في الاقدام على اغتياله .

وكان له في ديوان الاستانة ، وفي القصر السلطاني ذاته جواسيس واصدقاء يجزل لهم الهدايا والعطايا ؛ فهم الذين توصلوا بعدئذ الى حمل اولياء الشأن على اسناد ولاية دمشق اليه . وذلك ما كان هو يرغب فيه ، بما ان ولاية دمشق اعظم ولايات سورية قاطبة . وقد تخلى عندئذ عن ولاية عكا لمملوك يدعى سليماً كان مخلصاً له . لكنه كان يعدُّ نفسه صاحب الولايتين ، اذ سليم كان اطوع له من بنانه .

واما الاماكن الجديرة بالذكر في هذه الولاية ، ففي مقدمتها بيروت القائمة على بقعة تبدأ عند سفح الجبل ، داخلة في البحر على شكل قرن طوله

فرسخان . والزاوية الجوفآء التي يحدثها هذا القرن ، يصب فيها نهر بيروت او نهر الصليب الذي يفيض في فصل الشتآء ، وعلى هذا النهر جسر كبير خرب يصعب عبوره .

وكانت بيروت في حوزة الدروز ، ثم انتزعها منهم الجزار . بيد انها ظلّت البندر الذي يترددون اليه ، لانهم منها يشحنون قطنهم وحريرهم المعدّ معظمها لمدينة القاهرة ، فيأتيهم بدلاً منهما البن والارز اللذان يقايضون عليهما بحنطة البقاع وحوران . وفي بيروت من السكان ستة آلاف نسمة .

ولمرفإها رصيف كما للمرافئ الأُخر التي على هذا الساحل ؛ وقد تراكمت فيه الانقاض والرمال . ويحيط بها سور مبني بحجارة رملية رخوة تخترقها القنابل من غير ان تحطمها . مع انه لا مناعة لسورها ولا لأبراجهـا القديمة . والتلال المشرفة عليها ، وافتقارها الى المآء يجعلانها تعجز عن صد المغيرين عليهـا .

وتَرِد نساؤها عيناً نائية ، ماؤها قليل العذوبة . وقد حاول الجزار اقامة سبيل فيها كالذي شيّده في عكا ؛ والحفر التي فتحوها لبنآء الصهاريج ، كشفت عن اطلال المدينة القديمة التي بعض انقاضها واعمدتها ترى ورآء السور .

والبساتين التي بجوارها توتها اقوى واحدث من التوت الذي في اراضي طرابلس ، لان اصحاب تلك البساتين كانوا في اثنآء حكم الدروز يستطيعون نصب اشجار جديدة كلما دعت الضرورة ، فلا يعارضهم احد ؛ لاجل ذلك يمتاز الحرير المجنى منها بجودته .

وبيروت حرّها شديد ، وماؤها ساخن ، لكنّ هواءها طيب ، ومما يزيد طيبه ويجعله جيداً نقياً ، شجر الصنوبر الكثير الذي نصبه الامير فخر الدين على مسافة فرسخ منها . ونفس هذا الامر قد اكده لنا رهبان دير

الشوير ، وقالوا له ايضاً قد كثرت مياه الينابيع وازدادت عذوبةً منذ ما انتشرت غابات الصنوبر على قمم لبنان ؛ وهو لعمري قول صادق قد أيدته الحقائق .

ان الاماكن التي تسترعي النظر في جبل الدروز لهي يسيرة ؛ فاهمها دير القمر موطن الامراء . وهي ليست بمدينة ، بل هي قرية منازلها سيئة البناء ، تقع خلف جبل يجري عند سفحه نهر الدامور اي « تمراس » القديم ؛ وسكانها دروز وموارنة وروم من ارثوذكس وكاثوليك ، عددهم جميعاً الف وثمانيمئة . وقصر الامير ليس سوى بيت كبير ، بناؤه سيء ، وجدره متداعية .

ومما يجدر ايضاً ذكره زحلة القرية الواقعة في وادي البقاع على سفوح الجبال واكنافها . وقد صارت في اواسط القرن الثامن عشر عقدة الاتصال ما بين بعلبك ودمشق وبيروت ولبنان . والمشهور عنها ان نقوداً مزيفة تضرب فيها .

وبلاد الدروز عدة مقاطعات ، لكل واحدة منها طابعها الخاص الذي يميزها عن غيرها : فمقاطعة المتن كثيرة الصخور والحصى والحديد ؛ ومقاطعة الغرب ينبت فيها احسن اشجار الصنوبر ؛ ومقاطعة الساحل تكثر فيها الكروم وبساتين التوت ؛ ومقاطعة الشوف مشهورة بجودة حريرها ؛ وبكثرة شجر التفاح في المقاطعة المكناة باسمه ؛ ومقاطعة الشقيف تعطي افضل اصناف التبغ . ويسمّون جروداً أعلى وأبرد بقع في الجبال ؛ وهناك يسرّح الرعاة قطعانهم في فصل الصيف .

وكان الدروز قد رضوا بان يقطن بين ظهرانيهم المسيحيون من روم وموارنة ؛ فاقطعوهم ما يحتاجون اليه من الاراضي لاقامة ديورة عليها . وهكذا تسنى للروم الكاثوليك ان يشيدوا هنالك اثني عشر ديراً في اوائل القرن الثامن عشر .

واول تلك الديورة دير مار يوحنا الصابغ الذي يقع تجاه قرية الشوير ،

على سفح منحدر يجري في اسفله شتاء سيل يصب في نهر الكلب . وقد بني هذا الصرح بهندسة لا زخارف فيها ولا جمال ، في وسط الصخور العظيمة المنهارة من الجبل ، وهو يشبه مرقداً له صفأن من الحجارة الصغيرة، يعلوها سطح معقود عقداً متيناً . ويقيم فيه اربعون راهباً . وميزته الكبرى احتواؤه على مطبعة عربية وهي الوحيدة التي نجحت في البلاد الشرقية . ولا نظن القارئ يأبى ان يلمّ بعض الالمام بتاريخها .

فان الآباء اليسوعيين شرعوا منذ بدء القرن الثامن عشر ينشرون العلوم في ديرهم بحلب ، بنشاطهم وغيرتهم المعهودة ؛ فانشأوا في تلك المدينة مدرسة لتربية الاولاد المسيحيين ، وتلقينهم قواعد الدين ، محذرينهم من البدع ، كما هو دأب المرسلين الأول ؛ فنجم عن ذلك ميل شديد الى المشاحنات التي تثير الخصام والجدال ما بين المنتمين الى شتّى المذاهب الشرقية .

فالمنطق ركن المحاجة ، وهو علم يفرض على من يروم الاخذ به ان يكون ملماً الالمام التام باصول اللغة ؛ وبما ان المسيحيين كانوا لايعرفون سوى اللغة العامية لإيصاد ابواب المدارس العربية في وجوههم ، فلم يكن في وسعهم الاقدام على المحاجة كتابة ، الى ان توصل نفر منهم الى الاخذ من بعض العلماء قواعد الصرف والنحو .

وقد امتاز من بين هؤلاء المسيحيين بنبوغه وتضلعه من اللغة العربية المدعو عبدالله زاخر ؛ فاخذ ينشر بغيرة لا تعرف الملل عقائده وآراءه . وليس في وسعنا ان نعلم بدقة مدى التأثير الذي كان يحدثه نشاطه في استمالة الناس الى آرائه في حلب ، اذ طرأ فجأة حادث من الحوادث التي تعدّ عادية في تلك البلاد ، فغيّر مجرى الامور .

فخصومه قد أغاظهم تهجمه عليهم فسعوا في الاستانة لهلاكه ، وتوصلوا الى

الحصول على خط شريف بضرب عنقه . وكان من حسن حظه انه شعر بالدسيسة ففرّ هارباً الى لبنان حيث لم يكن خطر على حياته .

ففارق عبدالله بلده ، ولكن افكاره الرامية الى التجديد لم تفارقه ؛ فعزم عزماً صادقاً على نشر آرائه كتابة . واماً ما يظلّ مخطوطاً منها ، فانه بدا له غير واف بالمرام. وبما انه كان يقدر فوائد الطباعة ، فاقدم على تنفيذ ثلاثة مشاريع في آن واحد وهي التأليف ، وصب الحروف ، والطباعة . وقد تسنّى له بلوغ مرامه بفضل عبقريته وثروته واتقانه فنّ الحفر الذي مارسه اذ كان يتعاطى مهنة الصياغة .

وكانت الحاجة تدعو الى شريك ؛ فساعده الحظ على وجود ذلك الشريك، فاستعان به على عمل ما كان يرغب فيه . فابن عمه الذي كان رئيس دير مار يوحنا الشوير ، اشار عليه بالسكن في ذلك الدير . ومنذ تلك الساعة غدت مشاريعه شغله الشاغل ، الى ان تمكن في سنة ١٧٣٣ من نشر مزامير داود في مجلد واحد . فاقبل الناس على شراء كتابه حتى خصومه انفسهم ، لما رأوا فيه من جمال الحروف واتقانها . ومنذ ذلك الحين اعيد طبع الكتاب عشر مرات .

وقد حاول غيره صبّ حروف ، لكنهم لم يستطيعوا التفوق عليه ، اذ الحروف التي صنعها كانت تماثل الكتابة تماثلاً تاماً . فكانت ملأى حيث يجب ان تكون ملأى ، ودقيقة حيث يجب ان تكون دقيقة . ذلك بعكس الحروف العربية التي كانوا يصنعونها آنئذ في اوربة مفككة دقيقة .

فقضى عشرين سنة وهو يقوم بطبع المؤلفات المتنوعة التي كان معظمها مترجماً عن الكتب التقوية . انه لم يكن يعرف اللغات الاوربية ، الّا ان الآباء اليسوعيين نقلوا الى العربية كتباً عديدة . وبما ان المامهم باللغة العربية لم يكن كاملاً فاعاد تعريبهم مستبدله بلغة هي مثال المتانة والطلاوة .

وكان قلمه سيالاً ، متنوع الاساليب ، صريحاً ، خالياً من الحشو ؛ فادهش الجميع ، دالّا بذلك على ان اللغة العربية تلائم ملاءمة موفقة اي موضوع اريد طرقه وشرحه .

وقد توفي عبدالله سنة ١٧٤٨ ، فخلفه تلميذه ، فرهبان الدير انفسهم ، مواصلين بعده عمل الطباعة وصب الحروف . غير ان المطبعة وقف بعدئذ حالها حتى امست مهدّدة بالزوال ، لان ما كان يباع من الكتب يسير ما عدا كتاب المزامير الذي جعله المسيحيون كتاب اولادهم المدرسي . فرواجه هو الذي دعا الى اعادة طبعه مراراً .

بيد ان النفقات كانت باهظة ، بما ان الورق يجب جلبه من اوربة . ثم ان اليد العاملة بطيئة جداً ؛ فمشكلة الورق يمكن معالجتها بشيء من الفن ؛ واما بطء العمل فمن المتعذر وجود حلّ له ، لان الحروف العربية تتطلب ربط بعضها ببعض ، لان شكلها يختلف على نحو ما تكون في بدء الكلمة ، او في وسطها ، او في طرفها . فدعت الضرورة الى صبّ الحروف العديدة المزدوجة والى جعل منضدة الحروف ذات عيون كثيرة العدد ، لا تستطيع يد الناضد الوصول اليها بسهولة ؛ فيضطر الناضد الى الجري ذهاباً واياباً امام المنضدة التي يبلغ طولها ثماني عشرة قدماً ، باحثاً عن حروفه في ما يقارب تسعمئة عين مما يؤدي الى ضياع وقت طويل . ونفس هذا الامر يجعل من المتعذر على الطباعين العرب بلوغ درجة الاتقان التي ادركها الطباعون في اوربة .

واما كساد الكتب فالباعث عليه عدم انتقاء الملائم منها ؛ فبدلاً من تعريب الكتب ذات الفائدة العلمية التي من شأنها ايقاظ حب الفنون في جميع العرب بلا تمييز ، فانهم لم يعربوا الا كتب العبادة التي تلائم المسيحيين وحدهم . فهاك جدول الكتب التي طبعت في دير مار يوحنا الشوير في جبل الدروز :

١ً ميزان الزمان للاب نيارمبرغ اليسوعي – ٢ً اباطيل العالم للاب ديداكو اليسوعي – ٣ً مرشد الخاطئ للاب لويس دي غرناد اليسوعي – ٤ً مرشد الكاهن – ٥ً قوت النفس – ٦ً مرشد المسيحيين – ٧ً التأمل الاسبوعي – ٨ً التعليم المسيحي – ٩ً تفسير السبعات – ١٠ً مزامير داود مترجماً عن اليونانية – ١١ً النبوات – ١٢ً الانجيل والرسائل – ١٣ً السويعيات تأليف رودريكاز .

وها هي المخطوطات المحفوظة في الدير .

١ً الاقتداء بالمسيح – ٢ً بستان الرهبان – ٣ً علم النية تأليف بوزامبوم ٤ً مواعظ سنياري – ٧ً قواعد النواميس الكلود فربتيو – * ٨ً مجادلات الانبا جرجي – ٩ً المنطق ترجمه عن اللاتينية احد افراد الطائفة المارونية – ١٠ً نور الالباب لبولس الازميري اليهودي الاصل المرتد الى المسيحية – * ١١ً المطالب والمباحث للمطران جرمانوس فرحات – * ١٢ً ديوان الخوري نقولا ابن مم عبدالله زاخر – ١٣ مُختصر القاموس .

جميع هذه الكتب خطها المسيحيون ، والمسبوق منها بنجمة ألفت باللغة العربية . اما الكتب الآتي بيانها فألفها المسلمون :

١ً القرآن – ٢ً قاموس الفيروزبادي – ٣ً الفية ابن مالك – ٤ً تفسير الف بيت – ٥ً الاجرومية – ٦ً التفتزاني – ٧ً مقامات الحريري – ٨ً ديوان عمر بن الفارض – ٩ً فقه اللغة – ١٠ً الطب لابن سينا – ١١ً المفردات ترجمة ابن البيطار – ١٢ً دعوات الاطباء – ١٣ً عبارات المتكلمين – ١٤ النديم الوحيد – ١٥ً تاريخ اليهود ليوسيفوس (ترجمة سيئة) . وايضاً كتب في علم الفلك ، وكتب اخرى لا فائدة منها .

تلك هي مجموعة خزانة دير مار يوحنا ، ومنها يمكن ان نعرف مستوى

الثقافة في جميع انحاء سورية ، حيث لا يوجد سوى هذه الخزانة وخزانة الجزار. ولم يكن بين المخطوطات ما هو جدير بالترجمة من حيث مضمونه ، حتى ان مقامات الحريري لا اهمية لها الآن من حيث لغتها ، وليس بين الرهبان من يستطيع فهمها سوى راهب واحد ، كما ان باقي المخطوطات يتعذر فهمها على معظم الرهبان .

وفي نظام هذا الدير واخلاق سكانه شيء من الغرابة يجدر بنا ذكره . فقانون رهبانيتهم هو قانون القديس باسيليوس الذي منزلته عند الشرقيين تماثل منزلة القديس بندكتوس عند الغربيين ؛ غير انهم قد ادخلوا على قانونهم بعض التعديل لجعله ملائماً لحالتهم . وقد رفعوه في اواسط القرن الثامن عشر الى الحبر الاعظم ، فوافق عليه .

وفي استطاعتهم ان يبرزوا نذورهم ابتداء من السنة السادسة عشرة من عمرهم ، اذ واضعو القوانين الرهبانية قد توخوا التأثير في ذهنية الذين يستميلونهم منذ حداثتهم لكي يجعلوهم خاضعين لطريقتهم . وتلك النذور لا تختلف عما هي عليه في اي مكان آخر ، فهي الفقر والطاعة والتضحية والعفة ؛ غير انهم يحافظون عليها في هذه البلاد اكثر مما يحافظون عليها في اوربة .

وحالة رهبان الشرق هي اجمالاً اصعب من حالة الرهبان الغربيين ، كما تدل على ذلك طريقة معاشهم ؛ فانهم يقضون في اليوم الواحد سبع ساعات في الصلاة من غير ان يُعفى منها احد . وينهضون في الساعة الرابعة صباحاً ، ويرقدون في الساعة التاسعة مساء . ولا يأكلون في يومهم الا اكلتين ، الواحدة في الساعة التاسعة ، والاخرى في الساعة الخامسة . وينقطعون دوماً عن أكل الزفر ، حتى انهم لا يأكلون اللحم في امراضهم الكبرى . ويصومون كباقي الروم ثلاثة صيامات كبيرة في السنة . وهنالك عدة صيامات اخرى لا يأكلون

في خلالها بيضاً ولا حليباً ولا جبناً . ويعيشون الجانب الاكبر من السنة على العدس المطبوخ بالزيت ، وعلى الفول والارز المطبوخ في السمن ، وعلى اللبن والزيتون ، وشيء من السمك المقدد . وخبزهم رغيف صغير خشن ، سيء الاختمار ، يجف ثاني يوم خبزه ، مع انهم لا يخبزون الا مرة في الاسبوع . ثم يزعمون ان بمثل هذه الاغذية يتجنبون الامراض التي تعتري الفلاحين .

ولكل واحد منهم حجرة صغيرة ليس فيها من الرياش سوى حصيرة وفراش وغطاء . وليسوا في حاجة الى «شراشف» بما انهم ينامون وثيابهم عليهم . واما لباسهم فهو قميص غليظ ، وسروال وقميص داخلي وقباء من الصوف الخشن الذي لا ينثني لثخانته وقساوته ثم يدعون شعر رؤوسهم يطول حتى يبلغ الثماني اصابع ، مخالفين بذلك عادة السكان . ويلبسون قلنسوة من اللباد كالتي يتعصب بها فرسان الاتراك طولها عشر اصابع .

وكل منهم ما عدا الرئيس ونائبه ووكيل الخرج ، يتعاطى مهنة من المهن اللازمة والمفيدة للدير . فمنهم الحائك ، والخياط ، وصانع الاحذية ، والبناء ، وطاهيان ، واربعة يقومون باشغال المطبعة ، واربعة بتجليد الكتب . وجميعهم يتعاونون في العجن يوم الخبز .

ونفقات هؤلاء الاربعين او الخمسة والاربعين لا تزيد على اثني عشر كيساً في السنة ، اي ما يساوي ستة آلاف قرش ، بما في ذلك نفقات الزوار الذين كثيراً ما تعود زيارتهم على الدير بالفائدة ، اذ اغلبهم ينفحونه بالمال او الهبات التي تؤلف جانباً من دخله . واما الجانب الآخر فانه يؤخذ من ريع اراضيه التي اكتراها الرهبان من اميرين باربع مئة قرش في السنة .

وتلك الاراضي قام بعزقها الرهبان الاولون ، واما الآن فان حراثتها وزراعتها يقوم بها فلاحون يخصون الدير بنصف مجتناها ، وهو الحرير الابيض والاصفر

الذي يبيعونه في بيروت ، وبعض الحبوب ، والخمر التي لا سوق لها هنالك ، فيهدونها الى المحسنين الى الدير ، او يشربونها هم . وكان الرهبان فيما مضى يمتنعون عن شربها . ولكن انقياداً لما يطرأ عادة من التحويل والتبديل على اي جمعية كانت ، قد خفف الرهبان من غلوهم الاول ، كما انهم بدأوا يتساهلون في تدخين التبغ ، وشرب القهوة ، غير ملتفتين الى احتجاج الرهبان القدماء الحريصين على صيانة التقاليد التي تقيدوا بها منذ حداثتهم .

ان ذات هذا النظام تتبعه الديورة الاثنا عشر الخاصة بتلك الرهبانية التي عدد افرادها نحو مئة وخمسين . ويجب ان نضيف اليها خمسة ديورة للراهبات . فان الرؤساء الاولين ظنوا انهم صنعوا حسناً بانشائها . وقد اسف الرهبان بعدئذ على ما فعله اسلافهم ، اذ وجود راهبات في هذه البلاد لا يخلو من الخطر . ثم انهن ينفقن اكثر من دخلهن . بيد ان الرهبان لا يجرؤون على تسريحهن ، لانهن ينتمين الى اغنى الاسر في دمشق وحلب والقاهرة . وتلك الاسر ترسل بناتهن الى تلك الديورة ومعهن مهرهن .

وكثيرون يهبون الدير كل سنة مئة قرش ، حتى مئة ليرة ذهباً او الف ريال ، ولا يبتغون عوض ذلك سوى الصلاة على نيتهم لكي يبعد الله عنهم طمع الحكام . مع ان ذلك لا يمنع الحكام من اكراههم على استنقاذ نفوسهم بالمال اذا ما رأوا افراطهم في اللبس الانيق والرياش الفاخر . وقد روي ان احدهم بنى في دمشق داراً بلغت نفقاتها مئة وعشرين الف قرش . فلما علم بها الحاكم بعث اليه يقول : ارغب في ان اراها واشرب القهوة عندك . ولكن بما ان الحاكم اعجب بها فانه لم يرحل عنها الا بعدما دفع اليه صاحبها عشرة آلاف ريال .

ومن الديارات الاكثر شهرة دير المخلص المقام على بقعة تبعد مسير ثلاث

ساعات عن صيدا شمالاً بشرق . وكان رهبانه قد جمعوا فيه كثيراً من الكتب العربية من مطبوعة ومخطوطة . غير ان عساكر الجزار أتلفوا بعضها ، وبددوا البعض الآخر عندما شنّوا الغارة على هذا الصقع واقتحموا الدير .

وصيدا الآنفة الذكر هي صورة صيدون القديمة ، لكنها صورة لا تطابق الاصل . وكانت فيما مضى مقر الباشا الحاكم ؛ وهي كسائر المدائن الشرقية سيئة البناء ، وملأى انقاضاً ؛ وتشغل على شاطئ البحر بقعة من الارض طولها نحو ستمئة قدم بعرض مئة وخمسين . وفي طرفها الى الجنوب حيث تعلو قليلاً ، اقام دنكزلي الذي مرّ بنا ذكره حصناً يشرف على البحر والبر والمدينة .

وفي طرف المدينة الآخر ، شمالاً بغرب ، قلعة مشيَّدة في وسط البحر تبعد ثمانين قدماً من البر المتصلة به باقواس . والى جانبها غرباً صخرة بارزة فوق الماء طولها مئتا قدم ؛ فترسو السفن في المسافة التي ما بين الصخرة والقلعة . فذلك هو المرفأ ، لكنه مرفأ لا يقي السفن الارياح اذا هبت ، والعواصف اذا ثارت . وعلى الشاطئ بازاء المدينة حوض محوّط برصيف خرب ؛ فذلك كان المرفأ فيما مضى ، لكن الرمال تراكمت فيه ، فلم تعد المراكب تستطيع دخوله .

هو الامير فخر الدين الذي اقدم على هدم جميع تلك المرافئ الصغيرة ، لانه كان يخشى السفن التركية ، لاجل ذلك ، اغرق فيها مراكب وردمها بحجارة . فلو نُظِّف هذا الحوض ، وازيل منه الردم ، لاستوعب خمسة وعشرين مركباً .

ما من سور يصون المدينة من جهة البحر ، ولا يكتنفها من جهة البر الا حائط السجن . ثم ان مدافعها الستة التي في قلعتها ، لا « قنادق » او قواعد لها ، وليس هنالك من يعرف طريقة استعمالها . وعدد رجال حامية المدينة

اقل من مئة . ويأتيها الماء في مجارٍ مكشوفة تردها النساء ، ومنها ترتوي بساتين التوت وجنائن الليمون .

والتجارة هناك لا بأس فيها ، لان المدينة هي البندر الاول لدمشق والبلاد الداخلية . والاجانب المقيمون فيها جميعهم فرنسيون ، لهم فيها قنصل وخمس او ست وكالات ؛ فيبتاعون الحرير والقطن المغزول او الغير المغزول . وغزل القطن اهم الصنائع التي يتعاطاها سكان صيدا البالغ عددهم نحو خمسة آلاف .

وبعد مسير ستة فراسخ الى الجنوب بموازاة البحر ، يصل المسافر الى قرية (*) صور التي كانت في سالف العصور محور تجارة وملاحة عظيمتين ، ومهد العلوم والفنون ، وموطن امهر وانشط شعب عاش على وجه البسيطة . وهي تقع على بقعة شبه جزيرة متوغلة في البحر على شكل مطرقة ، رأسها صخر تغشيه تربة سمراء تصلح للزراعة ، مكونة سهلاً صغيراً طوله ثماني مئة قدم ، وعرضه اربع مئة . والبرزخ الذي يصل السهل بالبر ، مكوّن من رمال البحر . والفرق ما بين السهل والبرزخ يجعلنا نتصور ما كانت عليه الجزيرة البيضوية الشكل قبل ان يصلها الاسكندر بالساحل بواسطة رصيف ؛ فالبحر بقذفه الرمال على الرصيف جعله على شكله الراهن .

والقرية ذاتها قائمة على الوصلة التي ما بين البرزخ والجزيرة ، غير شاغلة منها سوى ثلثها . فالطرف البارز من الارض جنوباً فيه حوض ، وهو الذي كان في الاصل المرفأ ، قد تراكمت فيه الرمال حتى صار الاحداث يعبرونه من غير ان تبتل احقاؤهم . وعند مدخله برجان متقابلان ، كانوا يعلقون بهما سلسلة

(*) كان سكانها على زمان « فولني » لا يزيد عددهم على خمسين او ستين اسرة لذلك نراه يدعوها « قرية » .

طولها خمسون او ستون قدماً ليمنعوا المراكب من دخوله . وكان يمتد منها جدار بطول الحوض من جهة البحر ، ويحدق من ثم بالجزيرة كلها ؛ ولم يبقَ الآن منه سوى اساسه الممتد على الشاطئ الى نقطة قريبة من المرفأ حيث قام المتاولة في العقد السابع للقرن الثامن عشر ببعض الترميمات التي اخذت الآن تنهار .

وفي وسط البحر على مسافة ثلاث مئة قدم من الطرف البارز المارّ ذكره ، يُرى شمالاً بغرب صف من الصخور . ففي الفرجة التي بينها وبين الشاطئ ، تجد السفن ملجأً يفضل على مرفإ صيدا ، ولو انها لا تكون فيه بأمن من الاخطار ، لان الريح الشمالية تعصف هنالك بشدة ، كما ان قعر البحر يُتلِف حبال المرامي .

واذا دخلنا الجزيرة المشار اليها ، رأينا ان القرويين تركوا جانباً منها فضاء ، وهو المطل على البحر من الشمال ، فقد جعلوه بستاناً ، لكن اعتناءهم به ضئيل . ويقيم في هذه القرية خمسون او ستون اسرة يتعاطى افرادها الفلاحة وصيد الاسماك . وشتان ما بين اكواخها الحقيرة المتداعية والبيوت ذات الطبقات الثلاث التي كانت هنالك في عصر « سترابون » .

وكانت القرية معرَّضة للغارات . والمتاولة الذين استولوا عليها في سنة ١٧٦٦ احاطوها بسور علوه عشرون قدماً . ومما يسترعي الانتباه كنيسة لم يبقَ منها سوى الخورس ، وهي من آثار الصليبيين . وعلى مقربة منها ، في وسط كوم من الحجارة عمودان جميلان من الصوان الاحمر النادر الوجود في سورية . والجزار الذي اخذ من هذه الاماكن ما كان فيها ، ليزين به الجامع الذي بناه في عكا ، رغب في نقلها . غير ان رجاله لم يستطيعوا زحزحتها من مكانها .

وعلى مسافة مئة قدم من باب القرية ، برج خرب فيه بئر تردها النسآء ، عمقها نحو خمس عشرة قدماً . غير ان المآء فيه لا يزيد ارتفاعه على قدمين او ثلاث اقدام ؛ وليس افضل منه في سائر انحآء ذاك الساحل . ومن الغريب انه يتعكّر في شهر ايلول ، ويظل بضعة ايام احمر من كثرة التراب الخزفي الممزوج به ؛ فيحتفل القرويون بالحادث احتفالاً رائعاً ، فيأتون البئر ، ويلقون فيها دلواً من مآء البحر ، زاعمين انه يروّق مآءها .

واذا تابعنا سيرنا على البرزخ ، متجهين نحو البر ، رأينا بين مسافة ومسافة اقواساً متهدمة تتتابع في خط مستقيم حتى تلّ طبيعي وهو الوحيد في ذلك السهل ، ومكوّن من صخرة طول دائرها نحو مئة وخمسين قدماً ، ليس عليها سوى بيت واحد خرب ومقام لاحد الاوليآء تعلوه قبة بيضآء . والمسافة التي ما بين الصخرة وقرية صور يقطعها الفارس في ربع ساعة من الزمان . وكلما دنا المسافر من الصخرة توالت امامه الاقواس التي اشرنا اليها فيتضاءل علوها شيئاً فشيئاً حتى تصبح خطاً متتابعاً ، ينعطف فجأة الى الجنوب على شكل زاوية قائمة ، ثم يسير بانحراف في وسط الحقول الى ان يصل الى البحر . وتلك المسافة يقطعها الخيّال في ساعة من الزمن .

واما الغاية من تلك الاقواس فهي جلب المآء بالمثعب الذي عليها والذي عرضه ثلاث اقدام وعمقه قدمان ونصف القدم ، وهو مبني بملاط اصلب من الحجر ، ومتصل آخره آبار سمّاها بعض الرحّالة « آبار سليمان » ويدعوها القرويون « رأس العين » احداها كبيرة ، واثنتان اصغر منها ، وعلى مقربة عدة آبار أخر صغيرة ، مكونة جميعها كتلة من البنآء المشيّد بحصى البحر والملاط ارتفاعه ثماني عشرة قدماً في الجنوب ، وخمس عشرة في الشمال بانحدار خفيف الميل عريضه ، تصعد المركبة عليه بسهولة حتى قمته ، التي اذا ما بلغ اليها المرء ، رأى منظراً مدهشاً

رأى الماء بدلاً من ان يكون منخفضاً عن الارض او بمساواتها ، يرتفع أعلى من سطح المكان . اي ان الماء الذي يملأ البئر أعلى من الارض بخمس عشرة قدماً ؛ وهو ليس هادئاً ، بل يشبه سيلاً فائراً جائشاً ، فينحدر الى المثاعب التي على سطح البئر ، وهو غزير كاف لادارة ارحاء الثلاثة الطواحين الواقعة على مقربة ؛ ويؤلف من ثم غديراً يصب في البحر على مسافة اربعمئة قدم .

وفوهة البئر الكبرى مثمنة الزوايا طول كل منها ثلاث وعشرون قدماً وثلاث اصابع ؛ فقطر الفوهة ، هو اذاً احدى وستون قدماً ؛ ويزعمون ان هذه البئر لا قرار لها ، بيد ان الرحالة « لاروك » روى انهم وجدوا عمقها في زمانه ستة وثلاثين باعاً .

ومما يلفت النظر ان فوران الماء قرض جانب البئر الداخلي الذي صار يشبه نصف قوس معقود فوق الماء .

واكبر واحد من المجاري المتشعبة هنالك يتصل بتشعب الافواس المشار اليها ، وكان الماء ينحدر منها قديماً الى الصخرة فالبرج عن طريق البرزخ ، وهو البرج الذي ترد النساء بئره .

والسهل عرضه فرسخان ، تحف به تلال عالية ، تتوالى من القاسمية حتى الرأس الابيض ، وهو ذو تربة جيدة سوداء .

ومدينة عكا الشهيرة في قديم الزمان باسم « ابتلماوس » لا تبعد عن صور سوى تسعة فراسخ ؛ وهي تقع في الزاوية الشمالية لخليج ممتد حتى الطرف البارز من جبل الكرمل .

ومنذ ما رحل الصليبيون عنها تضاءل شأنها ، وقلَّ عدد سكانها على ان الترميمات والاعمال العمرانية التي اجراها فيها الشيخ ظاهر العمر اعاد الحياة اليها . وقد جعلها الجزار من بعده اعظم مدائن الساحل ؛ فبنى فيها جامعاً جميلاً ،

وسوقاً مسقوفة لا تقل شأناً عن سوق حلب ذاتها . ومما يجب ذكره عن الجزار بالثناء انه وضع هو نفسه تصميم تلك البنايات ، فكان يدرس مشاريعها ويرسم خططها ، ويشرف على بنائها .

ومرفأ عكا هو من حيث موقعه احسن مرافئ ذاك الساحل . والمدينة ذاتها تقيه شر الارياح الشمالية . غير انه ظل مردوماً منذ عهد الامير فخر الدين ؛ ولم يحدث فيه الجزار بعدئذ سوى موردة .

والحصن الذي هناك لا فائدة منه . ولو انه معتنى به اكثر من سائر الحصون الاخرى ؛ وليس عليه سوى ابراج لا خير فيها ، ركّبوا عليها مدافع ، لكنها صدئة رديئة ، ان أُطلقت انفجرت . والسور الذي من جهة البر ان هو الّا جدار ، لاخندق له ، فهو يماثل اسوار الجنائن والبساتين .

وسهل عكا اكثر انخفاضاً واقلُّ عرضاً من سهل صور ، تحدق به تلال تتتابع من الرأس الابيض حتى الكرمل . ومنخفضاته تجعلها مياه الامطار التي تتجمع فيها ، مناقع خطرة ، تتصاعد منها في فصل الصيف الابخرة المنتنة . واما تربته فهي تصلح لزراعة القمح والقطن ، وهما اساس تجارة عكا .

وقد اتَّبع الجزار اسلوباً رائجاً في الشرق ، هو احتكار التجارة فما من احد يستطيع بيع او شرآء القطن سواه . وعبثاً حاول التجار الاوربيون الاحتجاج على ذلك باستنادهم الى الامتيازات التي منحهم اياها السلطان ؛ فكان يجيبهم : انا السلطان في بلادي . لذلك لم يعبأ بهم . وهؤلاء التجار معظمهم فرنسيون ، لهم في عكا قنصل وست وكالات .

والجانب من خليج عكا حيث ترسو السفن يقع الى شمال جبل الكرمل عند اسفل المدينة حيفا . وقعره تثبت فيه المرامي من غير ان تنصرم حبالها . انما المكان معرّض للريح الشمالية . وجبل الكرمل الذي يشرف على ما حوله ،

له ظهر مسطح صخري ، يُرى عليه الى جنب العوسج ، الزيتون والكرمة البرية مما يدل على ان الزراعة امتدت في سالف الزمان الى هذا المكان . وعلى قمته معبد مكرس لايليا النبي . والى الجنوب سلسلة صخرية ، ينمو على ذراها البلوط والصنوبر ، ويختلف اليها النمر والهلوف .

وعلى مسافة ستة فراسخ بلدة الناصرة ذات الشهرة العالمية ، سكانها ثلثهم مسلمون ، والثلثان مسيحيون . وللآباء الفرنسيسيين فيها نزل ومعبد وهم عادة ملتزمو البلدة .

وجبل الطور او طابور الذي يبعد فرسخين عن الناصرة ، له شكل مخروط مبتور الرأس . وكان عليه قلاع لم يبقَ منها الّا واحدة خربة . ومن اعلاه يمتد البصر الى جبال وأودية تتتابع جنوباً حتى بيت المقدس . ويُخيل الى الناظر من عليه ان وادي الاردن وبحيرة طبرية ، التي حوضها مكوّن من فوهة بركان ، يقعان عند سفحه .

لا شيء مما على الشاطىء الشرقي لبحيرة طبريا خليق بالذكر فيما عدا المدينة المكناة باسم البحيرة نفسها ، وعين الماء الحارّ التي تقع على بعد فرسخ منها . وقد تراكم فيها وحل اسود ، وهو دواء نافع في الامراض العصبية . واما المدينة فليست سوى كوم انقاض تقيم فيها نحو مئة اسرة .

وعلى مسافة سبعة فراسخ من البحيرة نحو الشمال ، قرية صفد القائمة على سطح جبل . وتعدّ صفد مَهدَ السلطة التي توصّل الى احرازها الشيخ ظاهر العمر . وكان فيها معهد لتعليم الصرف والنحو والفقه وتفسير القرآن . واليهود الذين يعتقدون ان مسيحهم سيجعلها قاعدة ملكه ، رغبوا في سكناها ، فاستوطنتها خمسون او ستون اسرة منهم . غير ان الزلزلة التي حدثت في سنة ١٧٥٩ تركتها خراباً . والاتراك الذين يتشاءمون منها قد اهملوها ،

فامست قرية لا شأن لها .

واذا غادرنا صفد ، واتجهنا شمالاً ، صادفنا سلسلة جبال عالية . تدعى « جبل الشيخ » ينبع منها نهر الاردن وجداول اخرى . والمكان المنبجسة منه يدعى « حاصبيا » ، كان متولياً عليها في اواخر القرن الثامن عشر احد امرآء الاسرة الشهابية ؛ وكان يؤدي الى « الجزار » ضريبة سنوية قدرها ستون كيساً . والارض هنالك وعرة تشبه ارض جبل لبنان الاسفل . والجبال الممتدة بطول وادي البقاع ، تدعى لبنان الشرقي ، لانها موازية للبنان الدروز والموارنة . ووادي البقاع الفاصل بينهما كان يدعى قديماً « سوريا الجوفآء » . فموقعه المنخفض الذي تنحدر اليه مياه الجبال يجعله من اخصب الاراضي السورية . والقيظ فيه شديد الوطأة ، فيشبه مصر من هذا القبيل ؛ غير انه طيب الهوآء ، وليس فيه مياه راكدة . والقرويون ينامون على سطوح بيوتهم فلا ينالهم ضرر . وقبل زلزلة سنة ١٧٥٩ ، كانت تلك الاماكن كثيرة القرى ، وسكانها متاولة . ولكن الاضرار التي احدثتها الزلزلة ، والحروب التي نشبت بعدئذ بين السكان والاتراك ، تركتها قاعاً صفصفاً ؛ والمكان الوحيد فيها الذي يستدعي الانتباه ، مدينة بعلبك .

ان بعلبك الشهيرة عند الرومان واليونان باسم « هليوبوليس » اي مدينة الشمس ، مبنية على سفح لبنان الشرقي ، عند طرف الجبل الذي يليه السهل . ومن يَسِرْ اليها من الجنوب ، يرها من مسافة فرسخ ونصف الفرسخ ، ورآء ادواح الجوز الرائعة التي تبعد مسير ساعة من الزمن ؛ تعلوها قبب ومآذن بيضآء ، وتليها جنائن تتخللها طرق ضيقة عوجآء مؤدية الى المدينة . واول ما يقع البصر عليه هنالك جدار خرب على جوانبه ابراج مربعة .

فذلك الجدار الذي لا يزيد علوه على اثنتي عشرة قدماً ، يتسلق من الجهة

اليمنى تلمة ، فيحدق بالمدينة القديمة ، من غير ان يحجب ما وراءه من الارض الخلاء ، والانقاض والاطلال ، والبناء العظيم الذي يدل جداره العالي ، واعمدته المزخرفة ، على انه احد تلك الهياكل التي تركها لنا الاقدمون ، ليثيروا بها اعجابنا . فهو اجمل البنايات القديمة قاطبة ، واكثرها صيانة ولو ان جانباً كبيراً منه تناوله الخراب بفعول اضطرابات الطبيعة ، وتوالي الحدثان ، وجهل السكان [1] .

ومن الغريب ان مؤرخي اليونان والرومان لم يذكروا الا شيئاً يسيراً من هذا الهيكل . والرحالة «وود» قد بحث في كتاب الاقدمين عن اصل منشإها ، فلم يجد فيها الّا ما قاله يوحنا الانطاكي من ان بانيه هو القيصر انطونيوس الورع . وقوله هذا تؤيده الادلة ، كاشفة القناع عن الباعث على استعمال الطراز الكرنثي في عمارته ، وهو الطراز الذي لم يبلغ درجة الاتقان الّا في الحقبة الثالثة لمدينة روما . واننا يجب ألّا نعدّ برهاناً على ذلك الطائر الذي على ساكف احد ابواب الهيكل ، ذا المنقار الاعجن ، والمخالب

(١) وصف فولني بشيء من الاسهاب هذا الاثر العظيم . غير ان رحالين انكليزيين هما «روبرت وود» و «داوكنس» سبقاه الى وصفه بما انهما زارا بعلبك وتدمر سنة ١٧٥١ ونشرا بعد ست سنوات بعنوان «خراب بعلبك» كتاباً ضمّناه وصفاً دقيقاً لذلك الاثر العجيب . وفولني يعترف بتفوقهما عليه من هذا القبيل ، باشارته على من يريد التعمق في درس اصول الفن المتبع في بناء هيكل بعلبك ، بان يطالع كتابهما المحفوظة نسخة منه في خزانة باريس الوطنية . والكتاب نادر الوجود وغالي الثمن وقد لاحظ فولني انه طرأ بعض التغيير على حالة الهيكل منذ رحلتهما . فانهما رأيا من الاعمدة المنتصبة تسعة كبيرة وتسعة وعشرين صغيرة ؛ واما هو فانه لم يجد منتصباً سوى ستة اعمدة كبيرة ، وعشرين صغيرة . واما الاعمدة الاخر فان زلزلة سنة ١٧٥٩ كانت قد اسقطتها .

الكبيرة القابضة على شيء له شكل طير . فقنبرته التي تشبه قنبرة البعض من طير الحمام ، تدل على انه ليس بالنسر الروماني ؛ وذات صورته ترى في هيكل تدمر ، لاجل ذلك يرجح ان يكون الطائر المشار اليه نسراً شرقياً مكرّساً للشمس التي هي إلاهة هذين الهيكلين .

فبعلبك عبدت الشمس منذ اقدم العصور ، وتمثالها الذي يشبه « اوزيريس » جيء به من مدينة « هليوبوليس » مصر ، ويعتقد « ورد » المار ذكره ان كلمة « بعلبك » تعني مدينة الشمس ، واليونان بتسميتهم اياها « هليوبوليس » فعلوا ما فعلوه غير مرّة ، اي انهم نقلوا اسمها الى لغتهم مترجماً .

واما سكان تلك البلاد فيزعمون ان الجانّ اقاموا هذا الهيكل طوعاً لأوامر الملك سليمان ؛ ويدعون ان الغاية منه اخفاء الكنوز العظيمة التي يعتقدون انها ما زالت موجودة في اسفل البناية . والكثيرون منهم تولوا الى اقبيتها للبحث عما دفن فيها . غير ان اخفاقهم في بحثهم ، وما نالهم من عسف الحكام من جراء ذلك اكرهاهم على الكف عن مواصلة التنقيب .

والاساطير التي يتناقلونها في شأن سليمان الملك ، تحملنا على التفكير في ثلاثة امور مهمّة وهي :

اولاً — معظم ما يرويه النقل عن العصور الخوالي ، لا كبير صحة له . فان الحوادث التي جرت منذ مئة سنة فقط ، ولم تكن قد سُجلت عند وقوعها ، طرأ عليها المسخ والتحريف .

ثانياً — ينسب الاسلام واليهود والنصارى الى الملك سليمان جميع البنايات القديمة العظيمة ، ليس لان النقل يشير الى ذلك ، بل لانهم يرون في تفسيرهم لبعض آيات العهد العتيق ما يحملهم الى مثل هذا الزعم . فالعهدان القديم والجديد هما مصدر النقل باجمعه ، لانهما الكتابان التاريخيان اللذان يعرفها

ويقرأهما جمهور الناس هنالك . وبما ان معظم الذين يفسرونهما اميّون ، فما يشرحونه منهما هو في غالب الاحيان غير مصيب .

ثالثاً — واما يقينهم بوجود كنوز مدفونة فقد ايّدته الوقائع ؛ فانهم عثروا في مدينة الخليل منذ بضع سنين على صندوق مملوء فضة وذهباً ؛ وفي بلاد الدروز اكتشفوا جرة فيها نقود من ذهب . وبما ان الحكام يدّعون ان لهم الحق في امتلاك ما هو مدفون في الارض ، فالذين يسعدهم الحظ بوجود شيء من هذا القبيل ، يكتمون امره ، فلا يعلم به احد ، فيصهرونه او يعيدونه الى مخباه ، لخوفهم من العتاة ، وهو نفس الخوف الذي حدا فيما مضى اصحابه الى اخفائه .

ولسنا نعرف ما هي الحالة التي كانت عليها تلك المدينة في قديم الزمان وانما نعتقد ان وقوعها على الطريق التي ما بين تدمر وصور ، جعل لها حصة لا يستهان بها من تجارة هاتين المدينتين الغنيتين . وكانت تقيم فيها فرقة من الجنود الرومانيين في عصر اغسطوس قيصر ، اذ انه منقوش بحروف يونانية على جدار الباب الجنوبي (Kenturia Prima) اي فرقة المئة الاولى .

وبعد مئة واربعين سنة بنى انطونيوس الهيكل الحالي بدل القديم الذي كان متداعياً . ولما انتشرت الديانة المسيحية في عصر قسطنطين ، أُهمل شأن الهيكل الجديد الذي جعل بعدئذ كنيسة ، بقي منها الجدار الذي يفصل المعبد عن الصنم ، وظلّ على حاله حتى الفتح العربي . وقد اوصدت الكنيسة ابوابها عندما انقطع الناس عن الاختلاف اليها . ولما توالت بعدئذ الحروب ، جُعل المكان حصناً . غير ان الخراب ما عتم ان استولى على الهيكل بعدما ساءت حالته من جراء صروف الزمان وتعاقب الحدثان .

والمدينة نفسها ليست احسن حالاً من الهيكل ؛ فان امراء آل حرفوش

انزلوا بها الاضرار الجسيمة ؛ وزلزال سنة ١٧٥٩ زادها خراباً ؛ والحروب التي دارت رحاها بين الجزار والامير يوسف ، اتت على آخر اثر من عمرانها . وبعد ما كان عدد سكانها في سنة ١٧٥٠ خمسة آلاف ، هبط الى ألفين ومئتين في اواخر القرن الثامن عشر ، جميعهم فقراء ، لا صناعة لهم ، ولا تجارة عندهم ، وزراعتهم مقصورة على شيء من القطن والذرة والبطيخ . وتربة هذه النواحي قليلة الخصب ، كما هي ايضاً تربة الاراضي الممتدة منها الى الشمال او الى الجنوب الشرقي في اتجاه دمشق .



ولاية دمشق

هي الاخيرة من ولايات سورية الاربع؛ فانها تشمل الجانب السوري الشرقي بمعظمه ، وهو الذي يقع في الشمال ما بين معرة النعمان على طريق حلب ، ومدينة الخليل في الجنوب الشرقي لفلسطين ؛ ويتبع خط حدوده غرباً جبال النصيرية ، فلبنان الشرقي ، فالشطر الاعلى لمجرى نهر الاردن ، مكتنفاً نابلس ، وبيت المقدس ، والجليل؛ ثم يمر شرقاً بالبادية متوغلاً فيها بقدر ما تمتد الفلاحة والزراعة في تلك الارجاء ؛ بيد انه في الغالب لا يتجاوز الا يسيراً الجبال المار ذكرها ما عدا جهات تدمر الواقعة على مسافة خمسة ايام منها .

ففي تلك الاراضي الواسعة ليست التربة والمغلات مماثلة ، فسهول حوران والمهد التي على ضفاف نهر العاصي هي الاخصب ؛ فتعطي بكثرة القمح والشعير والذرة والسمسم والقطن . وتربة اراضي دمشق والبقاع الاعلى حصبة ضعيفة تلائم على الاخص التبغ والشجر المثمر . والاراضي الجبلية تصلح جميعها للزيتون والتوت والشجر المثمر والكرمة التي من عنبها الاحمر يصنع النصارى النبيذ ، والمسلمون الزبيب .

ان حقوق صاحب هذه الولاية اوسع واعظم من حقوق غيره من الولاة ؛ وهو ذو سلطة مطلقة ، والملتزم العام ، وامير الحج ؛ والمسلمون يُجلّون كثيراً هذه الرتبة ، والذي تسند اليه ، ويقوم بمهامها خير قيام ، لا يستطيع احد ولو كان السلطان نفسه ، ان يمسه باذى .

والمال الذي يؤديه والي دمشق الى السلطان ، لا يزيد على اربعة وخمسين كيساً . انما عليه ان يقوم بجميع نفقات الحج التي تبلغ ثلاثة ملايين قرش ،

وهي ما ينفقه على شرآء القمح والشعير والارز المعدّ لتموين « الجردة » وعلى اكترآء الجمال لنقل الجنود الذين يرافقون قفل الحجاج . وعليه ايضاً ان ينفح بمال عشائر البدو التي يمرّ القفل بصقعها . ويعتاض مما ينفقه على هذا المنوال ، بالميري او ضريبة الارض التي يجبيها هو نفسه ، او يعهد في جبايتها الى ملتزمين ينتخبهم . واما المكوس فلا شأن له بها ، والناظر في امرها الدفتردار الذي يدفع منها رواتب الانكشارية وحراس الحصون القائمة على طريق مكة .

ويرث الوالي الحجاجَ الذين يقضون نحبهم في اثنآء السفر . ودخله من ذلك لا يستهان به ، وقد اتضح ان الذين يموتون في الطريق هم عادة اغنى الحجاج . ويحق له علاوة على ذلك ان يقرض التجار والفلاحين المال بالربآ ، وفي وسعه ايضاً ان يفرض على رعاياه من المغارم ما يشآء .

والجنود الذين تحت يده الفان ، او الفان وثلاثمئة ، من انكشارية ومغاربة ، ودلي باش او فرسان ؛ فهؤلاء الجنود الذين كانوا يعدونهم في سورية جيشاً كبيراً ، يفتقر اليهم الوالي ليس فقط لحراسة قوافل الحجاج ، ومعاقبة البدو المعتدين على المسافرين وغيرهم ، بل ايضاً لجباية الميري ، واجبار الرعية على الطاعة والاستكانة .

فكل سنة قبل قيام موكب الحج بثلاثة اشهر ، يطوف بصحبة جنوده في انحآء ولايته الواسعة لجمع الضرائب من المدن والقرى . وطوافه قلما ينتهي بسلام ؛ لان الشعب الجاهل يثيره اما زعمآء عصاة ، واما الوالي نفسه بعسفه وظلمه ؛ فينتقض ويتمرد ولا يُجبى المال منه الّا عنوة . وسكان نابلس ، وبيت لحم ، والخليل ، لهم من هذا القبيل شهرة اكسبتهم اعفاءات خاصة . غير ان الدولة تأخذ منهم العوض اضعافاً عندما تسنح لها الفرص .

ان ولاية دمشق معرّضة اكثر من غيرها لغارات البدو ، لكنها من حيث العمران احسن حالاً من باقي الولايات ، اذ الباب العالي لا يعزل ولاتها بتواتر .
وفي القرن الثامن عشر تقلد زمامها مدة خمسين سنة اسرة العظم الدمشقية الغنية التي اربعة من افرادها ، اي أب وثلاثة اخوة ، تعاقبوا في تولي الحكم عليها ؛ واخرهم اسعد باشا الذي مرّ ذكره في اثنآء حديثنا عن الشيخ ظاهر العمر ، ظلّ والياً عليها خمس عشرة سنة ، قام في غضونها باعمال طيبة لا تعدّ ولا تحدّ . ومن اعماله الجديرة بكل ثنآء وضعه نظاماً للجنود ، ردعهم به عن التعدي على الفلاحين ونهب اموالهم .

ان جمع المال كان يستغويه على غرار سائر ارباب المناصب في الشرق ، لكنه لم يكن يدعه في خزائنه ، بل كان يقرضه بفائدة قدرها ستة في المئة وهي لعمري فائدة معتدلة . ويروون عنه انه احتاج ذات يوم الى بعض المال ؛ فالمتزلفون أشاروا عليه بفرض غرامة على النصارى بحجة انهم قوم لئام لا يستحقون الشفقة او المراعاة . فسألهم : ما هو المبلغ الذي يمكن جمعه من هؤلآء الناس . قالوا : خمسون او ستون كيساً . قال : لكنهم ليسوا باغنيآء فيتعذر عليهم دفع مثل هذا المال . قالوا : ليبيعنَّ حُلى نسائهم . قال سأنظر في الامر ، لعلي اكون اوفر حيلة منكم .

ففي اليوم ذاته اومز الى رجل عالي المقام أن قابلني سراً في هذا المسآء . فلما جاءه قال له : علمت ان سلوكك في السرّ لا يحمد ؛ فانت وزميل لك تشربان المسكر ، وترتكبان المنكر ، مخالفين ما انزله الله في كتابه الكريم . فتلك امور لا استطيع الاغضآء عليها ، وقد اضطرّ الى تبليغها لمفتي الاستانة ؛ لكني قبل اقدامي على ذلك رغبت في انذارك ، لئلا تتهمني باني اخذتك غــدراً .

فلما سمع الرجل ذلك ، اعتراه خوف شديد ؛ فجعل يتضرع الى الباشا ليكتم الامر ، ويغض الطرف ؛ وعرض عليه الف قرش . غير ان الباشا لم يرضَ بها . فزاد الرجل المبلغ مثنى وثلاث ، وانتهى الامر باتفاقهما على ستة آلاف قرش وعلى ابقائهما في طيّ الكتمان ما دار بينهما من الحديث .

وفي الغد دعا الباشا منصباً كبيراً آخر ، وحادثه كما حادث زميله من قبل متهماً اياه تهماً باهظة توجب ضرب عنقه ؛ فخاف الرجل وسأله بالحاح ان يرفق بحاله ؛ وساومه كما ساومه زميله ؛ فاتفقا على مبلغ مماثل للاول . وهكذا غادره الرجل وهو مغتبط لنجاته من الهلاك .

وجرى الامر عينه مع رجل ثالث عالي المقام ، ومع آغا الانكشارية والمحاسب ، وبعض كبار التجار ؛ فكان يذكر لهم اموراً وذنوباً ارتكبوها في اثناء قيامهم بمهام مناصبهم ، او بتعاطي تجارتهم . فكانوا يبادرون الى استنقاذ نفوسهم على منوال من سبقهم .

فلما اجتمع لديه مبلغ كبير ، قال لاولئك المترافين : هل سمعتم في دمشق ان اسعد باشا يأخذ المال من الشعب قسراً ؛ قالوا : لا ؛ قال : كيف اذاً توصلت الى جمع مئتي كيس . فبهتوا ولم يحيروا جواباً . ولما سألوه كيف تسنى له الحصول على مثل هذا المال ، اجابهم : « جززت النعاج ولم انحر الحملان » .

وبعد حكم دام خمس عشرة سنة ، حُرمت دمشق هذا الرجل على اثر مؤامرة يروون حكايتها كما يلي :

في السنة ١٧٥٥ نزل ضيفاً على اسعد باشا زنجي من خصيان بلاط السلطان ؛ وهو في طريقه الى مكة . غير انه لم يسرَّ بالمقابلة التي لقيها . فلدى عودته من الاقطار الحجازية ، لم يعرّج على دمشق ، بل رجع من طريق غزة ؛ فحسين باشا الذي كان عاملاً عليها ، استقبله احسن استقبال .

وبعد ما وصل الخصيّ الى الاستانة ، تذكر صنيع مضيفه ، ولكي يظهر ما يكنه من الحقد على اسعد باشا ، ومن عرفان الجميل لحسين باشا ، سعى في الحاق الاذى بالاول ، واحلال الثاني محله . فنجح في سعيه وتوصل الى حمل اولياء الشأن في الاستانة ، على فصل القدس عن ولاية دمشق وضمها الى الولاية العامل عليها حسين باشا . وبعد ذلك بسنة اسندت ولاية دمشق ذاتها الى حسين باشا .

فلما نُحّي اسعد باشا عن منصبه انسحب الى البادية مع اهل بيته ، خوفاً من ان تنزل به نقمة اكبر . ثم جاء اوان الحج ؛ فحسين باشا سار في قافلة الحجاج الى مكة . ولما قفل راجعاً ، نشب نزاع بينه وبين البدو على مال طالبوه به . فهجمت عليه جموعهم وكسروا جنوده ، ونهبوا القفل باسره وكان ذلك في سنة ١٧٥٧ .

فتلك الفاجعة كان لها صدى اليم في جميع انحاء البلاد العثمانية ، وتأثير مؤلم كالذي تحدثه الهزيمة بعد حرب ضروس . فذوو العشرين الفاً من الحجاج الذين هلكوا قتلاً او جوعاً او عطشاً ، واقرباء النساء العديدات اللاءي سُبين ، والتجار الذين نهبت اموالهم ، هؤلاء جميعهم طلبوا معاقبة امير الحج على جبنه والانتقام من البدو على اعتدائهم ذاك الفظيع .

فقلق الباب العالي مما حدث ، وحكم على حسين باشا بضرب عنقه ؛ لكن حُسيناً توارى عن الانظار ، ولم يتوصلوا الى معرفة مخبأه . ومع ذلك ظلّ ظهيره وصديقه الزنجي يسعى لتبرئته ؛ فنجح في مسعاه بعد ثلاثة اشهر ، مبرزاً رسالة نسبها الى اسعد باشا . فالحكم بالموت صدر آنئذٍ على اسعد باشا ، بدلاً من حسين باشا ، وجعل اولياء الامر يترقبون الفرصة لتنفيذ الحكم .

واما ولاية دمشق فبقيت ردحاً بلا والٍ ؛ وحسين الذي مقته الشعب ، لم

يستطع العود اليها . والباب العالي الذي كان يرغب في محو العار الذي لحق به ، وتأمين طريق الحج ، عمل على دمشق رجلاً غريب الاطوار ، له حكاية يجدر بنا ذكرها . فهذا الرجل الذي يدعى عبدالله باشا الشتجي ، وُلد في جوار بغداد من ابوين فقيرين . فمال منذ نعومة اظفاره الى خدمة الحكام ، وقضى سني شبابه الاولى في المعسكرات والحروب ، خائضاً جميع المعارك التي دارت رحاها بين الترك والفرس . ونظراً الى مهارته وبسالته ، ارتقى من رتبة الى رتبة اعلى منها ، الى ان اسندت اليه ولاية بغداد . فقام باعباء منصبه الخطير خير قيام ؛ فاستتبَّ الامن وسادت الطمأنينة . فالحياة العسكرية التي اعتادها جعلته في غنى عن النفقات الكبيرة . لاجل ذلك لم ينزع الى جمع المال .

غير ان اوليآء الامر في الاستانة لم يرقهم اعتداله هذا ، بل استاءوا منه ، واخذوا يتحينون الفرص لخلعه . فاتفق ذات يوم ان دخلت الخزينة اربعون الف قرش من تركة بعض التجار . ولما طالبوه بها ، اجابهم انه انفقها على رواتب الجيش المتأخرة ، ورغب اليهم في امهاله . لكن الصدر الاعظم الحَّ عليه في تأدية المال في الحال ؛ واوفد اليه مندوباً زنجياً ومعه خط شريف بضرب عنقه .

ولما وصل المندوب الى جوار مدينة بغداد ، تمارض وتظاهر بانه جآء انتجاعاً للصحة . ورغب الى عبدالله باشا بان يسمح له بزيارته والسلام عليه . فعبدالله باشا الذي كان مُلمّاً باساليب الباب العالي ، ساوره الشك ، وامين خزينته الذي كان هو ايضاً خبيراً بتلك الاساليب ، ارتاب هو ايضاً من مظاهر المجاملة التي ابداها الخصيّ ، فاقترح ان يبحث في امتعته بينما يكون هو ورفقاؤه في حضرة الباشا . فوافقه عبدالله باشا على ذلك .

ففي الميعاد المضروب مضى امين الخزنة الى خيمة الخصيّ ، وبعد التفتيش والبحث الدقيق عثر على الخط الشريف في بطانة فروٍ ؛ فانطلق من ساعته الى عبدالله باشا ، ودفع اليه الرقيم السلطاني . فوضع عبدالله باشا الرقيم في ردنه ، وعاد الى الغرفة حيث كان الخصيّ ، واستأنف محادثته بكل هدوء قائلاً : كلما افكر في مجيئك الى بغداد ازداد دهشة فمدينتنا بعيدة عن الاستانة ، وليست بعادية ، لذلك ارتاب في كونك جئتها طلباً للصحة . فاجابه الآغا : نعم ، وقد عهد الي في ان اطلب منك في الوقت ذاته ان تدفع اليَّ شيئاً من الاربعين الف قرش ، فقال الباشا لا بأس في ذلك . ولكن قل ايضاً انك جئت لضرب عنقي . وقد علمت انت مما يذاع عني اني رجل صادق لا يحنث بوعده ؛ فان صدقتني القول اطلقت سبيلك من غير ان ينالك ضرّ .

فجعل عندئذٍ الخصيّ يدافع عن نفسه بحديث طويل ، ويؤكد انه لم يضمر له شرًا . فقال له عبدالله باشا : اقسم لي برأسي انك تقول الحقيقة ، فظل الخصي يبرىء نفسه من كل نية سيئة . فقال الباشا : احلف لي برأسك . لكن الرجل اصرّ على الانكار . فقال له عبدالله باشا : استحلفك برأس السلطان ، فحذار من الكذب .

فلما رأى ان الخصي لم يحد قيد شعرة عن اقواله السابقة ، قال : لقد حكمت انت على نفسك بالموت . ثم اخرج من ردنه الخط الشريف ، وقال : اتعرف ما في هذا الكاغد . اهكذا انتم تديرون دفة الحكم هنالك ؛ فلستم سوى عصابة لصوص ، فلا تحسبون حساباً لحياة الذين لا يحظون برضاكم متآزرين على سفك دم خدم مولانا السلطان . ان الصدر الاعظم يروم ان يرى هامات مفصولة ، فسيكون له ما يروم ، خذوا هذا الكلب ، واقطعوا رأسه ، وابعثوا به الى الاستانة .

ففي الحال اطاعوا امره . ورفقاء الآغا اطلق سبيلهم ؛ فعادوا ادراجهم ومعهم رأس الزنجي .

وكان في وسع عبدالله باشا ان يستفيد من حب الشعب له ، ويتمرد على الدولة . لكنه فضّل مغادرة بغداد ، والاقامة بين عشائر الاكراد . ثم جاءه عفو السلطان وهو هنالك ، والبراءة بتوليته على دمشق . وكان في منفاه قد اصابه الضجر واعتراه الملل ، كما ان المال كان قد فرغ من يده ؛ فرضي بالمنصب وسافر برفقة مئة من اتباعه .

ولدى وصوله الى تخوم ولاية دمشق ، علم ان اسعد باشا ضرب خيامه في مكان قريب . وكان يعرف ما له من الشهرة ، وانه اعظم رجل انجبته سورية . فرغب في ان يراه ؛ لاجل ذلك تنكّر ، واصطحب ستة فرسان ، وقصد مخيمه ، وطلب مقابلته ؛ فادخلوه عليه بلا تكليف ، عملاً بالعادة المألوفة في مضارب البادية . وبعد السلام وعبارات الترحيب ، قال له اسعد باشا : من اين اقبلتم واين تريدون ، اجابه عبدالله باشا : نحن ستة او سبعة فرسان اكراد نطلب عملاً . وقد سمعنا ان عبدالله الشتجي جاء دمشق فعزمنا ان نطرق بابه . وبما اننا علمنا ونحن في الطريق ، بان مضاربكم قريبة ، فجئنا نطلب علفاً لخيلنا . فقال اسعد باشا : نعطيكم بطيبة خاطر ما تطلبون ؛ ولكن اتعرفون انتم الشتجي . اجابه عبدالله باشا : نعم ، فقال اسعد باشا كيف هو الرجل ، ايحب المال . اجاب عبدالله باشا : هو غريب الاطوار ؛ فلا المال يهمه ، ولا الغزو ، ولا اللآلئ ، ولا النساء . فهو لا يحب الا السلاح الطيب ، والجياد الكريمة ، والحرب الضروس ؛ ويحب العدل ، ويحمي الارملة واليتيم ، ويقرأ الكتاب الكريم ، ويعيش على السمن واللبن . فسأله اسعد باشا هل هو طاعن في السن . اجابه : اقلّ مما يبدو عليه ، اذ الشقاء

صيره شيخاً قبل الاوان . وقد جُرح مراراً عديدة ، وعلى اثر ضربة سيف ، غدا يعرج من رجله اليسرى ، وضربة اخرى جعلت عنقه تميل الى كتفه اليمنى . قال عبدالله باشا ذلك ، وانتصب فجأة وقال : أليس هذا الوصف طبق صورتي من رأسي الى اخمص قدميّ .

فلما سمع اسعد باشا هذا الكلام امتقع من شدة خوفه ، ظاناً ان ساعة هلاكه قد ازفت . غير ان عبدالله باشا جلس وقال : ليطمئن بالك ، يا اخي ، اني لست برسول جاءك من كهف هؤلاء اللصوص . وما اتيت لاخونك ، فثق بي ، واذا استطعت ان اخدمك ، فاني لا اتوانى مطلقاً . فكلانا صنوان في نظر سادتنا ، فقد رضوا عني واعادوني اليهم ، لانهم يريدون الاقتصاص من البدو ، فاذا ما تمّ لهم ما يريدون ، استأنفوا التفكير في قتلي . لكن الله كبير فيفعل ما يشاء .

فذهب عبدالله باشا الى دمشق ، واعاد الى السكان الراحة والطمأنينة ، وردع العسكر عن التعدي عليهم ، وسار في مقدمة الحج ، والسيف في يده ولم يؤدِّ فلساً واحداً الى البدو . وفي اثناء حكمه الذي دام سنتين كان الهدوء ناشراً لواءه على البلاد . « فكان الناس ينامون وابوابهم مفتوحة » هكذا يقول الدمشقيون حتى اليوم . وهو نفسه كان يتنكر متخذاً هيئة شحاذ ويعاين كل شيء بنفسه ، والاحكام التي كان يصدرها وهو متنكر كان لها المفعول الحسن . ويروون على سبيل المثال انه وصل الى القدس في طوافه ؛ فحذّر رجاله من اغتصاب شيء من السكان . وقد حدث ذات يوم اذ كان يجول متخذاً شكل فقير وفي يده صحن عدس ، ان جندياً معه حزمة حطب ، قابله واجبره على حملها عنه ؛ فوضعها عبدالله باشا على ظهره ، وسار بها امام « الدلي باش » الذي كان يستعجله ، وهو يسب ويشتم . ولكن سرعان ما

عرفه احد الجنود، وهمس الى زميله بالامر؛ فما كان من صاحب حزمة الحطب الّا ان لاذ بالفرار، متغلغلاً في الازقة. ولما خطا الباشا بضع خطوات، ولم يعد يسمع صوت الجندي، التفت، فلم يره. فاستاء من انه خلص من يده. فالقى الحمل الى الارض، وقال: ياله من لص لئيم. فقد فرّ اخذاً معه صحني واجرتي. غير ان امر الجندي لم يطل، لان عبدالله باشا فاجأه بعد ايام قلائل اذ كان يسرق بعض البقول من بستان امرأة فقيرة، ويسيء معاملتها فضرب عنقه للحال.

واما هو فبعد نجاته غير مرة من قتلة كانوا يتربصون به، مات مسموماً بيد ابن اخيه. وقبل موته عرف من هو سامّه، فدعاه اليه وقال له: يالك من شقي، لقد غرّك الاشرار، فدسست لي السمّ، لتستولي على ما اتركه من بعدي. ففي وسعي قبل موتي ان اخيّب املك، واعاقبك على معتك، غير اني اعرف الاتراك؛ فهم سيأخذون ثأري منك.

فكان الامر كما قال، لان بعد موته ارسل الباب العالي مندوباً معه خط شريف بخنق ابن الاخ، فخنق.

وبعد عبدالله باشا آل الحكم الى شاليك، فعثمان، فمحمد، فدرويش ابن عثمان الذي تقلد الحكم في سنة ١٧٨٤. فدرويش هذا لم يكن له شيء من مناقب ابيه، ولم يرث منه سوى الميل الى الاستبداد. فهاك حادثاً جديراً بالذكر:

في شهر تشرين الثاني سنة ١٧٨٤ طُلب من قرية واقعة على مقربة من دمشق ان تدفع ضريبة الميري؛ فمشايخ القرية ابرزوا الوثائق الدالة على ان القرويين دفعوا جميع المال المستحق عليهم؛ لذلك رفضوا دفعها ثانية؛ فما كان من بعض الجنود الّا انهم اكتسحوا القرية ليلاً، وقتلوا واحداً وثلاثين رجلاً

من سكانها . فاستولى الذعر على القرويين المساكين فاخذوا هامات قتلاهم وجاءوا بها الى الوالي في دمشق ، وطلبوا منه انصافهم ، فاصغى درويش باشا الى شكواهم ، ثم اشار عليهم بترك الهامات في الكنيسة الى ان يقوم بالبحث اللازم ، فمرت ثلاثة ايام ، وفسدت الهامات ، ولما ارادوا دفنها لم يستطيعوا نقلها من مكانها بدون اذن الباشا الذي لم يسمح بدفنها الا بعد اخذه منهم اربعين كيساً .

وفي السنة التي بعدها عُزل درويش باشا وحلّ محله احمد الجزار بعامل المال الوافر الذي بعث به الى اولياء الشأن في الاستانة . وقيل آنئذٍ انه ابتغى السيطرة على ولاية حلب ايضاً . فلو نال ما صبا اليه ، لأضحى سيد سورية باجمعها ، واستطاع ان يشق عصا الطاعة ويتصرف في الحكم تصرف المستقلّ بامره .

بيد ان الدولة كانت مرتاحة البال من هذا القبيل ، ولو ان المشاكل التي كانت قائمة بينها وبين روسية ، شغلتها آنئذٍ عن الاهتمام بشؤون بلادها ، وتصرف عمالها فان خبرة واسعة علمتها ان لابدّ للعصاة المتمردين من الوقوع ذات يوم في يدها مهما قويت شوكتهم وازدادت سطوتهم .

والجزار ايضاً مع ما كان عليه من دهاء وقوة عزيمة ، عرف حق المعرفة انه يعجز عن الشذوذ عن تلك القاعدة ؛ فلم يخطر قط على باله ان ينتقض على الدولة ، بل اتبع الخطة التي سار عليها اسلافه ؛ فلم يهتمّ بالمصلحة العامة الا بقدر ما كانت تعود عليه بالمنفعة . فالمسجد الذي اقامه في عكا لم يقدم على بنائه ، وينفق في سبيله مليوناً ومئتي الف قرش الّا لانه كان يحب الظهور ، ويميل الى المباهاة . والسوق التي شيدها لا تنكر فائدتها ، غير انه كان يجب عليه قبل التفكير في احداث مكان تباع فيه الغلة ، ان يهتم بالارض التي

تعطيها ، فالزراعة على بعد غلوة من عكا كانت معدومة .

وكان ينفق اعظم جانب من ماله على حدائقه وحماماته ونسائه البيض اللاءي كان عددهن ثماني عشرة في السنة ١٧٨٤ ، وجميعهن يفرطن في التبذير والاسراف على تبرجهن .

وبعد طعنه في السن ، ودخول السآمة على نفسه ، اخذ جمع المال يستغويه ؛ فكان من جرآء بخله ان نفر منه جنوده ، ومن جرآء شراسته ان كثر اعداؤه حتى غدا بيته ذاته لا يخلو منهم ؛ فقد حاول اثنان من غلمانه اغتياله ، لكنه نجا من نار غدارتيهما . ولم يجنِ من ادخاره المال سوى اثارة طمع الباب العالي فيه ، ومقت الشعب له .

ولنتحدث الآن عن الاماكن الجديرة بالذكر التي في هذه الولاية ؛ فان اول مدينة تسترعي الانتباه دمشق نفسها ، قاعدة الولاية ، ومقرّ الولاة ، والعرب يدعونها الشام ؛ واما الاسم القديم « دمشق » فلم يكن يعرفه سوى اصحاب تقاويم البلدان .

تقع هذه المدينة في سهل مترامي الانحاء ؛ وهي مفتوحة على البادية من الشرق والجنوب ، ومحصورة شمالاً وغرباً بالجبال العالية حيث تتفجر الينابيع ، وتتدفق الجداول التي تجعل جنائنها وغوطتها اخصب الاراضي السورية ، واوفرها رياً واروعها منظراً ؛ والعرب لا يذكرون دمشق الّا بالثناء والاطراء معجبين بمناظر بساتينها ، واخضرار حدائقها ، ووفرة ثمارها ، وكثرة غدرانها ، وصفاء مياهها .

غير ان التربة فيها حصبة ضعيفة حمرآء لا تصلح لزراعة الحبوب ، بل تلائم كثيراً اشجاراً تعطي الذّ الاثمار .

وما من مدينة تضاهيها من حيث غزارة مياهها ، وكثرة فساقيها فكل

بيت له فستقية ، وجميعها تتغذى من ثلاثة غدران ، او بالاحرى من ثلاثة فروع لنهر واحد يروي الجنائن والبساتين المنبسطة على ضفتيه بطول ثلاثة فراسخ ، ثم يتجمع في ارض منخفضة واقعة في وسط البرية فيكوّن مستنقعاً واسعاً يدعونه بحيرة المرج .

وتعد دمشق من حيث موقعها اجمل مدائن تركية قاطبة ؛ لكن هواءها ليس في غاية النقاوة . والدمشقيون معرّضون للانقباض ؛ وبياض بشرتهم ليس الدليل على جودة الصحة ؛ وافراطهم في أكل الفواكه ، ولا سيا المشمش ، تنجم عنه في فصلي الصيف والخريف الزحار والحمايات .

وشكل المدينة مستطيل ؛ « ونييهر » الذي صوّر مخططها في القرن الثامن عشر ، قدّر اتساعها بتسعة عشر الفاً وخمسمئة قدم مربّعة ، باعتبار ان طول دائرها فرسخ ونصف الفرسخ . فكان عدد سكانها ثمانين الفاً ، خمسة عشر الفاً منهم نصارى ، ثلثهم ارثوذكسيون .

والدمشقيون يعتقدون ان مدينتهم مقدسة ، لكونها باب الكعبة ففيها يجتمع الحجّاج القادمون من مختلف الانحاء الشرقية ، كما يجتمع في القاهرة حجاج افريقة . فيتوافد عليها كل سنة جمهور غفير ، يصل بعضهم اليها قبل الاوان بنحو خمسة اشهر . واما السواد الاعظم فيأتيها في اواخر شهر رمضان . فتشبه دمشق حينئذٍ بندراً او سوقاً عظيمة ، لا يُرى فيها سوى غرباء جاءوها من سائر اطراف البلاد التركية وفارس ؛ فتزدحم فيها الابل والخيل والبغال ، وتكتظ خاناتها ومخازنها بشتى انواع البضائع .

وبعد استعدادات وتأهبات تدوم بضعة ايام ، تبادر تلك الجماهير الى السفر بلا ترتيب ولا نظام ، متبعة طرف البادية ، فتصل الى مكة بعد اربعين يوماً ، اي في عيد الاضحى . وبما انها تمرّ باراضي بعض القبائل ، فتدعو الحاجة الى

الاتفاق معهم باعطائهم مالاً واستخدامهم كأدلآء .

وقد يقع في غالب الاحيان اختلاف بين مشايخهم ، فينتهز امير الحج الفرصة للاستفادة من نزاعهم ، فيبادر الى مساومتهم . ومن المعتاد ان تُفضَّل على غيرها القبائل الضاربة بطول بلاد حوران ، فيبعث الباشا الى زعيمها بسلاح وخلعة وخيمة ، وينبئه بانه جعله رئيس الادلآء . ويعني بذلك انه عهد اليه في اعداد ما يحتاج اليه القفل من إبل بأجر معين من غير ان يضمن له اي تعويض كان عن الخسائر التي تلحق به ، لانه يموت عادة عشرة آلاف بعير في الموسم الواحد .

والحج فرصة فريدة لمعاطاة تجارة جزيلة الارباح ؛ فان فريقاً كبيراً من الحجاج يغادرون بلادهم ومعهم بضائع يبيعونها في اثنآء السفر ، والمال الذي يجنونه منها يضمّونه الى المال الذي يجلبونه معهم ، فيشترون بهما في مكة ، الشاش والاقمشة الهندية المنسوجة في البنغال والملبار وشال كشمير ، وعود الصين وندّها ، وماس الغلقند ، ولآلي البحرين ، والتوابل ، والاباريز والبن اليمني .

وقد يتفق احياناً ان يخيّب البدو الآمال ، لنهبهم اموال المتباطئين في السير ، وغزوهم المنفصلين عن القفل . ومع ذلك يصل الحجاج الى بلادهم سالمين ؛ فيحيطهم مواطنهم بمظاهر الاكرام والاحترام ؛ فيصفون للذين يأتون للسلام عليهم ، عجائب الكعبة ، وجبل عرفات ، وجموع الحجاج ، وكثرة الذبائح المنحورة يوم العيد ، والمشقات التي كابدوها ، وهيئات البدو الغريبة ، والبادية التي لا مآء فيها ، وضريح النبي في المدينة . فوصفهم هذا يثير اعجاب السامعين وحميتهم .

ودمشق التي هي محور تجارة واسعة النطاق ، تتصل عن طريق حلب

بارمينية ، وبلاد الاناضول ، وديار بكر ، وبلاد فارس ، وتوفد القوافل الى القاهرة عن طريق جسر بنات يعقوب ، وطبرية ، ونابلس ، وغزة ؛ وتستورد البضائع من الاستانة واوربة عن طريق بيروت ؛ وتصدر منها ايضاً الاقمشة الحريرية والقطنية التي اشتهرت بنسيجها ، والفواكه المجففة ، ومربب الورد والمشمش ، وغير ذلك من الحلاوي التي تتقن صنعها . وتشتري تركية من هذه الاقمشة والمربيات ما تساوي قيمته اربعمئة الف قرش . وتجارة كهذه تجلب على دمشق مالاً وافراً ، ويرجع عهدها في سورية الى اقدم العصور . وقد اتبعت طرقاً متعددة واتخذت اساليب متنوعة ، على حسب تعدد الامكنة ، وتقلب الاحوال ؛ وكان ينجم عنها غنى ورفاهة دامت آثارهما حتى بعد زوالهما ؛ وولاية دمشق تعطينا من هذا القبيل شاهداً خليقاً بكل اعتبار ، الا وهو تدمر التي ذاعت شهرتها في الحقبة الثالثة لروما ، من جراء الدور المجيد الذي قامت به في غضون النزاع الذي نشب ما بين النباطيين (Parthes) والرومانيين ، سواء كان في ايام اذينة والزباء او بعد سقوطها وخرابها في عصر أرليانوس قيصر ، مخلدة في بطون التاريخ ذكرى مجيدة رائعة .

وبما ان معالم عظمتها لم تعرف بالضبط ، فلم يكن من السهل تكوين فكرة صحيحة عنها . حتى في اوربة عينها لم يكن يخطر على بال احد وجود آثار لها ، الى ان سمع في اواسط القرن السابع عشر بعض التجار الانكليز المقيمين بحلب ، ان في الصحراء خرائب عظيمة ؛ فوطنوا النفس على كشف القناع عن حقيقة امرها . لكنهم اخفقوا في محاولة اولى اقدموا عليها في سنة ١٦٧٨ ، لان البدو اطبقوا عليهم ، وهم في الطريق ، وجردوهم مما كان في حيازتهم . فاضطروا ان يعودوا ادراجهم من غير ان يفوزوا بطائل .

فاعادوا الكرة في سنة ١٦٩١ ، وتوصلوا بعد الجهد الكثير الى العثور

على الآثار التي ذهبوا للبحث عنها . فما نشروه آنئذٍ في المجلات العلمية ابى الكثيرون تصديقه لاعتقادهم انه ليس من المعقول ان تقوم في بقعة بعيدة عن الاماكن المأهولة مدينة كالتي مثّلها وصفهم وتصويرهم .

ولكن منذ ما نشر « داوكنس » الانكليزي [1] في سنة ١٧٥٣ الرسم الكامل الذي نقله هو نفسه عن تلك الآثار والاطلال في السنة ١٧٥١ لم يبقَ للشك اي مجال ما . فاجمعوا عندئذٍ على القول ان الاقدمين لم يتركوا شيئاً سوآء كان في بلاد اليونان او ايتالية يضاهي بجماله آثار تدمر .

فهاك ملخص ما رواه « روبرت وود » زميل « داوكنس » ومدوّن وقائع رحلتهما قال :

« لما علمنا ونحن في دمشق ان تدمر تقع في المنطقة التي يسيطر عليها آغا يقيم في قرية الحسية الواقعة في الصحرآء على الطريق التي ما بين دمشق وحلب ، قصدنا اليه ؛ وقد استغرقت رحلتنا اربعة ايام ؛ فاستقبلنا الآغا احسن استقبال ، وانزلنا ضيوفاً عليه بذلك الكرم الذي اشتهر به اهل تلك البلاد ، اغنيآء كانوا او فقرآء . وما ان علم بقصدنا حتى دهش من فضولنا ، لكنه ادلى الينا بما كنا في حاجة الى معرفته لبلوغ هدفنا .

« اننا برحنا الحسية في ١١ اذار سنة ١٧٥١ وبصحبتنا حرس من احسن فرسان الآغا مسلحون ببنادق ورماح طوال ؛ فوصلنا الى قرية صدود بعد مسير اربع ساعات في سهل قاحل ، ينبت فيه عشب لا تقوى على رعيه حتى الغزلان التي لقينا اسرابها هنالك وهذه القرية حقيرة فقيرة ، بيوتها مبنية باللبن وسكانها موارنة ، يزرعون في الاراضي التي حولها ما يقتاتون به ، ويعملون خمراً حمرآء جيدة .

(١) راجع الحاشية صفحة ٦١ .

« وفي المساء استأنفنا السير ، فبلغنا القرية التركية حوارين بعد ثلاث ساعات ، فقضينا ليلتنا فيها ؛ وهي ليست احسن حالاً من سدود . وقد شهدنا في جوارها قرية مهجورة ، وهو امر كثيراً ما يحدث في تلك البلاد حيث ينزح السكان من اراضيهم ، ان لم تأتهم بغلّة توازي جهودهم .

« غادرنا حوارين في ١٢ اذار ، فوصلنا الى القريتين بعد ثلاث ساعات سرنا في اثنائها شرقاً بجنوب . وهذه القرية تماثل القرى التي عرجنا عليها ولو انها اكبر منها . وقد عزمنا ان نقضي فيها باقي يومنا لنتأهب للشطر الاخير من رحلتنا الذي يستغرق اربعاً وعشرين ساعة اخرى يجب قطعها في مرحلة واحدة اذ الطريق لا ماء فيها .

« فقمنا اذاً من قريتين في اليوم ١٣ اذار ، وكنا حينئذٍ نحو مئتي نفس ، ومعنا ما يقارب ذات العدد من حمير وبغال وجمال ، فكان لموكبنا شكل غريب واما اتجاهنا ههنا فانه كان شمالاً بشرق ؛ فاجتزنا بصحراء رملية عرضها ثلاثة فراسخ ونصف الفرسخ لا ماء فيها ولا نبات ، يحدق بها يمنة ويسرة جبال قاحلة بدت لنا عن بعد كانها تتلاقى على مسافة ثلثي الفرسخ من تدمر .

« وعند ظهر اليوم ١٤ وصلنا الى المكان الذي خيل الينا ان فيه تتلاقى تلك الجبال ، واذا بواد يفصل بينها ؛ فرأينا فيها آثار قناة كان الماء يسيل منها الى تدمر . ثم شهدنا يميناً ويساراً ابراجاً مربعة الشكل عالية . ولكن ما ان دنونا منها حتى اتضح لنا انها قبور التدمريين . وبعد ما اجتزنا تلك الآثار الجليلة ، بدت لنا فجأة من فرجة الجبال التي على الجانبين ، خرائب عديدة ، لم نكن رأينا مثلها قط ، تمتد وراءها حتى نهر الفرات صحراء جدباء .

« فرأينا اغرب ما يمكن تصوره ، اي عدداً كبيراً من الاعمدة الكرنثية ،

وبجوارها جدار وابنية »[1] .

وفي وسط تلك الاعمدة العظيمة ذات الاطناف المزدانة باجمل ما توصل الفن الى ايجاده من نقش وحفر . وفي وسط الجدر المتينة والاقواس البديعة التي ما زالت منتصبة بمنتهى الروعة والجلال ، يصادف المرء اكواخاً حقيرة قذرة تقيم فيها أسر بدوية بائسة ، فقرها مدقع ، لا تملك من حطام الدنيا الّا بعض المعز والنعاج .

وكانت تدمر قبل المسيح المكان الذي ترد اليه بضائع الهند عن طريق الخليج الفارسي ، فتبعث بها الى فينيقة واسية الصغرى من طريق الفرات والصحرآء .

ومما كان يحمل على السكن في تدمر عينان ينبجس منهما مآء عذب في تلك الفيافي . فوقعها هذا جعل سليمان يقدم على فتحها . وقال يوسيفوس المؤرّخ اليهودي الذي عاش في القرن الاول بعد المسيح : وبنى (سليمان) فيها اسواراً متينة ليضمن امتلاكها ودعاها تدمر اي بلاد النخيل .

واذا ما غادرنا تلك الخرائب العظيمة ، وعدنا الى الاماكن الآهلة وجدنا مدينة حمص الواقعة على الضفة الشرقية لنهر العاصي ، والتي كانت كثيرة السكان في سالف الزمان . واما الآن فهي بلدة خربة يقطن فيها نحو الفي نسمة بعضهم روم والبعض الآخر مسلمون . وكان متولياً عليها آغا قد التزمها من والي دمشق ، ويشمل التزامه جميع الاراضي الممتدة حتى تدمر ، وهي التي

---

(١) وهنا يشرح فولني اصل تلك المباني مستعيناً برسم طويل جميل ضمّه الى كتابه مثّلت فيه تلك الاطلال الرائعة ، احسن تمثيل ، مما يجعل شرحه سهلاً لذيذاً ؛ فيعود القارىء بالفكر الى تلك العصور اذ استطاعت امرأة مقدامة ان تشيد في الصحرآء مدينة على ذلك النمط جاعلتها قاعدة ملك استولت على عرشه بدهائها .

مع حماة ومعرة النعمان ، اقطعها السلطان والي دمشق باربعمئة كيس .

وعلى مسير يومين من حمص تجد حماة الشهيرة بنواعيرها التي هي اكبر النواعير المعروفة ؛ فدائرة عجلاتها مؤلفة من قواديس مركبة بنمط يجعلها تدور على نفسها وهي ممتلئة ماء . واذا ما وصلت الى قمتها انحدر منها الماء الى حوض متصل بأقنية ، فيسيل فيها الى الحمامات الخصوصية والعمومية .

وتقع حماة في وادٍ ضيق على ضفتي نهر العاصي ويبلغ عدد سكانها اربعة آلاف . وتجارتها لا بأس فيها . وتلائم تربتها القطن والحنطة . وانما الزراعة فيها ضئيلة من جراء عسف المتسلم وتعدّي العرب .

واذا واصلنا سيرنا نزولاً بازاء نهر العاصي على طريق قلما يسلكها المسافرون رأينا في وسط البطائح مكاناً يسترعي الانتباه من جراء التغير العظيم الذي طرأ عليه . والمكان يُدعى « فامية » وكان يعرف باسم « اپاميا » وهي من المدائن الشرقية الشهيرة . وقال « استرابون » : « كان السلوقيون قد جعلوا هنالك ميداناً للتدريب على ضروب الفروسية ، وحوشاً واسعاً تتوالد فيه وتنمو الجياد المعدّة لفرسانهم .

والاراضي التي في جوارها تكثر فيها المراعي ؛ فثلاثون الف فرس ، وثلاثة حصان ، وخمسمئة فيل كانت ترتع فيها وتمرح . وجنود الاسكندر الذين جعلوا من هذا المكان محطة استراحة ، خلفهم عليه فلاحون فقراء ، يقضون العمر في خوف دائم من جور الحكام وتعدي البدو . وتلك هي ايضاً حالة سكان القرى التي ما بين الصحراء والجانب الجنوبي من دمشق عند سهول حوران .

والحجاج الذين يسيرون في وسط تلك السهول خمسة او ستة ايام في غضون سفرهم ، يروون انهم كثيراً ما يعثرون على انقاض منازل قديمة ، غير انها لا

تسترعي الانتباه ، ولا هي ذات اهمية من الوجهة التاريخية .

ان المواد الصلبة التي تصلح للبناء مفقودة من هذه السهول ، والارض لا قضض في تربتها ولا حصى ، فما يروونه عن خصبها ، يؤيد ما قالته فيها كتب العبرانيين ، وانما يزرع القمح ، ينجح نجاحاً باهراً ، وينمُ حتى يبلغ علوه قامة رجل ، معطياً غلة وافرة ؛ ذلك ما لم تحبس السمآء الغيث عنه . ويؤكد الحجاج ان الرجال هنالك ذوو قوة وقوام لا مثيل لها في سائر انحآء سورية ، ويشبهون المصريين بملامحهم ولون بشرتهم بمفعول هوآء اصقاعهم الكثيرة الحرّ والجفآء .

ومعظم قراهم يحميها العرب ، غير انهم يؤدون الخراج الى صاحب دمشق فالأمن مستتبّ في الجبال المتاخمة شمالاً وغرباً . لاجل ذلك انتزحت اليها بعض الاسر الدرزية والمارونية التي اضنتها قلاقل لبنان وحروبه ، واقامت لها قرى ، وشيدت فيها معابد حيث تقوم بشعائر دينها بلا مانع ولا عائق .

و كلما اقترب المسافر من نهر الاردن ، تعاقبت الجبال ، وتوالت الاراضي المروّية . والوادي الذي يجري في وسطه النهر ، كثير المراعي ، غزير الكلا وعلى الاخص في شطره الاعلى . والعرب الذين لا يعرفون لفظة « اردن » ، يسمّونه نهر الشريعة . ومتوسط اتساعه ما بين البحيرتين الكبيرتين نحو خمس وسبعين قدماً . واما عمقه فهو نحو اثنتي عشرة قدماً ، فاذا تضخّم في الشتاء خرج من مجراه على اثر سقوط الامطار التي تنحدر اليه سيولها ؛ فيفيض عندئذٍ على ضفتيه ، فيصبح عرضه ربع فرسخ ، وفيضانه الاعظم يحدث في شهر اذار اذ تذوب الثلوج المتراكمة على جبل الشيخ . فتتكدر حينئذ مياهه ، ويزداد انحدارها سرعة . وعلى شاطئيه غابات متكاثفة تأوي اليها الخنازير البرّية والنمورة وبنات آوى والارانب والطيور .

واذا عبرت النهر في منتصفه ، ولجت اراضي جبلية عُرفت في قديم الزمان

باسم مملكة السامرة ، ويدعونها اليوم بلاد نابلس ، قاعدتها مدينة نابلس . فهذه المدينة ، او بالحري القرية ، مشيدة على انقاض « نيابوليس » اليونانيين . وهي مقرُّ شيخ ملتزم يعينه صاحب دمشق .

ولا فرق بين هذه الاماكن وبلاد الدروز الّا من حيث ان سكانها مسلمون ذوو حمية ،لا يرضون بان يعيش بين ظهرانيهم من لا يدين بدينهم، واما اراضيهم فانها جبلية خصبة التربة ، تعطي بوفرة القمح والقطن والزيتون .

وبعدهم عن دمشق ووعورة اماكنهم يجعلانهم في مأمن من جور الحكام ويمكّنانهم من ان يعيشوا بهناء وسلامة بال ؛ فكانوا يُعدّون اغنى شعب في سورية . وبما انهم لزموا جانب الهدوء في اوان الاضطرابات التي حدثت في بلاد الجليل وفلسطين فاقبل الكثيرون من ذوي اليسار الى مجاورتهم لكي ينجوا من مفاجآت الزمن وجشع الحكام . غير ان طمع بعض زعمائهم ما عتم ان اوجد فيهم ميلاً الى النزاع والعصيان والشقاق ، فكابدوا من جرآء ذلك اضراراً لا تقل جسامة عن التي يلحقها بغيرهم حكام البلاد .

وبعد مسير يومين من نابلس جنوباً ، في وسط جبال تزداد على التوالي وعورة، يصل المرء الى مدينة تعدّ شاهداً ناطقاً لتقلبات الزمان وغوائل الحدثان. فاذا ما رأينا اسوارها المهدومة وخنادقها المردومة ، والانقاض المكتظّ بها محيطها ، صعب علينا ان نصدق انها هي اورشليم ، تلك العاصمة الشديدة البأس التي قاومت في غابر الزمان جيوش اعظم الممالك . وها هي ذي الآن ، بمفعول تعاقب الحوادث ، وتبدل الاحوال ، تحاط بشتّى ضروب الاكرام والاجلال .

ومما يحمل على العجب من الحظ العظيم الذي تتمتع به ، كونها قائمة على بقعة وعرة ماحلة قاحلة ، لا مآء فيها ولا كلأ ، تحدق بها الاودية والمنخفضات والهضاب . ونظراً الى بعدها من الطريق الكبرى ، كانت تلوح انها لن تصير

مدينة ذات شأن . غير انها انتصرت على جميع العوائق ، مبرهنة على ما يستطيع الفكر فعله اذا ما سيطر عليه شارع ماهر او جاءته فرص طيبة .

والمنزلة الرفيعة ، التي لها عند اليهود والنصارى والاسلام ، قد تحمل على الظن ان اهلها اكثر الامم ورعاً وصلاحاً . غير ان الحقيقة هي بخلاف ذلك . وعددهم يناهز اربعة عشر الفاً . واما مسيحيوها فان تخاصمهم متواصل ، وتحاقدهم دائم ، فنزاعهم الذي تثيره دواع تافهة ، يعود عليهم بالضرر ، وعلى الحاكم بالفائدة . فاولياء الامر ينتهزون خصامهم ، فيبترون اموالهم . لذلك يدأب الحاكم في توسيع شقة الخلاف ما بين طائفة واخرى .

ودَخل المتسلّم اي الحاكم يناهز مئة الف قرش ؛ فهو يتقاضى من كل زائر رسماً قدره عشرة قروش ، وخفارة من الزوار الذين ينوون الذهاب الى نهر الاردن ، فضلاً عن المغارم التي يفرضها عليهم لدى كل سانحة وبارحة .

وله على كل دير من اديار الطوائف المختلفة مبلغ مال معلوم ياخذه باسم رسم طواف ، او اصلاح عمار . وبما ان التنافر مستحكم الحلقات بين تلك الديورة فان كل واحد منها يرشوه لكي يشمله بعطفه ، ويؤيده بنفوذه ، او يغض الطرف عن مخالفته النظم المتبعة القائمة عليها حقوق الطوائف . والاديار تقدم له الهدايا في بدء تقلده منصبه ، او عندما يولّى عليها رئيس جديد .

ويتقاضى ايضاً ضريبة على السلع المختصة بصنعها مدينة القدس كالسبح والصلبان وما اليها من التحف الدينية التي يصدرون منها كل سنة ثلاثمئة صندوق ، والتي تشتري منها الاديرة شيئاً كثيراً . ودير اللاتين وحده ينفق على مشتراها خمسين الف قرش في السنة .

وتوافد الزوار على بيت المقدس يدرُّ على الديورة والمدينة الارباح الجزيلة . غير ان عددهم آخذ في التضاؤل ، وفي سنة ١٧٨٤ لم يرد منهم سوى الف زائر

بعد ما كانوا فيما سبق اثني عشر الفاً او يزيدون . واما ما ينفقه الواحد منهم فيناهز الالف والستمئة قرش ، وهو مبلغ كانوا آنئذٍ يعدونه جسيماً ؛ بيد ان بعض الزوار الاغنياء ينفقون اضعافه .

ورحلة الزوار الى نهر الاردن تأتي الحاكم بدخل لا يقلّ عن الاربعين الف قرش في السنة ، يُنفَق نصفها على مواكبة الزوار لاجل حراستهم . والكثيرون منهم يشمون يدهم ليبقى الوشم شاهداً ناطقاً على انهم حجوا بيت المقدس ، وانما الوشم لا يخلو من الخطر ان غرز الواشم الابرة في عصب الكاع ، فقد يؤول ذلك احياناً الى بتر اليد الموشومة .

وعلى مسير ستة فراسخ من القدس بلدة اريحا القائمة في وسط سهل طوله نحو سبعة فراسخ ، وعرضه ثلاثة ، حوله جبال جرداء ، تجعل الهواء حاراً . وكان سكانها يعنون بغرس شجيرة البلسم التي تشبه الرمان ، لها ورق كاوراق الحرمل ، وتحمل ثمراً داخله لوزة يستخرجون منها ماوية يدعونها بلسماً . غير انهم عدلوا الآن عنها واستبدلوها بشجيرة يسمّونها الزقوم ، وهي تشبه شجر الخوخ ، فيستخرجون منها زيتاً حلواً ينجع في الجروح والقروح ، لها اشواك طول الواحدة اربع اصابع ، وورق كاوراق الزيتون ، انما اضيق منها ، واكثر اخضراراً ، واطرافه شائكة . وثمرها كالبلوط ، ولكن ليس له كمّ ؛ وتحت قشرته لبّ فنواة ، يستخرجون منها زيتاً ، يُباع باسعار طيبة . فتلك هي تجارتهم الوحيدة . واريحا ليست سوى قرية صغيرة فقيرة .

وبيت لحم لا تبعد عن القدس سوى فرسخين جنوباً بشرق ؛ وهي مشيدة على اكمة في بقعة كلها تلال واودية صغيرة . لاجل ذلك هي جميلة الموقع ، وتربتها تفوق بجودتها تربة غيرها من الاراضي التي تجاورها ، فتنجح فيها اتمّ نجاح الاشجار المثمرة والكرمة والزيتون والسمسم . ويقدرون بستمئة عدد

رجالها القادرين على حمل السلاح ، وكثيراً ما يمتشقون الحسام لمقاومة الباشا ، او لشنّ الغارة على القرى المجاورة ، او لفض نزاع ينشب فيما بينهم .

واصحاب الطقس اللاتيني عددهم مئة ، يقوم بخدمتهم الروحية احد رهبان دير القدس الكبير . وكانوا يتعاطون جميعهم صنع السبح ؛ غير ان الرهبان لم يستطيعوا شراء كل ما كانوا يصنعونه منها . لذلك اضطروا ان يعودوا الى فلاحة اراضيهم . والمسيحيون في بيت لحم يعيشون بسلام ووئام مع مواطنيهم المسلمين ؛ وجميعهم من الحزب اليمنيّ والفلسطنيون حزبان : يمنيون وقيسيون .

وعلى مسافة سبعة فراسخ من بيت لحم الى الغرب مدينة حبرون التي يدعوها العرب « الخليل » نسبة الى ابرهيم الخليل المدفون فيها . وبيوتها مبنية بانقاض قلعة قديمة . والاراضي التي بجوارها لها شكل حوض منسبت ، طوله خمسة فراسخ او ستة ، تتوالى فيه على نمط لطيف الآكام الوعرة ، وغابات البلوط والصنوبر ، وبساتين الزيتون ، والكروم التي لا يستخرج السكان من عنبها خمراً ، لانهم جميعهم مسلمون ، بل يجففونه زبيباً ، ولو انهم لا يتقنون عمله . ويزرعون القطن ، فيغزلونه ، ويبيعونه في القدس او غزة . ويصنعون الصابون ، ويأتيهم البدو بالقلي الذي يدخل في طبخه . وعندهم معمل للزجاج وهو الوحيد في سورية . ففيه يصنعون الخواتم الملوّنة ، واساور ، وخلاخل ، واشياء آخر تافهة يبعثون بها الى الاستانة .

فتلك الصنائع جعلت لحبرون منزلة ممتازة ، فهي اقوى بلدة في تلك الارجاء ويمكنها ان تسلح ثماني مئة رجل . وبما ان سكانها ينتمون الى الحزب القيسي فهم وسكان بيت لحم اضداد وخصوم . فالنزاع القائم منذ القدم بين اهل تلك البلاد يجعلهم متحفزين دوماً للقتال وخوض الحروب الاهلية . وكثيراً ما يغير بعضهم على اراضي البعض ، فيتلفون الزرع ، ويقلعون الشجر ،

ويخطفون الغنم والمعز والابل . وقلما يحاول الحكام ردعهم من جراء عجزهم وضآلة نفوذهم .

ان البدو المقيمين في الاراضي المنبسطة يجمعون على مشاكسة الفلاحين الذين ينتقمون منهم بشن الغارة عليهم ، فيؤدي ذلك الى احداث فوضى هي شر من الاستبداد الرازحة تحته باقي البلاد .

واذا ما برحنا حبرون الى الغرب ، وصلنا بعد مسير خمس ساعات الى مرتفعات هي في هذا الجانب الحلقة الاخيرة لجبال اليهودية . والمسافر الذي يكون قد سئم تلك المناظر الوعرة التي فارقها ، يلقي نظره بارتياح على السهل الواسع المتساوي الذي يمتد عند قدميه حتى البحر المنبسط امامه ، فذلك هو السهل المعروف باسم فلسطين ، الذي تنتهي به ولاية سورية .



ايالة فلسطين

كانت ايالة فلسطين تشمل في اواخر القرن الثامن عشر الاراضي الواسعة من الجانب الواحد، ما بين البحر المتوسط غرباً، وسلسلة الجبال شرقاً؛ ومن الجانب الآخر، ما بين خطّين، يبدأ احدهما عند خان يونس، ويمتد الاخر شمالاً من قيصرية حتى غدير يافا.

فهذه البقعة تتكون من سهل شبه متساوٍ لا انهار فيه، ولا غدران؛ غير ان تربته جيدة، وقد تكون كثيرة الخصب اذا ما جادت السماء عليها بالمطر. وهي سوداء دسمة، تدخر في جوفها من الرطوبة ما يكفي لانضاج البقول والحبوب في اشهر الصيف. لذلك يكثر فيها زرع الذرة والسمسم والبطيخ والفول والقطن والشعير. واما القمح فلا يزرعون منه الّا ما هم في اقصى الحاجة اليه، لخوفهم من طمع الحكام واعتداء البدو.

وهذا الصقع هو الاكثر خراباً من سواه في سورية باجمعها، اذ الاغارة عليه سهلة لكونه مفتوحاً امام البدو، والذين يرغبون فيه، يفضلونه على غيره لخلوه من الجبال. لذلك لبثوا ردحاً ينازعون الحكام الاستيلاء عليه، حتى اكرهوهم على التخلي لهم عن جانب منه، بدل مالٍ يؤدونه الى الدولة في مواعيد معينة؛ فاخذوا يشنّون الغارة منه على المسافرين ويقطعون الطرق، وهو امر جعل السفر ما بين غزة وعكا محفوفاً بالاخطار.

وكان يعيّن على فلسطين حكام لهم لقب باشا. وانما جرت العادة بعدئذٍ بجعلها ثلاث اقطاعات، هي يافا واللد وغزة: فالاولى منها خُصت بالسلطانة الوالدة، اي ام السلطان؛ والثانية والثالثة منحتهما الدولة للربان الاملى

مكافأة له على ماقام به من الاعمال المجدية ، وعلى فوزه بالشيخ ظاهر العمر ، وهو يعطي التزامها بمئتين وخمسة عشر كيساً لآغا يقيم بالرملة اي ١٨٠ كيساً عن غزة والرملة ، و٣٥ كيساً من اللد .

واما التزام يافا فانه اسند الى آغا آخر بمئة وعشرين كيساً يدفعها الى السلطانة الوالدة ، فيعتاض بالاموال التي يجبيها من المدينة والقرى المجاورة . غير ان الجانب الاكبر من دخله يأتيه من المكوس التي يتقاضاها على جميع البضائع صادرة كانت او واردة ، وهي لعمري ذات شأن ، اذ في يافا ينزلون الارز الذي ترسله مدينة دمياط الى القدس ، واليها يبعثون بالبضائع المعدّة للوكالة التجارية الفرنسية التي في الرملة ؛ وفيها ينزل الى البرّ الزوار الآتون من بلاد اليونان والاستانة ؛ واليها ترد غلال الساحل السوري ؛ ومنها يصدر القطن المغزول ، وتوزع الغلال التي تبعث بها فلسطين الى مدنها الساحلية .

واما الجنود الذين تحت يد الآغا فعددهم ثلاثون ؛ فلا يقوون على حراسة الاماكن الموكول اليهم امرها . ومدينة يافا ليست حصينة ، ولا هي ذات مرفإ حسن . وانما عينا الماء العذب اللتان فيها قرب شاطئ البحر تجعلانها اجمل مدن ذلك الساحل . وقد مكنتاها في الحروب الاخيرة من مقاومة المغيرين عليها .

واما مرفأها فهو في اسوإ حال ؛ فلو ازالوا منه الردم المتراكم فيه ، لاستطاع استيعاب عشرين سفينة ، حمولة كل واحدة منها ثلاثمئة طن . لاجل ذلك تضطرّ السفن التي تأتي اليها ان تلقي مراسيها على مسافة فرسخ من الشاطئ ، وهي مع ذلك لا تأمن الخطر ، لان قعر البحر هنالك كثير الصخور .

وكانت يافا قبل الحصارين الاخيرين اجمل مدينة على الساحل . وكانت تكثر في جوارها بساتين البرتقال والليمون والكباد والنخيل والزيتون الذي

يشبه شجره دوح الجوز . فالماليك قطعوا جميع تلك الاشجار للاستدفاء او للتسلية . غير ان العدو لم يستطع ان يحرم يافا الماء الطيب الذي يروي بساتينها وهو الماء الذي احيا جرائيم تلك الاشجار فأخذت تشتكر بسرعة .

وبلدة اللدّ التي تبعد من يافا ثلاثة فراسخ ، عرفت في قديم الزمان باسم ديوسبرليس ، وهي اليوم تشبه مكاناً اعمل فيه العدو النار والدمار ، فلا يرى في البقعة التي ما بين اكواخ السكان وقصر الآغا ، سوى انقاض واطلال وبيوت متهدمة . ومع ذلك تقام فيها سوق يتوافد عليها اهل القرى المجاورة لبيع القطن المغزول .

ونصارى اللدّ يشيرون باحترام الى انقاض كنيسة مار بطرس ، ويدعون الزوار الى الجلوس على عمود يزعمون ان القديس كان يجلس عليه . ويشيرون ايضاً الى مكانين ، زاعمين ايضاً انه كان يصلي في الواحد منهما ، ويعظ الناس من على الآخر .

وعلى مسافة ثلث فرسخ من اللدّ بلدة الرملة اي اريمائيه القديمة ، وعلى جانبي الطريق المؤدية اليها سياجان من الصبّار . والرملة كاللد خربة . وآغا غزة جعلها مقرّه باقامته في دار سقفها وحيطانها متداعية . وقد قيل ذات يوم لاحد اعوان الآغا : « لماذا لا يصلح الآغا غرفته ، ما دام يأبى ترميم الدار كلها ؟ » فقال : « وان عُزل في العام المقبل ، فمن يعوّضه من نفقات الترميم ؟ »

وتحت يده مئة فارس ومئة جندي مغربي ، ويقيم فريق منهم في كنيسة قديمة ، وفريق آخر في خان تكثر فيه العقارب والحشرات .

والاراضي التي في جوار هذه البلدة تعطي زيتوناً جيداً ، غرست اشجاره على نمط هندسي لطيف ، وهي اشجار كبيرة كدوح الجوز . بيد انها قادمة على التلف من جراء قدمها او اهمالها او العبث بها .

والعبث بالشجر كثير الحصول في هذه الانحاء اذ القروي يأتي ليلاً شجرة خصمه وينشرها او يثقبها عند اسفل جذعها ، ثم يغطيها بالتراب ، فتسيل ماديتها وهكذا تتلف شيئاً فشيئاً .

وان اجتاز المرء بهذه البساتين يرى الكثير من الآبار الجافة والصهاريج الخربة والمصانع المقببة . مما يدل على ان البلدة كان لها فيما سبق محيط يبلغ الفرسخ ونصف الفرسخ . واما الآن فليس فيها مئتا نسمة .

والاراضي القلائل التي يفلحونها ويزرعونها ، يملكها المفتي او اثنان او ثلاثة من اقربائه . واهمّ ما يتعاطاه من الاعمال بعضهم غزل القطن الذي يشتريه منهم تجار فرنسيون . ويصنعون ايضاً الصابون فيبعثون به الى مصر . ومما يجدر بالذكر انه في سنة ١٧٤٨ عهد الآغا الى تاجر بندقي في اقامة طاحون هوائي في الرملة ، وهو الوحيد في مصر وسورية مع انه يقال إنّ مخترع دواليب الريح ورحى الهواء شرقيّ .

والاثر القديم في الرملة ، مئذنة جامع قائمة على طريق يافا ، يؤخذ من الكتابة العربية التي عليها ان بانيها الناصر محمد قلاوون احد سلاطين مصر . ويمكن تسريح الطرف من اعلاها على الجبال التي بازاء السهل حيث بعض القرى الحقيرة التي تحمل على منوال اصحابها طابع الذلّ والفقر . والبيوت هنالك بعضها منفرد ، والبعض الآخر مؤلف من حجر متتابعة حول باحة يحيط بها سور من لبن .

وفي فصل الشتاء يقيم القرويون حيث يزربون مواشيهم ، فيدفأون من غير ان يصطلوا بنار ؛ ففي ذلك توفير ذو شان في بلاد يعوزها الحطب . واما نارهم فهي من روث يجعلونه اقراصاً يجففونها في الشمس بلصقها بحيطان اكواخهم . ولهم في الصيف سكن آخر ليس فيه من الاثاث سوى حصير

وانآء للمآء . ولا يزرعون الا الاراضي القريبة من مساكنهم ؛ واما البعيدة فيتركونها للبدو الذين يرعون انعامهم عليها .

وكثيراً ما يصادف المرء هنالك خرائب ابراج وشرف وقلاع حولها خنادق، يقيم في بعضها رجل من قبل الآغا ، وثلاثة جنود ، لا يملك الواحد منهم سوى قميص وبندقية ؛ بينما البعض الآخر قد تُرِك لبنات آوى والابوام والعقارب ، فتأوي اليها وتمرح فيها .

ومدينة غزة مؤلفة من ثلاثة احيآء ، احدها قلعة خربة يشغل قصر الآغا جانباً منها، وهو متداع كقصر الرملة، لكنه يطل على ما حوله الى ابعد مدى ، ومنه يرى البحر الذي يفصله عن البر ساحل من الرمال عرضه ربع فرسخ . فهذه البقعة تشبه اراضي مصر بشكلها المنبسط والنخيل القائم عليها ؛ فتربتها وهواؤها يماثلان هواء مصر وتربة شواطئ النيل . حتى ان السكان هم مصريون بقوامهم وعاداتهم ولهجتهم ولون بشرتهم اكثر مما هم سوريون .

وغزة هي عقدة الاتصال ما بين سورية ومصر ؛ لاجل ذلك ظلت مدينة ذات شأن ، مع ما طرأ عليها من تقلبات الزمان وغوائل الحدثان . وتدل الانقاض من الرخام الابيض التي فيها ، على انها كانت عامرة غنية . ثم ان تربتها السودآء كثيرة الخصب ، وبساتينها التي يرويها مآء عذب ، تعطي رماناً وبرتقالاً وثمراً لذيذاً .

وليست غزة اليوم سوى قرية سكانها لا يزيدون على الفي نسمة ، اهمّ صنائعهم الحياكة التي يستعملون لها نحو خمسمئة نول . وعندهم ايضاً معملان او ثلاثة معامل للصابون ؛ وكانت تجارة القلي رائجة ؛ وكان البدو يبيعونه منهم بابخس الاثمان . ولكن بعدما احتكره الآغا واجبرهم على بيعه منه بالسعر الذي يريده ، توقفوا عن جلبه . وهذا الرماد او القلي مرغوب فيه لكثرة الحرض الذي يحويه .

والقوافل الرائحة والغادية فيما بين مصر وسورية ، مصدر ارباح جزيلة لسكان غزة ، فمن غزة تبتاع تلك القوافل الطحين والزيت والتمر ، وما يعوزها من المواد الغذائية في خلال الايام التسعة او العشرة التي تقضيها في اجتيازها بالصحراء .

والتجار الغزيون يقصدون الى ترعة السويس عندما ترسو فيها السفن الآتية من جدة ، او العائدة اليها ، فيبلغونها بعد مسيرهم ثلاثة ايام . ويوفدون كل سنة قافلة كبيرة الى الحجاج العائدين من مكة ، فيحملون اليهم المرطبات « وجردة » فلسطين ، فيكون الملتقى في معان التي تبعد مسير اربعة ايام عن غزة جنوباً بشرق .

ثم انهم يبتاعون الاسلاب التي يأتيهم بها البدو ، فتدرّ عليهم الارباح الطائلة . ومسلوبات سنة ١٧٥٧ اتتهم بمكاسب لا تقع تحت حصر ، لان ثلثي العشرين الف حمل التي كانت في قفل الحجاج ، جيء بها الى غزة ، فالبدو الجياع الجهال الذين لا يعبأون بافخر الاقمشة ، غير عارفين لها قيمة ، باعوا ببضعة قروش شالات الكشمير والنسج النفيسة والشاش الهندي والبن اليمني والصمغ العربي واللآلىء الرائعة .

ويروون حادثاً يدل باجلى بيان على سذاجة هؤلاء البدو ، وهو ان اعرابياً من قبيلة عنزة وجد بين الاشياء التي نهبها عدة صرر فيها اللآلىء الناعمة : فظنها ذرة ، فغلاها قاصداً طبخها . ولما رآها لم تنضج ، همَّ بطرحها جانباً ؛ فجاءه غزيّ واخذها منه ، واعطاه بدلاً منها طربوشاً احمر .

وقد حدث ايضاً مثل ذلك عندما غزا البدو قافلة الطور التي كان فيها « سَن جرمن »[1] . وقد نهبوا حديثاً قفل الحجاج المغاربة واحماله التي كان

(١) Charles-Louis, comte de St. Germain كان وزير الحرب في ايام لويس السادس عشر ، وهو الذي اعاد تنظيم الجيش الفرنسي . مات في سنة ١٧٧٨ .

عددها ثلاثة آلاف . فالبن الذي وقع في يدهم كان شيئاً كثيراً ، فهبط سعره في فلسطين هبوطاً كبيراً ؛ لكن الآغا حرم على السكان ابتياعه لكي يجبر البدو على بيعه منه . فذاك الاحتكار اتاه بارباح طائلة . فدخله السنوي من اموال الميري ، والمكوس ، والالف والمئتين حملاً التي يختلسها من الثلاثة آلاف حمل المؤلفة منها « الجردة » ، والمغارم التي يفرضها على السكان ، يساوي ضعف المئة والثمانين كيساً التي هي بدل التزامه .

وتلي الصحراء غزة ؛ فلا يعني ذلك ان الاراضي هنالك غير مأهولة ، فانك ان سرت مسافة يوم بموازاة شاطئ البحر ، رأيت زرعاً وقرى ، نذكر منها على سبيل المثال خان يونس الذي يشبه حصناً يحميه اثنا عشر مملوكاً ؛ وفي العريش الذي هو آخر مرحلة قبل صالحية مصر ، يجد المسافر ماء زلالاً .

واذ ما توغلت في الصحراء شرقاً ، وسرت حتى طريق مكة ، رأيت اراضي مزروعة ؛ فهنالك اودية حيث بعض الآبار ، والامطار التي تتساقط في الصيف ، قد جلبت الى تلك الانحاء فلاحين هم اكثر فظاظة وغلاظة وبؤساً من البدو انفسهم .

والى جنوب البحر الميت بشرق على بقعة من الارض ، يقطعها المسافر في ثلاثة ايام ، عدة مدائن خربة ، في البعض منها اطلال عظيمة ، تدلّ اعمدتها على انها بقايا هياكل وكنائس قديمة ؛ والبدو الذين يرعون قطعانهم في جوارها لا يجرؤون على دخولها لخوفهم من العقارب الضخمة التي تكثر فيها . فآثار كتلك تنبئ بما كانت عليه البلاد من العمران ؛ هي بلاد النباطيين الذين كانوا اقوى العرب قاطبة ؛ وموطن الايدوميين الذين كانوا لا يقلّون عدداً عن اليهود في آخر ايام اورشليم كما يؤكد ذلك ما رواه يوسيفوس المؤرخ اليهودي من ان ثلاثين الفاً منهم اسرعوا الى نجدة اورشليم اذ علموا بزحف

تيطوس اليها .

ويبدو لنا ان عمران تلك الديار اوجدته فيها شرائع حسنة ، و تجارة رائجة . ومن المشهور انه في عصر سليمان كان هنالك مدينتان واقعتان على خليج البحر الاحمر ، ترد اليهما البضائع الوافرة ، فيكثر التردد اليهما ؛ فاحداهما هي العقبة ، والمكانان يسيطر عليهما البدو ، لكنهم لا يقيمون فيهما ، اذ انهم لا يمارسون التجارة ، ولا يزاولون الملاحة . والحجاج المصريون الذين يعرجون عليهما ، يروون ان في العقبة حصناً تخفره عساكر اتراك ، وسلسالاً عظيم القيمة في تلك الانحاء. المقفرة النائية .

والايدوميون الذين لم ينتزع منهم اليهود تلك الثغور الّا في فترات قصيرة، كانوا يجنون منهما غنى ويسراً ضارعوا بهما الصوريين الذين كانوا يملكون هنالك ثلاث مدن ، احداهما ، وهي المجهولة الاسم ، تقع على ساحل الحجاز في برية التيه ؛ والثانية مدينة فران ؛ والثالثة مدينة الطور التي هي مرفأ لفران هذه .

وكانت القوافل تذهب من تلك المدن الى فلسطين واليهودية في ثمانية ايام اوعشرة ، سالكة طريقاً اطول من التي تصل السويس بالقاهرة ، واقصر من التي يذهبون عليها من حلب الى البصرة .

وبرية التيه هي ذات البادية التي قاد موسى الكليم العبرانيين اليها ، وطوحهم فيها زمناً طويلاً ، ليدربهم على اساليب القتال ويجعل منهم شعب حرب [1] . والاسم « التيه » له علاقة بذلك كما يدلُّ معناه ! وانما من الخطأ الاعتقاد انه ظلّ شائعاً بعامل النقل ، فلم يردده العرب الّا لانهم يقرأونه في

---

(١) هذا فكر المؤلف . واما الروح القدس فيقول في سفر العدد : « فاتاههم الرب في البرية اربعين سنة حتى انقرض جميع الجيل الذي فعل الشر في عينيه» (٣٢ : ١٣)

التوراة والقرآن .

فتلك الصحرآء التي تتاخم سورية من الجنوب ، تمتد بشكل شبه جزيرة فيما بين خليجين واقعين على البحر الاحمر ، اي خليج السويس غرباً ، وخليج العقبة شرقاً ؛ فمتوسط عرضها ثلاثون فرسخاً ، وطولها سبعون ، ومعظمها جبال ارضها قفار ، متصلة شمالاً بجبال سورية ، وهي مثلها مكونة من صخور جيرية لكنها صوانية في الجنوب ، كما هما جبلا سينآء وحوريب ، لا ينبت فيها الا الطلح والاثل والراتنج وبعض الشجيرات .

وينابيع المآء فيها نادرة الوجود ، فان وجد هنالك عين ، كان ماؤها كبريتياً حاراً ، كالعين التي يدعونها حمامات فرعون ؛ او أجاجاً آسناً ، كالتي تدعى « النبع » ازآء السويس .

وفي الجانب الشمالي يكثر الملح المعدني ، بيد ان التربة في بعض الاودية ليست مالحة ، لانها مكونة من فتات الصخور ، فتصلح للزراعة ، بل تكون ايضاً خصبة اذا ما روتها الامطار ، كتربة وادي جرندل حيث بعض الغياض ، ووادي فران حيث اطلال مدينة فران القديمة . وكانوا في سالف الزمان لا يدعون تلك المزايا تذهب سدى . واما الآن وقد اهمل شأنها ، فلا ينبت فيها الّا الحشائش البرية .

فبمثل تلك الوسائل اليسيرة تقوم الصحرآء باعاشة ثلاث قبائل عدد افرادها يناهز ستة آلاف ، يدعونهم عادة طوّارة ، نسبة الى الطور الواقع على الساحل الشرقي لذراع السويس في بقعة رملية منخفضة ، ومزيته ان فيه رصيفاً جيداً ومآء عذباً تأخذ منه حاجتها السفن الذاهبة الى جدّة . وليس هنالك الّا بعض النخيل ، وحصن خرب ، ودير للروم خرب ايضاً ، واكواخ يقيم فيها عرب فقرآء . والقبائل الثلاث تعتمد لاجل معيشتها على معزها وابلها والصمغ

الذي تجمعه من شجر الطلح وتبيعه في مصر ؛ وايضاً على ما تغنمه في الغزوات التي تقوم بها على طريقي الحج والسويس .

وهؤلاء البدو ليس عندهم خيل كما عند غيرهم من القبائل بما انه لا مرعى له في تلك الانحاء ، فيعتاضون منه بالهجان من الابل التي تمتاز عن غيرها ببياضها، ونعومة وبرها ، ورشاقة اعضائها ، وخفة حركاتها ومقدرتها على الجري السريع ؛ وفي وسعها ان تسير سيراً متواصلاً ثلاثين او اربعين ساعة بلا أكل ولا شرب . ويستخدمونها في نقل البريد وقطع المراحل الشاسعة ، وانما يجب ان يألف المرء حركاتها ، اذ رجاتها تضني حتى امهر الفرسان .

ان زيارة الروم لدير جبل سيناء تدرّ الارباح الطيبة على بدو الطور . فالروم الارثوذكس يكرمون احسن تكريم القديسة كاترينا ، ويعتقدون ان في هذا الدير رفاتها ؛ وحجهم لمقامها ، ولو مرة واحدة ، يعدونه من اعمال البر التي تجلب البركات ومغفرة الزلات . لاجل ذلك يقصده الزوار من القسطنطينية واقاصي بلاد اليونان ؛ فيجتمعون في القاهرة حيث رهبان جبل سيناء لهم عملاء ؛ فهؤلاء يتفقون مع العرب على مواكبة الزوار حتى الدير باجر قدره خمسة وخمسون قرشاً عن كل شخص .

وعندما يصل الزوار الى الدير يقومون بفرائض العبادة ، فيزورون الكنيسة ويقبلون الذخائر والايقونات ، ويصعدون الى جبل موسى زحفاً على الركب ويختمون زيارتهم باعطائهم الدير ما يتيسّر لهم من المال . غير ان مقدار العطاء لا يقل عن مئة قرش او مئة وعشرين .

فتلك الزيارة لا تحدث الّا مرة واحدة في السنة . واما الاقامة في الدير فانها ليست من الامور المبهجة ، نظراً الى بعده ، واقفار موقعه ، فليس حوله سوى صخور هائلة كئيبة . والجبل الذي يقوم الدير على سفحه ، مكوّن من

كتلة عظيمة من الصوان تبدو كأنها ستنهار عليه . وهو يشبه سجناً مربع الشكل ، ليس في سوره سوى نافذة واحدة ، يدلّي الرهبان منها قفة لمن يروم الدخول ، ثم يسحبونها وهو فيها .

واما الباعث على هذا الاحتراز فهو الخوف من البدو الذين يدخلون الدير عنوة ان فتح بابه الكبير ، الذي يظل مُوصَداً ولا يفتحونه الا للمطران الذي يفد عليهم مرة كل سنتين او ثلاث سنين . وزيارته كثيرة النفقات بداعي الاتاوة التي يتقاضاها البدو آنئذٍ . وعلى الرهبان ان يقدموا لهم كل يوم عدّة حصص من الطعام ، والنزاع الذي ينشب من حين الى آخر بسببها ، كثيراً ما يؤول الى رجم الرهبان واطلاق الرصاص عليهم .

وهؤلاء الرهبان لا يغادرون قط ديرهم ، وقد توصلوا ، بجهودهم وطول اناتهم ، الى احداث حديقة على تلك الصخور ، بنقلهم التراب اليها ، فهي متنزههم . ويجنون من اشجارها ثمراً فاخراً ، كالعنب والتين والاجاص الذي يهدونه الى كبار قومهم في القاهرة .

وتشبه حياتهم النسكية حياة زملائهم من الروم والموارنة الذين في لبنان ، اي انهم يقضون الوقت في الصلاة والعبادة والاعمال المفيدة . بيد ان رهبان لبنان يعيشون بأمان واطمئنان بخلاف رهبان دير سيناء .

ثم ان حياة السجن والانزواء هذه المجرّدة من كل تنعم وتلذذ هي حياة جميع الرهبان في الشرق ، فعلى هذا المنوال يعيش رهبان دير مار سمعان في شمال حلب ، ودير مار سابا القريب من بحيرة لوط . وهكذا ايضاً يعيش اقباط ديورة صحراء القديس مقار والقديس انطونيوس .

فجميع تلك الديارات هي كالسجون ، لا نافذه لها تطل على الخارج الا التي تأتيهم منها مؤونتهم واقواتهم . وهي مشيدة في اماكن بشعة قفرة ، لا

يرى فيها سوى حجارة وصخور ، ومع ذلك تجد الرهبان فيها عديدين ؛ فخمسون منهم يقيمون في دير طور سيناء ، وخمسة وعشرون في دير مار سابا ونحو ثلاثمئة في ديورة صحارى مصر .

نظرة شاملة

تتألف البلاد السورية من ثلاث قطع مستطيلة تنبسط احداها بموازاة البحر الابيض ، وهي وادٍ رطب ، هواؤه ليس كما يرام ، وانما تربته وافرة الخصب .

والقطعة الثانية تتاخم الاولى ، وهي جبلية ، وعرة المسالك والمفاوز ، لكنها طيبة الهواء .

وتقع الثالثة الى ما وراء الجبال شرقاً ؛ فتجمع بين حرّ القطعة الاولى وجفاف الثانية .

وقد رأينا كيف تمتاز سورية بعدة مزايا من حيث تربتها وجودة هوائها فتبدو كأن الله جعلها المكان الاكثر ملاءمة للسكن . على انها تفتقر الى الخضرة البهجة التي تزدان بها على الدوام بعض البلاد الاوربية ؛ فلا ترى فيها العشب الاخضر ، ولا الزهر الزاهي ، ولا الغابات الرائعة التي تسبغ البهجة والنشاط ، وذلك امر ناشيء من عوامل عرضية اكثر منها طبيعية .

ولولا الخراب الذي جلبه عليها ابن آدم لكست الغابات معظم انحائها .

ومن البديهي ان الارض الغزيرة المياه في الاصقاع الحارة ، تكون وافرة النبات إن اعتني بها . فيلي حينئذ الازهارُ الاثمارَ . والاثمارُ الازهارَ وهكذا دواليك . وبذلك تمتاز البلاد الحارة عن البلاد الباردة .

وفي الانحاء المعتدلة الهواء تظل الطبيعة خدرة عدة اشهر ؛ فيذهب ثلث بل نصف السنة في سبات لا خير فيه ، لان الارض التي حملت الحبوب لم يبقَ لها متسع من الوقت لتنبت البقول قبل انقضاء اشهر الصيف ؛ فلا يبقى والحالة هذه امل في جني غلة ثانية . فالفلاح يجد نفسه حينئذٍ مضطراً الى العطلة والبطالة .

واما في سورية فان الامر ليس كذلك ؛ فان كانت مغلاتها هي دون ما تستطيع اعطاءه . فالباعث الاول والاكبر يعود الى سوء الحكم القائم فيها .

ولنلخصْ ما شرحناه مطولاً عن دخل الدولة وعساكرها ، وعدد السكان ؛ فنقول : تدفع سورية الى خزينة الدولة الفين وثلاثمئة وخمسة واربعين كيساً ، وهي جملة الضرائب المفروضة عليها ؛ فهاك تفصيلها :

٨٠٠ كيس تدفعها حلب
٧٥٠ كيساً » طرابلس
٤٥ » » دمشق
٧٥٠ » » عكا

٢٣٤٥ (اي ما يعادل ٢٬٩٣١٬٢٥٠ ليرة من نقود فرنسة في القرن الثامن عشر ؛ او ١٬٢٧٢٬٠٠٠ قرش تركي ذهباً) .

ويجب ان نضم الى هذا المبلغ : اولاً – قيمة تركات الباشوات والافراد ، وهي تناهز الف كيس ؛ ثانياً – الجزية اي مال الاعناق ومال الجوالي

المفروض على المسيحيين ، وينظر في امره ديوان خاص تابع لبيت مال الدولة في الاستانة . واما مسيحيو البلاد التي حق تلزيمها منوط بالباشا الحاكم ، كبلاد الموارنة والدروز ، فانهم معفون منه ، وهو على الشخص الواحد ، ثلاثة او خمسة قروش او احد عشر قرشاً ؛ وقد يصعب تقدير مجموعه ؛ وانما اذا فرضنا ان عدد الذين يؤدونه مئة وخمسون الفاً ، ومتوسط ما يؤديه الواحد منهم ستة قروش كانت الجملة تسعمئة الف قرش .

فلا نخطئ ان قدرنا بسبعة ملايين ونصف مليون ليرة جملة المال الذي تدفعه سورية الى خزينة الدولة . واما ما يجبيه « الملتزمون » فيكون تقديره كما يلي :

٢٬٠٠٠	كيس	– حلب
٢٬٠٠٠	«	– طرابلس
١٠٬٠٠٠	«	– دمشق
١٠٬٠٠٠	«	– عكا
٦٠٠	«	– فلسطين
٢٤٬٦٠٠		

فهذا المبلغ هو دون ما تستطيع سورية دفعه ، لان ارباح « الالتزامات » التي يعهد فيها الحاكم الى الافراد ، كما هو جار في بلاد الدروز والموارنة والنصيرية ، لم تدخل في هذا الحساب .

والجنود في سورية لا يتناسب عددهم مع ما يجب على بلاد ذلك هو دخلها ، ان يكون فيها . اذ جميع الجنود في سورية من مشاة وفرسان لا يتجاوز عددهم خمسة آلاف وسبعمئة ، متوزعين عليها كما يلي :

حلب	٦٠٠ فارس	٥٠٠ من مغاربة مشاة
طرابلس	٥٠٠ «	٢٠٠ « « « «
عكا	١،٠٠٠ «	٩٠٠ « « « «
دمشق	١،٠٠٠ «	٦٠٠ « « « «
فلسطين	٣٠٠ «	١٠٠ « « « «
	٣،٤٠٠	٢٣٠٠

وعند الضرورة يضم الباشا الانكشارية الى هؤلاء الجنود، كما أنه يدعو اناساً آخرين الى الالتحاق بهم ؛ فهكذا تألفت بسرعة تلك الجيوش التي رأيناها تشن الحرب على الشيخ ظاهر العمر، وعلي بك المصري. غير ان ما بسطناه من نظامها، والاساليب التي تتبعها في حروبها، يدل على ان سورية، من حيث الدفاع، هي دون مصر. على ان الجندي التركي خليق بكل اعجاب، نظراً الى زهده وجودة صحته. وهما ميزتان تجعلانه يستطيع ان يعيش في افقر الاصقاع، ويتحمل اشد المتاعب والمشقات، بما انه اعتاد الحياة الشاقة منذ الصغر اذ كان في الحقل يفترش الارض ويلتحف السماء. لاجل ذلك لا يشعر بميل الى التنعّم، ولا هو يبالي بشظف العيش في المعسكر.

وان قابلنا سورية بمصر، رأينا بينهما بوناً شاسعاً من حيث مقدرة كل منهما على الدفاع من نفسها، فمصر تستطيع ان تحمي نفسها برّاً بصحراواتها وبحراً بسواحلها. واما سورية فانها مفتوحة من البرّ عن طريق ديار بكر ومن البحر من طريق سواحلها التي يسهل الاقتراب منها.

واما مصر فالدنوّ منها ليس بالامر الهيّن ؛ ومن يحاول فتحها يصعب

عليه البقآء فيها ، لانها تستطيع التملص منه بسهولة . ومن يستولِ على سورية يتعذر اخراجه منها لان الاحتفاظ بها سهل .

وما ذلك الفرق بينهما الّا لان مصر تقع في سهل ، فالحرب فيها تدور بسرعة بخلاف سورية التي جبالها تجعل الحرب مكانية ، وانكسار احد الخصمين فيها لا يحرم الآخر وسائل الدفاع .

واذا حاولنا تقدير عدد سكان سورية . بالاستناد الى بعض الادلة حصلنا على الاحصآء التالي :

٣٢٠،٠٠٠	ولاية حلب
٢٠٠،٠٠٠	« طرابلس ما عدا كسروان
١١٥،٠٠٠	كسروان
١٢٠،٠٠٠	دروز
٣٠٠،٠٠٠	ولاية عكا
٥٠،٠٠٠	فلسطين
١،٢٠٠،٠٠٠	ولاية دمشق
٢،٣٠٥،٠٠٠	الجملة

الفلاحون والفلاحة (1)

في سورية بل في البلاد العثمانية باجمعها ، يُعدّ الفلاحون كغيرهم من السكان عبيد السلطان . غير ان لفظة « عبيد » تعادل ههنا كلمة « رعايا » . ولا ريب ان السلطان هو السيد المطلق ، لكنه لا يبيع الناس كما يُباع الرقيق ، ولا يكرههم على الاقامة في مكان معيّن . واذا منح احد كبار دولته اقطاعة ما ، فلا يعني ذلك انه اقطعه في الوقت ذاته عدداً معيناً من الفلاحين ، كما هو جارٍ في روسية وبولونية . وقصارى القول ان الفلاحين في سورية يرزحون تحت عسف الحكومة وجورها ، من غير ان يكونوا عبيداً لاصحاب الاقطاعات ، ارقاء لهم .

ولما فتح السلطان سليم سورية ، اراد ان يجعل جباية الضرائب سهلة ، فلم يفرض سوى ضريبة واحدة ، واعني بها « الميري » . ويبدو لنا ان هذا السلطان مع ما كان عليه من قساوة الطبع ، شعر بضرورة مراعاة حالة الفلاح . فلو قابلنا الميري بمساحة الارض لرأيناها في غاية الاعتدال ، لاسيما وان عدد سكان سورية كان آنئذٍ اكثر منه في القرن الثامن

---

(1) حاول فولني قبل طرقه هذا الباب ان يشرح طريقة الحكم في سورية ، ويعدد العوامل التي تجعله مستبداً جائراً ، لا عدل فيه ، ولا رفق ، فافرد لذلك فصلاً طويلاً ، جاعلاً له شكل بحث فلسفي اجتماعي . ونسج على ذات المنوال في كلامه على القضاء ، وتأثير الدين في المعاملات ، والعلاقة التي ما بين الحكام والرعية . فكتب عن كل موضوع فصلاً مسهباً ، مبدياً كثيراً من الآراء التي لا يمكننا موافقته عليها . لاجل ذلك طوينا كشحاً عنها ، لنوفر على القارئ سآمة مطالعتها ، فهي مضرة اكثر منها مفيدة .

عشر . ولربما كانت تجارتها اذ ذاك لا تقل عما صارت اليه بعدئذٍ ، لان « رأس الرجاء الصالح » لم يكن في ذلك العصر مقصوداً كثيراً ؛ فكانت سورية واقعة على الطريق المفضَّل على غيره من الطرق المؤدية الى الهند .

ولكي تجري الجباية بانتظام ، جعل لها السلطان دفتراً او سجلاً عيّن به ، سهم كل قرية ؛ اي انه جعل الميري ثابتاً لئلا يجرؤ احد على العبث به . ففي حالته تلك لم يكن ثقيلاً على كاهل الشعب . غير ان عيوب نظامه مكّنت الحكام وعمالهم من جعله مرهقاً . وبما انهم لم يجرؤوا على العبث بالشريعة التي سنّها السلطان بجعله الضريبة غير قابلة الزيادة اوالنقصان . فقد اضافوا اليها عدّة فروض تفعل فعل الضرائب ، ولو انها لا تدعى ضرائب . ومن ذلك انهم لا يتخلون لاحد عن اي جزء من الارض المقطعة لهم ، الا بشروط باهظة ، مطالبين بنصف الغلة او ثلثيها . ويحتكرون ايضاً البذور والحيوانات ، فيضطرّ الفلاح ان يشتريها منهم باسعار تزيد على قيمتها الحقيقية . وعندما يتسلمون الغلة منه ، يحاكمونه محتجين بنقصانها ، او مدعين اختلاسه لجانب منها . وبما انهم اصحاب السلطة والنفوذ ، فيأخذون قسراً ما يريدون . واذا جاءت السنة ماحلة فلا يرأفون به ، ولا يصطبرون عليه ، بل يطالبونه بما سلفوه ويبيعون جميع مقتنياته ليستوفوا دينهم منه . ومن حسن الصدف انه لا يحكم عليه بالسجن ان لم يعد يملك شيئاً ، فيظل اذاً حرًّا طليقاً .

وقد يضمّون الى تلك المعاملة المرهقة الف تعدٍّ ، فتارة يفرضون غرامة على القرية باجمعها لذنب ارتكبه بعض سكانها ، او اتهموا به زوراً ، وتارة يوجبون عليها ضرباً جديداً من السخرة ، فيطالبونها بهدية لدى قدوم حاكم جديد ، او بتأدية علف الى خيله وخيل فرسانه ، ويجبرونها على قراء

الجنود الذين يمرون بها اتفاقاً ، او يأتونها قصداً ليبلغوها اوامر الحكام .

وقد يبذل الحكام جهدهم الاكثار من تلك البعثات التي تؤول الى اقتصادهم في النفقات ، ولو انها ترهق الفلاحين . والقرى ترتمش خوفاً ان وفد عليها « لاوند » فهو لعمري لص قد انتحل اسم « جندي » . فيدخل القرية كانه فاتح ، ويأمر كانه المولى المطلق السلطة . وعند ما يرحل يطالب بقحة بما يسمونه « كرآء الضرس » .

والفلاحون يستغيثون من هذا الظلم ، ولا من مغيث ، فمتوسطو الحال فيهم تتأخر اشغالهم ، ويتضاءل دخلهم ، ويعجزون في نهاية الامر من تأدية « الميري » فيمسون عبئاً على غيرهم ، او يلجأون الى المدن . وبما ان الميري مقداره ثابت ، اي انه لا ينقص ولا يزيد ، ومن المحتوم وفاؤه بتمامه ، فالمفروض عليهم منه ، يترتب على القرويين الآخرين القيام بدفعه . وهكذا الحمل الذي كان في بدء الامر خفيفاً ، صار على التوالي ثقيلاً . واذا حصل محل على مدار سنتين متواليتين ، بارت القرى باجمعها ، واقفرت من سكانها ، غير ان « ميريهم » يقع حينئذٍ على جيرانهم .

وذات الامر يحدث في ما يختص « بجزية » النصارى التي تعينت في الاصل بمقتضى احصاء اجرته الدولة ، فيجب الّا ينقص مقدارها مهما نقص عدد الذين فرضت عليهم في البدء ، فمثلاً اذا انتزح عن بلدة جانب من سكانها المسيحيين ، فعلى الباقين منهم ان يقوموا بتأدية الجزية المفروضة على الجميع ؛ فيصبح عندئذٍ سهم الشخص الواحد خمسة وثلاثين او اربعين قرشاً ، فيؤول ذلك الى اثقال كاهل ذاك الشخص ، او اكراهه على هجر دياره .

ثم ان اصحاب الاقطاعات يطلقون يد الملتزم ، رغبة منهم في زيادة

دخلهم ؛ فالملتزمون هم الذين اتقنوا اسلوب فرض المغارم والعوائد واوجدوا رسماً على الاحمال والغلال . فاساليب السلب راجت رواجاً عظيماً في اواسط القرن الثامن عشر ، حتى تفاقمت من جرائها حالة الارياف ؛ فاقفرت القرى واندثرت الدساكر والمزارع ، فتضاءلت الاموال التي كانوا يبعثون بها الى الاستانة .

واما البدو فاذا كانوا في حرب نهبوا بحجة انهم ينهبون اعداءهم واذا كانوا في السلم التهموا كل شيء باعتبارهم ضيوفاً . ولاجل ذلك يقول المثل : « احذر البدو ان صديقاً وان عدواً » .

واخف الفلاحين بؤساً فلاحو البلاد التي تغاضت عنها الدولة ، كبلاد الدروز وكسروان ونابلس . غير ان ثمت مصدر اذى آخر يجب عده من اكبر الضربات التي تنزل بفلاحي سورية ، الا وهو الربا الفاحش ؛ فان احتاج القروي الى بذار او بهيمة او غير ذلك ، فانه لا يجد المال لشرائها الا ان باع سلفاً وبابخس الاثمان جميع غلته او جانباً منها .

واظهار المال امر خطر ؛ لاجل ذلك من لديه مال يحرص عليه ويخفيه ولا يرضى بالتخلي عنه الا اذا اتاه بربح وافر سريع . والربى الادنى اثنا عشر في المئة ، والعادي عشرون ، وكثيراً ما يكون ثلاثين .

فيتضور القروي بؤساً من جراء ذلك كله فتجده مضطراً الى الاقتيات بخبز الذرة والشعير ، وبالبصل والعدس المطبوخ في الماء وبما انه لم يألف الاكل الطيب ، فيحسب الزيت الحاد والدهن الزنخ الذ المآكل واطيبها ولئلا يفقد شيئاً من الحبوب يترك فيها ما هو غريب عنها ، حتى الزيوان الذي يسبب دواراً وخدراً يدومان بضع ساعات . وفي لبنان ونابلس يأكلون في ايام المحل البلوط المشوي تحت الرماد .

ولا يملك القروي بسبب ضيق ذات يده ما هو في حاجة اليه من عُدد الفلاحة ؛ فان كان لديه شيء منها ، فهو من الصنف الذي لا يجديه كبير نفع . فحراثه ليس في الغالب سوى فرع شجرة له شعبتان . ويفلح به على الحمير والبقر ، وقلما يستخدم الثيران ، لان الثور دليل الغنى الذي يثير طمع الحكام .

وفي الانحاء المعرضة لاعتداء البدو ، كما هو الحال في فلسطين ، يضطر الى حمل بندقيته عندما يزرع حقله ، وما ان تنضج السنابل حتى يبادر الى حصدها وذريها واخفاء قمحها في المطامير ، ولا يأخذ منه للبذر الا ما يعطيه المقدار الذي لا يمكنه الاستغناء عنه . لاجل ذلك يقتصر الفلاحون على ما هم في شديد الحاجة اليه من قوت ولبس ، عائشين في ضيق دائم .



الصناعة والتجارة والبضاعة

ان التجار وارباب الحرف في سورية اقل بؤساً من قروييها وفلاحيها ، اذ ما يملكه التاجر او الصانع مؤلف من اشياء يسهل نقلها ، فلا يقع بصر اولياء الامر عليها . فمن السهل ان ينجو الصائغ والتاجر المقيمان في المدن من نهم الحكام وجشعهم . فهذا الامر هو احد البواعث على اكتظاظ مدن سورية بل سائر مدن تركية . واذ لا يأوي الى المدن من فلاحي البلاد الاخرى الّا الذين ايست الارض في حاجة الى سواعدهم نرى فلّاحي سورية يلجأون الى المدن هرباً من الظلم . هاجرين اراضيهم التي لا غنى لها عنهم ، فيجدون في ملجإهم الامان والطمأنينة .

والحكام يبذلون قصارى جهدهم لجعل السكينة مستتبة في المدن ، فسلامتهم ذاتها قائمة عليها . ولربما كانت عاقبةُ ثورةٍ او انتقاضٍ وبالاً عليهم . ثم ان الباب العالي يسخط عليهم ان توانوا في تأمين اقوات الشعب ؛ لاجل ذلك يبذلون ما في وسعهم لجعل المواد الغذائية بخسة الاسعار في الاماكن الكثيرة السكان ، وعلى الاخص في المدن التي يقيمون فيها حتى اذا حدثت مجاعة ، كانت هنالك خفيفة الوطأة ، فيمنعون عندئذٍ نقل الحبوب الى بلد آخر ، ويجبرون اصحابها ، تحت طائل العقاب الشديد ، على بيعها بالاسعار التي يعينونها ؛ واذا نفدت من المدينة ، جلبوها من الخارج ، كما حدث في دمشق سنة ١٧٨٤

ففي تلك السنة اقام الوالي المراقبين على الطرق ، واوعز الى البدو بنهب جميع الاحمال المعدّة الى غير دمشق . وامر سكان بلاد حوران باخراج جميع الحنطة من مطاميرهم . لاجل ذلك لم يدفع الدمشقي آنئذٍ

غنماً لاقة خبز سوى ثلاثة بارات [١] بينما كان الفلاح يتضور جوعاً .

ولكن بما ان كل شيء له رد فعل ، فالضرر الذي لحق حينئذٍ بالفلاحة ، أثر في الصناعة والتجارة . واما التجارة هنالـك فهي اليوم كما كانت عليه في سالف الزمان ، اذ كانت الدنيا غائرة في لجة الجهل والغباوة . فعلى الساحل السوري باجمعه لا تجد مرفأ تستطيع سفينة تستوعب ما زنته اربعمئة طن ، ان ترسو فيه . وارصفة الموانئ الباقية حتى الان معرضة لاعتداءات الاعادي ، اذ ما من حصون تحميها . فقرصان مالطة كانوا يدنون من تلك الارصفة ، وينزلون الى البرّ ، ويغنمون ما استطاعوا . وما ذلك الّا لانه لم يكن هنالك ما يصدهم . وبما ان السكان كانوا يلقون على عاتق التجار الاوربيين تبعة تلك الاعتداءات ، فالدولة الفرنسية توصلت بمساعيها الى ردّ القرصان عن الساحل السوري . فصار في وسع السكان ان يركبوا البحر بلا خوف . لذلك اخذت الملاحة تروج ما بين اللاذقية ويافا .

وسورية ليس فيها طرق منظمة ، ولا ترع ملاحية ، ولا جسور على الانهر ومجاري السيول . ووسائل اتصال مدينة بمدينة معدومة . والبريد التتري هو وحده الذي يأتي من الاستانة الى دمشق عن طريق حلب ؛ ولا يحط الا على مقربة من المدن الكبرى . وقد أجازوا له ان يأخذ عند الضرورة فرس اي مسافر يصادفه . ويقطر دوماً فرساً ثانياً عملاً بعادة شائعة عند التتر ، وكثيراً ما يصطحب رفيقاً ، احترازاً مما عساه ان يحدث له من المفاجآت . وتوصيل الرسائل من مدينة الى مدينة يتم بواسطة المكارين ؛

---

(١) اربعون بارة تساوي قرشاً تركياً ذهبياً .

غير ان سفرهم ليس له مواعيد معينة ، بما انهم لا يستطيعون السفر ألا في القوافل . وما من احد هنالك يقدم على السفر بمفرده ، نظراً الى فقدان الامن . فيجب على من يروم الذهاب الى مكان ما ، ان ينتظر قيام جملة مسافرين قاصدين ذات المكان ، او يتحين سفر احد الناس من ذوي النفوذ الذي يجعل نفسه حامي القافلة ، ولو انه يكون في غالب الاحيان هو المستبد بها . فاحتراز كهذه لا بدَّ منه ، وعلى الاخص في الجهات المعرضة لاعتداء البدو ، كفلسطين واطراف البادية . والطريق التي ما بين حلب والاسكندرون حيث يكثر اللصوص .

والشواجن الجبلية وعرة ، والقرويون بدلاً من تمهيدها ، يزيدونها وعورة وصعوبة ، ليحولوا دون وصول فرسان الحكام اليهم .

وليس في سورية كلها عجال او مراكب ، لخوف السكان من استيلاء الحكام عليها . وجميع الاشياء يجري نقلها على الدواب ؛ فيستخدمون في الاماكن الجبلية البغال والحمير ، لانها تستطيع تسلق الصخور والانحدار من عليها . ويغلب استعمال الجمل في السهول ؛ فزنة حمله العادي سبعمئة وخمسين ليبرة (أي نحو ثلاثمئة وسبعين كيلوغراماً) . وهو لا يأنف من أكل اي علف كان ، ان نباتاً او عوسجاً ، او عجينات تمر مسحونة ، او فولاً . فليبرة واحدة من العلف ، وليتر ماء يكفيانه سحابة يومه . ويمكن تسييره اسابيع . ويقطع في الاربعين ساعة او ست واربعين ، بما فيها ساعات الاستراحة ، المسافة التي ما بين السويس والقاهرة ، من غير ان يأكل او يشرب . الّا ان امتناعه المتواتر عن الاكل يضعفه ، فيبخر حينئذٍ فمه حتى تعمي رائحة نفسه كرائحة الجيف . وسيره الطبيعي بطيء ومن العبث استحثاثه على الاسراع لانه لا يستطيع تغيير سيره .

واما الفنادق فلا وجود لها في تلك البلاد . وفي كل مدينة او قرية كبيرة بناية تدعى خاناً يحط فيها المسافرون . وهي مؤلفة من اربعة اجنحة في وسطها باحة . وغرفها صغيرة عارية ، لاشيء فيها سوى العقارب والغبار ؛ فصاحب الخان يعطي المسافر مفتاح احداها وحصيراً ، وعلى المسافر ان يهتم بما يحتاج اليه من اكل وشرب وفراش ؛ لاجل ذلك يحمل معه اينما ذهب فراشه ، وادوات مطبخه ومؤنته . ومن عادة الشرقيين ان يجعلوا عدة سفرهم خفيفة سهلة النقل . فما يأخذه معه مسافر يرغب في ان لا يعوزه شيء ، سجادة ، وفراش ، ولحاف ، وقدران الواحدة اصغر من الاخرى وصحنان ، وابريقان ، وابريق للقهوة ، ووعاء صغير من الخشب لحفظ الملح والبهار ، وستة فناجين بلا عروة تدمج بعضها في بعض داخل غلاف من جلد ، وسفرة مستديرة من جلد تعلق بالسرج ، وقرب صغيرة للزيت والماء والعرق اذا كان المسافر مسيحياً ، « وغليون » ، وقداحة ، وطاس ، وشيء من الارز ، والزبيب ، والتمر ، والجبن القبرصي ، والبن الاخضر ، ومحمصة ، وهاون خشب لسحق البن .

ان الشرقيين يفوقون غيرهم من حيث مقدرتهم على الاستغناء عن اشياء كثيرة استغناء مفيداً . فالاوربيون لا يكتفون بادوات السفر تلك ، بل قلّ ما يسافرون نظراً الى نفقاتهم الباهظة ، بينما نجد اكثر السوريين غنىّ لا يستنكفون من قضاء جانب من عمرهم على طريق بغداد ، او البصرة ، والقاهرة ، او الاستانة ؛ فاذا قلنا هذا الرجل تاجر ، فكأننا نقول هو مسفار .

فهكذا يتمكن التجار السوريون من شراء البضائع من مصادرها الاصلية باسعار ملائمة ، ومن المحافظة عليها بجلبها معهم ، وصيانتها من

التلف . وقد يتوصلون ايضاً الى نيل بعض الاعفاءات من المكوس والرسوم ، والى اتقانهم معرفة الاوزان والمكاييل التي تعقّدها وتباينها يجعلان المتاجرة في غاية الصعوبة ؛ فان كل بلد لها اوزانها ومكاييلها ؛ فرطل حلب يساوي نحو ست ليبرات ؛ ورطل دمشق خمس ليبرات وربع الليبرة ؛ ورطل صيدا اقل من خمس ؛ ورطل الرملة نحو سبع . واما الدرهم الذي هو اساس جميع هذه الاوزان ، فانه لا يتغير اذ هو واحد في كل مكان . واما المقاييس فليس منها الّا اثنان هما الذراع المصري ، والذراع الاستنبولي .

والنقود قيمتها ثابتة ، ويستطيع المرء ان يجول في جميع انحاء المملكة من غير ان تدعوه الحاجة الى ابدالها . واصغرها البارة التي تدعى ايضاً « معدناً » او « فضة » او « قطعة » او « مصرية » ويليها الخمس بارات ، والعشر ، والعشرون ، و « والزلطة » التي تساوي ثلاثين بارة ، فالقرش الذي يقال له ايضاً « القرش » الاسدي ، وقيمته اربعون بارة ، وهو الاكثر تداولاً ، ويليه قرش « ابو كلب » وقيمته ستون بارة .

وجميع هذه النقود يسبكونها من الفضة الممزوجة بكثير من النحاس . وليس على اي قطعة منها نقش يمثل هيئة انسان او غيره ؛ فلا يرى عليها سوى شعار السلطان وهذه الكلمات : « سلطان البرّين وخاقان البحرين السلطان بن السلطان ... ضرب في القسطنطينية او في مصر . » وهما المدينتان اللتان يضربون فيهما النقود .

واما القطع الذهبية فهي صنفان ، « الفندقلي » و « الزهر المحبوب » .

فتلك هي نقود الدولة ؛ لكنهم يتداولون ايضاً بعض النقود الاوربية كالريال الفضي الالماني ، وذهب البندقية الذي يرغبون فيه كثيراً ، لانه نقي المعدن ، فتتحلى به النسآء بثقب قطعه وجمعها في سلسلة من ذهب يدلينها من عنقهن الى صدرهن . وكلما اكثرت امرأة من تلك القطع والسلاسل ازداد زهوها ومباهتها .

هو حب الظهور الذي يدفعهن الى ذاك التبرج ، حتى الفلاحات ايضاً يحملن على هذا النمط ، بدلا من قطع الذهب ، قروشاً او نقوداً اخرى دون القرش قيمة . غير ان نسآء الطبقة الرفيعة لا يأبهن للقطع الفضية ، فلا يرغبن الا في الذهب البندقي ، او النقود الاسبانية الكبيرة فالبعض منهن يحملن منها مئتي قطعة او ثلاثمئة يدلين قسماً منها من عنقهن ، وقسماً يصففنه ثم يشددنه على جبينهن عند حاشية عصابتهن . فتلك القطع الكثيرة هي في الحقيقة وقر لكنهن يحملنها بطيبة نفس نظراً الى ما يشعرن به من فخر وارتياح عندما يعرضنها في الحمّامات مضرمات بها نيران الحسد والغيرة في قلوب اترابهن .

واما تأثير ذلك التبرج في التجارة فهو حبس مبالغ طائلة من المال عنها . فان اعيد المال بعدئذ الى التداول في الاسواق ، وزنت كل قطعة منه ليعرفوا مقدار النقص فيها من جرآء ثقبها .

ووزن النقود شائع في سورية ومصر وسائر بلاد الدولة ؛ فانهم يقبلون جميع النقود مهما طرأ عليها من تلف . لان التاجر يعمد الى ميزانه ، فيقدر قيمتها . والامر ذاته جرى عندما اشترى ابرهيم الخليل رمسه . ولدى تداولهم مبالغ ذات شأن ، يأتون بصراف ؛ فيعد الوف البارات طارحاً جانباً القطع المزيفة . واما القطع الذهبية فانه

يزنها كلها دفعة واحدة ، او كل قطعة بمفردها .

ويزاول التجارة في سورية الفرنج والروم والارمن . وكانت فيما مضى في يد اليهود . واما المسلمون فانهم لا يكترثون لها . واعراضهم عنها ليس ناجماً من خمول ، او مراعاة لعقائد دينية ، كما ظنه البعض . فانهم لا يبالون بها نظراً الى العراقيل التي وضعتها الدولة في سبيلها ؛ فان الباب العالي بدلاً من تفضيله رعاياه على غيرهم ، يؤثر الاجانب طمعاً في الربح . فبعض الدول الاوربية توصلت الى حمل الباب العالي على الرضى بمكس مقداره ثلاثة في المئة على البضائع التي تبعث بها الى بلاد الدولة ، بينما رعايا السلطان يؤدون سبعة حتى عشرة في المئة على بضائعهم .

والتجار الاوربيون المقيمون في سورية يتخذون وكلاء من الوطنيين اصحاب الطقس اللاتيني . وقد توصلوا الى اشراكهم في امتيازاتهم ، لاجل ذلك ليس للحاكم وعماله سلطة عليهم ، ولا يستطيع احد تغريمهم ، وان اريد مقاضاتهم نظر في امرهم ديوان القنصل .

وهؤلاء الوكلاء يعرفون في الشرق باسم « تراجمة اصحاب براءة » والبراءات يمنحها السلطان للسفراء المقيمين في الاستانة ؛ فكانوا يهدونها الى هؤلاء الوكلاء الوطنيين . لكنهم بدأوا الآن يبيعونها ، فيجنون منها ارباحاً لا بأس فيها ؛ فثمن الواحدة الفا قرش او الفان واربع مئة . وكل سفير يعطى خمسين براءة ؛ واذا مات صاحبها ، اخذ السفير براءة جديدة بدلاً منها .

ومن الاوربيين الرائجة تجارتهم كثيراً في تركية الفرنسيون الذين يتعاطون فيها بيع جوخ « لنغدق » (Languedoc) والدودة القرمزية

والنيلة ، والسكر ، والبن الاميركي ، والخردوات ، والحديد ، وصفائح الرصاص ، والقصدير ، وجدل مدينة ليون ، والصابون ، وغير ذلك .

ويتبضّعون من سورية غزل القطن ، والصوف ، ونسيجها الخشن .

وللفرنسيين وكالات تجارية (Comptoirs) في حلب ، والاسكندرون واللاذقية ، وطرابلس ، وصيدا ، وعكا والرملة . والبضائع التي يأتون بها سنوياً من فرنسة تساوي قيمتها ستة ملايين فرنك هاك توزيعها :

٣،٠٠٠،٠٠٠	على حلب
٢،٠٠٠،٠٠٠	على صيدا وعكا
٤٠٠،٠٠٠	على اللاذقية وطرابلس
٦٠٠،٠٠٠	على الرملة

وجميع تلك البضائع تصل عن طريق مرسيلية ، ولا يعني ذلك ان المدن الفرنسية الاخرى الواقعة على الساحل الابيض والمحيط ، لا تستطيع شحن البضائع الى الشرق ، وانما اضطرار السفن الى الرسو اربعين يوماً في محجر مرسيلية ، يجعل سفرها الى الشرق شاقاً وعديم الفائدة .

ومقاطعة « لفندق » التي تصنع اهم ما يبعث للشرق ، التمست غير مرة من اولياء الامر ان يجعلوا فيها ايضاً محجراً ، ليتسنى لها ان تتعامل رأساً مع تركية . غير انهم لم يلبوا طلبها ، حذراً من فتح جملة مرافئ في وجه وباء مخيف فتاك وامني به الطاعون .

وكانت الحكومة الفرنسية لا تجيز للغرباء ، ولاسيما الذين يفدون اليها من تركية ، انزال بضائعهم الى الارض ما لم يدفعوا عشرين في المئة مكساً عليها . فهذا الرسم عدلوا عنه في السنة ١٧٧٧ . بيد انهم في السنة ١٧٨٥ اعادوا الرسم المذكور الى ما كان عليه ، مراعاة

لرغائب تجار مرسيلية .

ان تجارة تركية مع الهند واوربة مضرة اكثر منها مفيدة ، اذ ان ما تبعث به تركية اليها ، جميعه مواد اولية يمكن استعمالها في الصناعة المحلية بارباح طيبة . ثم ان البضائع التي تأتيها منها ، ليست من الاشياء التي لا يمكن الاستغناء عنها بل ، هي من الكماليات التي تزيد في ترف الاغنياء وارباب المناصب ، ولربما آلت الى جعل حالة الشعب اكثر شقاء .

ففي دولة لا تراعي حقوق رعاياها ، تؤدي رغبة عمالها في الاكثار من وسائل الترفه ، الى اثارة الجشع ، وازدياد اعمال السلب والنهب . فالحصول اكثر فاكثر على الاقمشة النفيسة ، والفرآء والجدل الحريرية ، والشال الهندي ، يتطلب المال الوافر ، الذي لا يتسنى لهؤلاء احرازه الا بالنهب وفرض المغارم .



الفنون والعلوم

ان الفنون والصنائع في سورية يسيرة ، فهي لا تكاد تبلغ العشرين عدداً ، بما فيها تلك التي لا يمكن الاستغناء عنها .

فدين البلاد قد حرم الصور والتماثيل ، لاجل ذلك لا صور فيها ولا تماثيل ولا ما يتفرع منها من الصنائع . والمسيحيون هم وحدهم الذين يحتاجون الى الصور ليزينوا بها كنائسهم فيجلبونها من القسطنطينية .

ثم ان الكثير من صنائع اوربة الاخر لا اثر لها عندهم ، بما انهم ليسوا في حاجة اليها . فمثلاً اثاث منزل صاحبه غني مقصور على السجاد ، والحصير ، والمساند ، والوسائد ، والافرشة ، وشراشف قطنية صغيرة ، وصواني من نحاس وخشب تستعمل موائد ، وقدر ، وهاون ، ومطحنة ، صغيرة سهلة النقل ، وصحون من خزف صيني ، او نحاس مبيض . واما البسط ، والمتكآت ، والمرايا ، والمكاتب والخزائن ذات الادراج ، والكبيرة منها ، والتي تحفظ فيها ادوات المائدة من فضية وغير فضية ، فذلك كله لا وجود له عندهم .

وملابسهم التي نفقاتها ليست بيسيرة ، لا ازرار لها ، ولا ابازيم ، ولا شيء من تلك الاشياء التي لا بدّ منها للاوربيين . فهي مؤلفة من سروال كبير واسع ، يقوم في آن واحد مقام الجوارب ؛ ومن قطعة من النسيج يعتمرون بها ؛ وقطعة يشدونها على وسطهم ، وثلاثة اثواب يلبسونها الواحد فوق الآخر على منوال المماليك [1] .

---

(1) يلبس المملوك قميصاً قطنياً اصفر اللون ناصعاً ، ولباساً من النسيج الهندي

ففنونهم وصنائعهم تقتصر على نسيج الحرير في دمشق وحلب ، وصياغة حلى النسآء ، وصنع « الظروف » المخرمة ، وتزيين السروج و « الفلايين » . فلا يرى في اسواق تينك المدينتين سوى ندّافين ، ونسّاجين ، وحلاقين ، ومبيضين ، وحدادين ، وسرّاجين ، وصناع اقفال ، وخبازين ، وجزّارين ، وباعة الحبوب والتمر والمعجنات ، وتجار خردوات ، « وقرداحيين » . واما البارود فان الحاجة اليه جعلت معظم القرويين يلمّون بطريقة صنعه ؛ وليس له معمل خاص .

ويكتفي القرويون بالصنائع الاولية التي لا غنى لهم عنها . وكل منهم يجتهد في ان لا يحرز الّا ما هو في حاجة اليه . وكل اسرة تصنع من نسيج القطن الخشن ما يلزمها لاجل كسوتها . وكل بيت فيه مطحنة سهلة النقل ، تطحن بها النسآء الذرة والشعير اللازمين لاقتيات اهل البيت . وما يخرج

او الدمشقي الخفيف او الحلبي . فهذا اللباس يدعى « عنتري » ويصل حتى الكعب ، ويرتد من الامام على الوركين ، فيربط هناك بحزام . ثم يليه لباس آخر من ذات الشكل والصنف ، له كمان متدليان حتى اطراف الاصابع ، اسمه « قفطان » يصنع عادة من الحرير ، وهو افخر من « العنتري » ويشد زنار طويل على الوسط فوقه . ثم يأتي لباس ثالث يدعونه « الجبة » ويصنعونه من الجوخ ، لا بطانة له ، شكله واحد ؛ غير ان كميه مقطوعان عند الكاع ؛ ففي فصل الشتآء واحياناً في الصيف يركبون عليه فروًا . ويضع المملوك فوق تلك الملابس الثلاثة ، لباساً آخر اسمه « بُنُش » (كلمة تركية تعني الجبة كما نفهمها اليوم) وهو الردآء الرسمي ، فيغطي به جميع الجسم بما فيه اطراف الاصابع التي لا يجوز اظهارها امام الكبرآء . فحينئذ يشبه جسم الانسان كيساً يبرز منه عنق عار ، ورأس محلوق ، تغطيه عمامة من شاش يلفونها بشكل مقرن على قلنسوة صفرآء اسمها « قاوق » .

(من كلام فولني على مماليك مصر) .

من تلك المطاحن ليس دقيقاً تاماً . وخبزهم قليل الاختمار سيء الخبز ، ولكنهم يعيشون عليه . ذلك كل ما يبتغونه .

وقد رأينا كم هي تافهة نفقات عُدد الفلاحة . وفي الجبال لا يشذبون الكرم ، ولا يأبرون الشجر . وجميع ما تراه هنالك يُمثل لك ما كانت عليه الشعوب في العصور الاولى ، واذا سألت احدهم عن الباعث على هذا التقهقر بل النقص في البضائع ، اجابك : ما لدينا منها جيد وكاف لنا ؛ فما الفائدة من ان نعمل اكثر من ذلك .

وطريقة ممارستهم تلك الصنائع لا تختلف عما كان متبعاً فيها قديماً . فنسيج الحرير في مدينة حلب ليس من ابتكار العرب ، بل اخذوا صناعته عن اليونان الذين تعلموها من الشرقيين الاقدمين . والاصبغة التي يستعملونها ابتدعها الصوريون الاولون ، وهي ما زالت على درجة من الاتقان تشيد بعبقرية مخترعيها الاصليين . والصناع الصوريون يحرصون جدّ الحرص على اساليبهم ، فيجعلونها سرّاً غامضاً ، لا يبوحون به الى احد .

والطريقة التي كانت متبعة قديماً في تلبيس عدد الخيل بالصفيح الصلد لصونها من مفعول ضربة السيف ، هي نفسها المتبعة الآن في مدينتي حلب ودمشق لصنع حمائل اللجم [1] .

وقشور الفضة التي يغشون بها السيور ، تثبت عليها بلا مسامير ، فيركبونها على الجلد باسلوب يحفظ له مرونته ، من غير ان يترك فراغاً بين قشرة

(١) يقول فولني في حاشية : انه رأى مماليك مصر يعرضون كل سنة في اثناء طواف المحمل دروعاً ، وبيضات ، وسواعد من الزرد ، واعتدة اخرى وآنية مصنوعة من الزرد ايضاً ، يرجع عهدها الى الصليبيين . ويوجد من تلك الاعتدة في جامع الدراويش ، الواقع على شاطئ النيل على مسافة فرسخ من القاهرة .

واخرى ، لئلا يسهل على حد السيف حزه .

والملاط الذي يستعملونه ، قد استعمله قبلهم اليونان والرومان . ولكي يكون مزجه حسناً ، لا يأخذون الجير إلّا وهو في حالة الغليان ، فيضيفون اليه مقدار ثلثه من رمل ، وثلثيه من رماد واجر مسحوق . وبهذا الملاط يبنون الآبار والصهاريج وقبباً لا ينفذ الماء منها .

وفي فلسطين يبنون القبب باساطين من الاجر ، طول الاسطوانة ثماني اصابع او عشر ، قطرها من داخلها اصبعان ، وشكلها مخروط خرطاً خفيفاً ، وطرفها الاوسع مفتوح ، والآخر مسدود ؛ فيصفُّونها جاعلين طرفها المسدود خارجاً ، ويصلون بعضها ببعض بجصّ القدس او نابلس ؛ وفي وسع اربعة من البنّائين اتمام قبة حجرة في يوم واحد . واذا نفذت منها الامطار الاول ، طلوها بالزيت فلا يعود الماء يخترقها . ويسدون افواهها الداخلية بطبقة من الجص ، فيمسي السقف متيناً وخفيفاً في آن واحد .

وفي سورية يبنون بتلك الاساطين حواشي السطوح ، ليحجبوا عن النظر النساء اللاتي يغسلن او ينشرن الثياب . وقد بدأ الفرنسيون يستعملونها في باريز بعد ما استعملها الشرق منذ اقدم العصور .

والصهر في لبنان طريقته قديمة وسهلة ، فالكور ان هو الّا ثقب له شكل مدخن ، في جنب ارض عمودية ؛ فبعدما يملأونه حطباً ، ويشعلونه نافخين عليه من اسفل ، يلقون فيه المعدن من فوهته العليا ؛ فيسقط المعدن كُتلًا الى قعر الثقب ، فيسحبونه حينئذٍ من الفتحة التي اشعلت النار منها .

وفي الشرق حتى مزالج الابواب الخشبية قديمة جداً ، وقد ذكرها سليمان في نشيده .

واما موسيقاهم فانها لم تسبق عصر الخلفاء ، وهو عصر الاعتناء بها اكبر

اعتناء . وبما ان اصولها اخذت عن اليونان ، فالراغبون فيها يجدون المجال فسيحاً للاسترسال في درسها . ولربما كانت القاهرة المدينة الوحيدة التي تتقن اصولها . ولدى المشايخ مجاميع دونت فيها الالحان بعلامات اسماؤها فارسية ، لا شبه بينها وبين علامات الموسيقى الغربية .

وقد جعلوا موسيقاهم باجمعها غنائية . فهم على صواب في ذلك ، لان آلات الطرب ، بما فيها الناي ، لم تبلغ عندهم درجة الاتقان . ثم انهم لا يعرفون من العزف سوى مطابقة الاصوات ونقر الوتر الواحد .

انهم يحبون الغناء بالصوت المفرط في جميع مقاماته ، وهو صوت لا يقوى على تحمل مجهوده الا من كان قوي الصدر مثلهم .

وانغامهم من حيث طابعها وضربها تختلف عن الانغام الاوربية . ما عدا الاسبانيولية منها التي يدعونها (Seguedillas) . والتدرج الصوتي عندهم اتقن مما هو عليه حتى عند الايطاليين . وتبدلاتهم الصوتية من المتعذر على حنجرة الاوربيين ترديدها . وعبارات اغانيهم تصحبها تنهدات وحركات تمثل العواطف بشدة . ويمكن القول انهم يتقنون النوع المحزن . فان رأيت احدهم حاني الرأس ، ويده على خده ، وعيناه ذابلتان ، وسمعت نغمه الحزين ، وتنهداته ، وزفراته ، لم تقوَ على حبس دموعك من شدة انفعالك ، وقد تكون تلك الدموع ذات جاذبية ومرغوباً فيها ، لانهم لا يحبون من الانغام الّا تلك التي تحمل العين على ذرفها .

والشرقيون ينظرون الى الرقص نظرة الاستقباح ، بما انهم يعدون ذلك الفن شائناً . وما من رجل يستطيع الاقدام عليه من غير ان يلحقه العار . ولا يجوز الّا للنساء القيام به . فالرقص في الشرق لا يرمز الى الحرب كما هو عند اليونان ، ولا يتألف من حركات مرتبة لطيفة كما هو عند الافرنج ؛

بل هو تمثيل مجوني بذيء ؛ هو الرقص ذاته الذي ادخله العرب في اسبانية ، وما زال فيها حتى اليوم ، وهو المعروف هنالك باسم « فندنغو » (Fandango) وقد يصعب علينا وصفه وصفاً صحيحاً من غير ان نثير الاشمئزاز والكراهة . وكفى القول ان الراقصة تبسط ذراعيها بشكل غرامي ، وهي تغني وتضرب بصُنَيجات (فُقَيشات) قابضة عليها بانامليها ؛ ومن غير ان تنتقل من مكانها تأتي حركات تمجها النفس .

فالاقدام على مثل هذا الرقص جهاراً يتطلب جسارة بل قحة لا يرضى بها الّا العواهر . فالنسآء اللآتي يتقنه يدعين « عوالم » ، واشهرهن عوالم القاهرة ؛ فملابسهن الصفرآء ، وبشرتهن السمرآء ، وجفونهن السودآء ، وشفاههنّ الزرقآء ، واياديهن المخضبة بالحنآء ، كل ذلك قد ذكّر ڤولني براقصات احدى ضواحي باريز التي كان الناس يختلفون الى حاناتها . فاذا كانت هؤلآء النسآء فظآت غليظات حتى في الشعوب الاكثر رقياً ومدنية ، فكيف بهنّ في الشعوب التي اسهل الفنون ما زالت في طور الطفولة عندها .

والعلوم في الشرق ليست احسن حالاً من الفنون ؛ فهي في اقصى درجة من التقهقر ، ليس فقط في مصر وسورية ، بل ايضاً في سائر البلاد العثمانية ؛ وعبثاً حاول بعضهم انكار هذه الحقيقة استناداً الى مدارس ومعاهد جآءوا على ذكرها فهاتان اللفظتان ليس لهما ذات المدلول الذي ينسبه اليهما الاوربيّون .

فعصر الخلفآء مضى وانقضى ، وعصر الاتراك لم يبدأ بعد : فتلك البلاد ليس فيها الآن مهندسون ، ولا فلكيون ، ولا موسيقيون ، ولا اطبآء . وقلما تجد فيها من يعرف الفصاد . والتطبيب هنالك مقصور

على الكي وبعض العقاقير . وكيف يمكنهم ان يتعلموا الطب ، وليس في البلاد معهد يُلقَّن فيه . وقد يميلون الى علم الفلك ، رغبة منهم في معرفة الغيب والمستقبل من حركات الاجرام الفلكية . الا انهم لا يحفلون بالعلم العويص الذي يشرح تلك الحركات بالاستناد الى علم الحساب .

ورهبان دير مار يوحنا الشوير الذين عندهم كتب ، ولهم صلة بروما ، لم يسمعوا قط قبل مجيء ڤولني واقامته بين ظهرانيهم ، ان الارض تدور حول الشمس . وكاد ذلك القول يشككهم ، لان ذوي الغيرة والورع منهم كانوا يعدونه مخالفاً للكتاب المقدس ، وكادوا يحسبون ڤولني كافراً زنديقاً لو لم يساور الريب النائب العام الذي قال لهم : يجب ان لا نكذب الافرنج ، ولو اننا لا نصدق كل ما يقولونه ؛ فان ما يأتوننا به من فنونهم يفوق فنوننا بمراحل ؛ ففي وسعهم ان يروا ويتفهموا ما تعجز عقولنا عن ادراكه . واما ڤولني فيقول انه خرج من هذا المأزق بالقاء تبعة دوران الارض على عاتق علماء بلاده الذين يعدهم هؤلاء الرهبان خياليين .

فالبون اذاً شاسع بين عرب هذا العصر وعرب هارون الرشيد والمأمون، حتى حقيقة امر هؤلاء هي دون ما نتصوره عنهم . فان دولتهم لم تدم طويلاً حتى يتاح لهم ان يتقدموا في العلوم تقدماً كبيراً . فما نشاهده في بعض البلاد الاوربية ، يثبت لنا انها ما زالت تفتقر الى عدة قرون لكي تصل الى الدرجة المثلى من الثقافة .

أوليس ما في كتب العرب معرَّباً عن اليونان ، وصدًى لما قاله او كتبه هؤلاء ؟ واما العلم الوحيد الذي هو خاصتهم دون غيرهم وما زالوا يعتنون به ، فهو علم لغتهم ، اي ذلك العلم الفلسفي الذي يبحث عن اصل الكلمات ومعناها للاستدلال منها على تاريخ الافكار ، بقصد

اتقان فن التعبير الوصفي .

فدرس الصرف يستغرق عدة سنين ؛ ويليه النحو ؛ وهو علم خاص بالاحوال المختلفة المتواردة على آخر الكلمات بحسب معناها وتركيبها . فمن يتعلم ذلك يعد عالماً . ويأتي من ثم البيان ، وهذا ايضاً يستوعب درسه السنين الطوال ، لان المعلمين يبخلون بعلمهم ، فلا يبوحون به الّا نتفاً نتفاً ، ثم يشرعون في درس الشريعة والفقه ، الخ . . .

ورجال الدين هناك ليسوا كالكهنة والقسس الذين في اوربة : فهم لا يعظون ولا يرشدون ؛ لاجل ذلك لا يشعرون بحاجة الى اتقان اللغة العامة التي درسها ليس متيسراً ، لان لا قواعد لها .

وتعليم الاولاد حتى سن المراهقة يقوم بقرآءة القرآن للمسلمين ، والمزامير للمسيحيين ، وبشيء من الكتابة والحساب ؛ فيبادرون بعدئذٍ الى اتخاذ حرفة ، لكي يتزوجوا ، ويكسبوا ما يقوم بمعاشهم .

ووباء الجهل قد اعترى هناك حتى ابناء الفرنج انفسهم . ومن الاقوال المألوفة في مرسيلية ان الشاب الاوربي الاصل ، المولود في الشرق ، خامل كسلان ، لا يعرف سوى التكلم بعدة لغات .

وقد عزا بعضهم هذا الجهل في البلاد الشرقية ، الى صعوبة اللغة وكتابتها . ولا شك ان صعوبة اللهجات واشتباك الحروف يزيدان في عسارة تعلم اللغة وكتابتها . غير ان الاعتياد يتغلب عليهما ، فيتوصل ابناء العرب الى القرآءة والكتابة مثل الاوربيين .

واما السبب الحقيقي فهو قلة وسائل التعليم ، ولا سيما الافتقار الى الكتب ، فالكتب كثيرة في اوربة ، وما من شيء فيها اكثر انتشاراً من القرآءة . واما في سورية فانهم لا يعرفون سوى مجموعتي كتب احداهما

في دير مار يوحنا الشوير التي مر بنا ذكرها ، والاخرى عند احمد باشا الجزار في عكا . وقد رأينا كيف كانت الاولى ناقصة من حيث الكمية والنوع . واما الثانية ، فالذين رأوها قالوا ان عدد كتبها لا يتجاوز الثلاثمئة ، وهي كل ما تسنى للجزار غنمه من جميع البلاد السورية . بما في ذلك خزانة دير المخلص الواقع على مقربة من صيدا ، وخزانة الشيخ خيري مفتي الرملة .

وفي حلب بيت البيطار هو وحده الذي فيه كتب تبحث من علم الفلك . والقاهرة غنية بالكتب ويوجد فيها مجموعة كبيرة قديمة جداً في الجامع الازهر . غير ان تداولها وقراءتها محظوران على المسيحيين .

وحوالي سنة ١٧٧٢ اراد رهبان دير ما يوحنا الشوير شراء بعض الكتب ، فاوفدوا احدهم الى القاهرة لتلك الغاية . وقد اتفق له ان يتعرف هنالك باحد المتعلمين الذي تودد اليه . ظانه متضلعاً من علم الفلك ، فرغب ذاك المتعلم ان يأخذه عنه ، فجعل يقرضه الكتب . ففي ستة اشهر تسنى للراهب ان يطلع على نحو مئتي مجلد موضوعها الصرف والنحو والبيان وشرح القرآن ، وبعض التاريخ والحكايات ؛ ولم يرَ سوى نسخة واحدة من كتاب « الف ليلة وليلة » .

فيتضح اذن ان الشرق يفتقر الى الكتب ، ولا سيما العلمية منها ، وما ذاك الا لان الكتب هنالك خطية ؛ فنسخ كتاب واحد عمل بطيء مضن غالي الاجرة ، وقد يدوم عدة اشهر . فمن الصعب والحالة هذه ان تتوفر الكتب وتنشر العلوم . واما في اوربة فالامر ليس كذلك ؛ فالطباعة الرائجة فيها كانت هي وحدها الباعث على الانقلابات التي طرأت عليها منذ ثلاثمئة سنة ؛ وهي التي بتعميمها الكتب ، ونشرها الافكار

واذاعتها الاكتشافات والاختراعات ، ساعدت على نمو العلوم والفنون نمواً سريعاً ، اذ جعلتها سهلة المنال لجميع طبقات الشعب . ومطبعة دير مار يوحنا الشوير مع كل ما تفتقر اليه لتبلغ درجة الاتقان ، قد ادخلت على حالة المسيحيين تحسيناً جماً من حيث القراءة والكتابة وبعض الثقافة .

فقلة الكتب وفقدان وسائل التعليم ، هما ، كما أبدينا ، سبب الجهل المستحوذ على الشرق ، لكنهما سبب عرضي ؛ واما السبب الاصلي فهو الدولة نفسها التي تبذل قصارى جهدها لخنق العلوم في مهدها . فطريقة الحكم في الشرق تزيل من الشعب امل الانتفاع من العلوم والفنون . فالمرء هنالك ، وان كان ذكياً نابغاً ، ولا فرق بينه وبين امهر مهندسي اوربة وعلمائها من حيث علمه وثقافته ، فانه لا يلبث ان يفقد نشاطه بتأثير الجور السائد . فاذا كان العلم الذي لا يمكن الحصول عليه الا بمنتهى التعب والمشقة ، يجلب الضرر والاسى ، فالافضل الاعراض عنه . لاجل ذلك ترى الشرقيين في هذا العصر اميين بمفعول ذات العامل الذي يجعلهم فقراء ، فيقولون في العلوم ، كما يقولون في الصنائع والفنون : ما الفائدة من جهودنا فيها .



عادات السوريين وبعض طباعهم

قال ڤولني :

عندما يصل الاوربي الى سورية او الى اية ناحية من نواحي الشرق ، يسترعي انتباهه بادئ ذي بدء التفاوت الذي بيننا وبين سكانها ، وهو تفاوت قد يبدو كأنه قد جعل عن قصد : فنحن نلبس الثياب القصيرة ، وهم يلبسون منها ما هو طويل فضفاض ؛ نحن نعفو شعر رؤوسنا ، ونحلق ذقوننا ، وهم يتركون شعر ذقونهم يطول ، ويحلقون رؤوسهم ؛ نحن نعدّ حسر الرأس دليل الاحترام ، وهم يحسبون ذلك من امارات الجنون ؛ نحن نحيّي بالانحناء ، وهم يحيّون منتصبين ؛ نحن نقضي العمر وقوفاً وهم يقضونه قعوداً ؛ يأكلون وهم متربعون على الارض ، ونأكل ونحن جالسون على الكراسي حول الموائد .

وذلك التباين تراه حتى في الامور المتعلقة باللغة ، فيكتبون بعكس كتابتنا ، ومعظم الاسماء المذكرة عندنا ، مؤنثة عندهم . فعلى المتبحرين في العلوم الفلسفية ان يبحثوا عن مصدر تلك العادات المتباينة في بشر احتياجاتهم واحدة ، واصل منشإهم واحد .

ومما يجدر ذكره ذاك الظاهر للامح واحاديث وحركات سكان تركية الدال على الورع والتقوى . فلا يرى في الطريق والاسواق الّا اناس في اياديهم السبح ، ولا تسمع الّا ابتهالات مفخمة موجهة الى الله تعالى . ويطرق اذنك على الدوام صوت جشاة مضجّة يتبعها ذكر صفة من صفات الله التسع والتسعين . واذا ما باعوا الخبز او الماء او غير ذلك ، نادوا « ياكريم » ، واذا حيّوك او شكروك ، قالوا : الله يحفظك .

—

وفي طباع الشرقيين امر آخر يسترعي الانتباه ، وهو هيأتهم التي تظل هادئة ساكنة ، مهما قالوا او فعلوا ؛ وبدلاً من الوجه الطلق البشوش الذي لأبناء قومنا ، ترى ملامحهم رزينة عابسة كالحة ؛ فقلما يضحكون . ويعدون مرح الفرنسيين من عوارض الجنون . وان تحدثوا تكلموا ببطء بلا حركة ولا عاطفة . ويصغون الى محدثهم من غير ان يقاطعوه . ويلازمون الصمت اياماً كاملة . واذا ساروا مشوا بخطى ثابتة وجرياً وراء عمل او غرض .

انهم لا يدركون شيئاً من مداعبتنا ونشاطنا . ويقضون سحابة يومهم في التفكر والتأمل ، وهم متربعون ، وحلمة الغليون في ثغرهم ، كأن الحركة تؤلمهم وتتعبهم ، او كأن القعود هو في نظرهم احد عناصر السعادة كما يظن الهنود .

ومن ثم يبحث ڤولني بدقة عن الباعث على ذلك السكون عند الشرقيين ، وينتقد ما ادّعاه كاتب شهير بالاستناد الى اقوال الرومانيين واليونانيين ، عن حب الاسيويّين لعيشة التنعم ، والى رواية المسافرين العائدين من الهند في شأن بلادة الهنود وفشلهم . وقدخيل الى ذلك الكاتب ان الفشل طبع من طباعهم ، ومصدره او الباعث عليه هوآء بلادهم ، فقال ان سكان البلاد الحارة معدمو النشاط جسماً وفكراً . وقد ذهب الى ابعد مدى في استدلاله ، زاعماً ان استبداد الحكم عندهم ناجم عن بلادتهم ؛ فاستخلص من ذلك ان الحكم الاستبدادي ملائم بل ضروري لهم .

تلك كانت النظرية التي جاء بها « مونتسكيو » في كتابه « روح الشرائع » . ولاظهار فساد هذا الرأي يقول ڤولني : هل كان الاشوريون شعباً فاشلاً ، وهم الذين اقلقوا آسية بحروبهم مدة خمسة قرون . وماذا

نقول في المديّين الذين خلعوا نير الاشوريين ، وانتزعوا الحكم منهم ؛ او في فرس كسرى الذين توصلوا في برهة ثلاثين سنة الى الاستيلاء على جميع البلاد الواقعة ما بين بحر الروم ونهر الاندوس ؛ فهل كانوا ضعاف الهمة معدمي العزيمة ؛ أيجوز ان نقول ان الفينيقيين الذين سيطروا عدة قرون على تجارة المسكونة ، او التدمريين الذين خلفوا للاجيال التي اتت بعدهم الآثار القديمة الخالدة ، كانوا جميعهم افشالاً ، لا حماسة فيهم ولا نشاط ... اذن لماذا لم يؤثر فيهم حر بلادهم ؟

ويعتقد ڤولني ان بلادة امة او نشاطها ينجمان عن خصب بلادها او جدبها ؛ فان تيسّر لها ان تجني بسهولة ما تحتاج اليه في معيشتها ، تضاءل نشاطها . فالحاجة والفاقة هما مصدر الطبعين المتباينين ؛ فان معظم بلاد الغزاة قاحلة ، تقصر عن القيام بمعاش سكانها . فلاجل ذلك كانت البلاد الخصبة تستثير فيهم عوامل الطمع .

ويقابل من ثم سكون الشرقيين او ما يدعوه « برودتهم » (flegme) بجذل الفرنسيين ، وميلهم الى المداعبة ، ويبحث عن اسباب ذلك ، فيجدها في الاكل والشرب ومعاشرة النسآء . فالخمر محرم على الشرقيين شربها . والاكل الطيب الدسم يؤدي بهم الى المعيشة الخاملة التي تؤثر التلذذ . واما مخالطة النسآء فهي امر تحول دونه العادات والاعتقادات . لان النسآء في الشرق محجور عليهنّ ؛ فلا يستطعن مقابلة احد من الرجال ما عدا ازواجهنّ وآباءهنّ واخوتهنّ واحياناً ابناء عمومتهنّ . ويعددن جميع الرجال غربآء عنهنّ ، فلا يجرؤن على محادثتهم . ومن الامور المخلة بالادب التحديق اليهنّ . والمحتوم تركهن يسرن على حدة ، بغير الاكتراث لهنّ او الالتفات اليهن .

ثم ينتقل ڤولني الى البحث عن تأثير ذلك كله في اخلاق النساء الشرقيات ، ومعاملة الرجال لهنّ ، ثم يقول : يحسب الشرقيون العقم عاراً ، وكثرة النسل امراً مرغوباً فيه ، فيشبهون من هذا القبيل الاقدمين ؛ ومن احسن عبارات التمني التي يمكن قولها لفتاة ، ان تصير عروساً وترزق الكثير من البنين . فذلك ما يحملهم على الابكار في الزواج . وكثيراً ما يُعقد زواج فتاة في التاسعة او العاشرة من عمرها ، على فتى لا يتجاوز سنّه الاثنتي عشرة او الثالثة عشرة من السنين . وقد يحملهم على التبكير في الزواج الخوف من السقوط في لجة الدعارة والفجور .

ثم يذكر شيئاً عن تعدد الزوجات ، وينقل ما قيل له في ذلك الشأن ، ويقابل المسلمين بالمسيحيين ، فيفضل اولئك على هؤلاء . ويقول : ما افضتُ في شرحه عن اخلاق الشرقيين يوضح باجلى بيان ان العيشة على نمط واحد تؤثر في اخلاقهم ؛ فان وسائل التسلية في الاماكن التي هي اكثر نشاطاً من غيرها ، كحلب ودمشق والقاهرة ، تقتصر على الذهاب الى الحمّامات والاختلاف الى المقاهي حيث يقضون سحابة يومهم في التدخين والتحادث عن اشغالهم بعبارات نادرة وجيزة . وقد يجيئهم احياناً شادٍ او رقّاصة او قصّاص يروي لهم الحكايات ، او ينشد قصيدة من نظم احد الشعراء الاقدمين ؛ فيصغون اليه بمزيد الانتباه . والناس هنالك ، من صغار وكبار ، مولعون بالقصص والروايات ، والشعب نفسه يتناقلها في ساعات الفراغ .

والمسافر الذي يركب البحر من اوربة ، يأخذه العجب اذا ما رأى البحّارة مجتمعين في اوقات الهدوء او فترات الاستراحة حيث يقضون ساعتين او ثلاث ساعات في الاستماع لما يقوله احدهم . ولا يصعب على

ذاك المسافر ان يعرف مما يطارق اذنه من قوافٍ وقياس متتابع انهم يصغون الى قصيدة ·

ويعترف ڤولني ان الشرقيين امهر من الغربيين في نظم القريض ، وارقّ منهم شعوراً في امور اخرى . فعامة الشعب في المدن ، ولو انهم مجابون صيَّاحون ، الَّا انهم ليسوا قساة القلوب كسكان المدن في الغرب · ومما يستحقون من اجله كل ثناء واطراء ، خلوهم من تينك العادتين القبيحتين ، اعني بهما السكر والميسر . وقد يميلون الى لعب الشطرنج ، والبعض منهم يتقنونه تمام الاتقان ، ولا يعرفون من مناظر التسلية الا نوعاً واحداً مألوفاً في القاهرة دون غيرها ، وهو الذي يقوم بتمثيله مشعوذون قد حذقوا فيه : فتراهم يأكلون الحصى ، ويخرجون النار من افواههم ويثقبون اذرعهم وآنافهم من غير ان يشعروا بألم ، ويأكلون الافاعي ·

فتلك الشعوذات يقومون بها بطرائق واساليب يخفونها على الناس ، والشعب يُجلّهم ويعجب من مهارتهم · والكثيرون يؤمنون ايماناً ثابتاً بحقيقة ما يشاهدون ؛ والشرقي ميّال الى تصديق كل ما يقال له ، فهو حتى اليوم يؤمن بالعفاريت والجان ·

ويُطري ڤولني ذكاء الشرقيين ، وحديثهم الحلو ، وعواطفهم الحارة ، وإلمامهم الصحيح بالاشياء التي يعرفونها ، وميلهم الى التعبير بوجيز الكلام عما هو حق وصواب ؛ فالامثال التي يتناقلونها والحِكَم التي يُرددون قولها ، تدل على انهم يعرفون كيف يجمعون بين دقة الملاحظة وغموض المعنى ولواذع التعبير ·

ويعترف هو نفسه بان عشرتهم عذبة جذابة ، وان السيَّاح والتجار الاوربيين الذين عاشروهم يجمعون على الاقرار بانهم يفوقون الاوربيين

برقة طباعهم ، وكرم اخلاقهم ، وسلامة طويتهم ، ولطافة معاملتهم .

ثم يختم ثولاني هذا الفصل ، بل كتابه كله ، عن سورية ، بوصفه التأثير الذي شعر به اذ وطئت قدماه ارض الوطن ، بعد غياب دام ثلاث سنين ، فيقابل الخراب المنتشر في الشرق بعمران بلاده ، فيقول: لقد استحوذت علي الدهشة اذ اجتزت باراضينا المنبسطة بين ساحلي البحر المتوسط والبحر المحيط ؛ فبعد تلك القرى الخربة والصحارى الواسعة التي اعتدت رؤيتها ، وجدت نفسي قد انتقلت بغتة الى جنة لا نهاية لها ، فيها الحقول المزروعة ، والمدن المأهولة ، والمساكن الرائعة ، وهي تتوالى بلا انقطاع مسير عشرين يوماً . ولدى مقابلتي مبانينا الجميلة بالبيوت الحقيرة التي غادرتها المشيدة بالاجر والتراب ؛ ومدننا ذات المنظر الدال على الاعتناء والغنى بالمدن الشرقية الخربة المهملة ؛ وبلاد الدولة العثمانية الفقيرة المضطربة الاركان ، ببلادنا التي تفيض عليها الخيرات ، ويرفرف في سمائها الامان والاطمئنان ، ويشير كل ما فيها الى عظم قدرتها وثروتها ؛ شعرت في نفسي كأني انتقل من الاعجاب الى الحنان ، ومن الحنان الى التأمل والتفكير ؛ فقلت بيني وبين نفسي : لماذا هذا التفاوت العظيم بين ارضين حبتهما الطبيعة بمواهبها على السواء ! ولماذا كل هذا الاجتهاد والنشاط ههنا ، وكل ذلك الجمود والخمول هنالك ! ولماذا هذا الفرق الكبير بين بشر ابناء جنس واحد ! ثم تذكرت ان تلك الاصقاع التي رأيتها مقفرة خربة متوحشة ، كانت في العصور الخوالي مزدهرة ، آهلة ، عامرة ؛ فتطرقت غصباً مني الى مقابلة ثانية ، وقلت : فان كانت الدول الاسيوية البائدة هي ايضاً قد حازت ، في سالف الزمان ، مثل ذلك البهاء والرخاء ، ألا يمكن ان ما نزل بها بعدئذ من الغوائل والنكبات ،

يصيب ذات يوم الدول الاوربية نفسها . فذاك الفكر اقلقني واحزنني، لكني رأيته لا يخلو من الفائدة . لنفرضَ اذاً ان نذيراً جاء مصر وسورية اذ كانتا في اوج عزهما ومجدهما ، وانبأهما بانهما ستقاسيان من الرزايا والبلايا ما تعانيانه اليوم ؛ ولنفرضْ ايضاً انه قال لهما : «ستدفعكما هذه الشرائع وهذا الحكم الى اسفل دركات الذل والهوان .» اليس من المرجح انهما تكونان فعلتا ما تستطيعانه لاجتناب مثل هذا السقوط . فالشيء الذي لم تفعلاه حينئذٍ ، في وسعنا فعله الآن . وليكن مثلهما امثولة لنا . ومن فوائد التاريخ ان ما حدث في الماضي من شأنه ان يسدد خطانا . والرحلات التي نقوم بهـا الى هاتيك البلاد فوائدها عظيمة ، لانها تتيح لنا ان ننعم النظر في أحوالها ، وندرك حقيقة امورها ونتفهم حوادثها في مجموعها ، ونستقصي كل علاقة من علائقها ، ونُلِمّ بجميع اطوارها ، محلّلين الادوار التي يقوم بتمثيلها نظام سياستها . فان ما يرويه الرائد عن البلاد التي اجتاز بها متفقداً ما فيها ، يصبح الدليل على عوامل ارتقائها وانحطاطها ، بل الوسيلة التي تمكّن من معرفة الحد لكل سلطة . وتركية من هذا القبيل بلاد ذات فوائد جمة ؛ ومـا شرحته منها يدل باجلى بيان على مدى الاضرار الناجمة عن السلطة التي يساء استعمالها ، اذ عاقبتها شقاء الافراد وتلاشي شوكة الحكم . ومن اواضح الذي لا ريب فيه ان خراب امة يعود بالويل على مسببه . لاجل ذلك يجد الحكام عقاب تغافلهم وجرائمهم في بؤس وسوء حال الشعب الذي يسوسونه .

ملحق

في

بعض مظالم الجزار

فيما يلي وصف لبعض الحوادث التي جرت في سوريا بعد رحيل فولني ، وكان بطلها احمد باشا الجزار . وقد آثرنا ذكرها هنا اتماماً للفائدة . واما الكتب التي اعتمدنا عليها ، فهي : « تاريخ سوريا ولبنان » لمخايل الدمشقي – « ساحرة الصحراء » للسيدة ب. هنري بوردو – « مختصر تاريخ مصر » للمؤرخ دي هنو « قطف الزهور في تاريخ الدهور » ليوحنا ابكاريوس .

عانت البلاد السورية الاهوال من احمد باشا الجزار ؛ ففي ابان حكمه الطويل اذاق السوريين من الجور والعسف ما يقصر القلم عن وصفه . فالرجل مال منذ حداثته الى سفك الدماء ، وقد رأينا مما كتبه فولني كيف كان مولاه علي بك المصري يستخدمه للقضاء على الخصوم والمناوئين . ومع حداثة سنه كان الكبار والصغار يخافونه ملقبين اياه « بالجزار » ، وهو الاسم الذي عرف به فيما بعد ولازمه كل عمره . انه لم يكن فقط غليظ الكبد ، مجرداً من كل عاطفة بشرية ، بل كان ايضاً كنوداً منافقاً ، لا يراعي لصديق ذمة ، ولا لحليف ولاء ، ولا لقسم حرمة .

وكان الحكام في ذلك العهد مطلقي السلطة ، يتصرفون بشؤون البلاد وارواح العباد كما تملي عليهم اهواؤهم من غير ان يحاول احد مناقشتهم

الحساب ، او يجرؤ على ان يردعهم . ومن سوء طالع سورية ان الجزار توصل بدهائه وبذل المال الكثير الى حمل الباب العالي في سنة ١٧٨٥ على اسناد مقاليد ولاية دمشق اليه ، مع ابقائه عاملاً ، في الوقت ذاته ، على ايالة عكا . لكن مدة حكمه في دمشق لم تتجاوز السنة الواحدة ، لان اعيان المدينة الذين اوجسوا شراً من عزمه على احتكار جميع حنطة حوران وغيرها ، ليتسنى له بيعها من السكان باسعار باهظة ، رفعوا شكواهم الى الاستانة منتهزين فرصة غيابه في الحج ؛ فجاءت « الارادة السنية » بعزله قبل رجوعه من الاقطار الحجازية . فوافاه قاضي دمشق الى « المزيريب » ، وبلّغه الامر . فمضى عندئذٍ الى عكا من غير ان يعرّج على دمشق ، وقد اخذ منه الحنق كلّ مأخذٍ على سكانها .

وقد تمكن من ارواء غليل ثأره منهم في اثناء توليه على مدينتهم ثانية في سنة ١٧٩٠ ، فكان كل سنة لدى عودته من الحج ، يقضي فترة من الزمن بين ظهرانيهم ، فيطلق العنان لنفسه ، قاتلاً فاتكاً مقترفاً شتى ضروب المآثم والمظالم . ففي السنة الثانية لتوليه الحكم ، قتل خنقاً في القلعة مئةً وستين رجلاً ، وفي السنة التالية قتل ايضاً ستين رجلاً . وقد امات نائبُه عملاً باوامره مفتيَ دمشقَ عبد الرحمن المرادي ، وعلي بك حفيد اسعد باشا العظم ، وغيرهما من ذوي الوجاهة والمكانة .

ومن شدة مكره وخبث نيته ، كان يأتي ببعض النصارى ، ويجبرهم على قتل الذين كان يريد قتلهم ؛ فكان البعض من هؤلاء النصارى يموتون جزعاً من هول العمل الفظيع الذي يأمرهم بالقيام به . وقد دام حكمه هذه المرة خمس سنين .

فارباب الامر في الاستانة الذين لم يكونوا يبالون بما يصيب الرعايا من

الحيف على يد الحكام ، جعلوا الجزار والياً على دمشق دفعة ثالثة في سنة ١٨٠٣ ، لكن مدة حكمه لم تطل ، اذ انه هلك وله من العمر ثلاث وسبعون سنة . وليس ابلغ مما قاله في موته احد معاصريه للدلالة على كره الناس له ، وفرحهم بهلاكه ، وهو :

وافى السرور وصحَّ ترجيع الأمَلْ   بهلاك ظالم لا يعادله مَثَلْ

ومن مظالمه التي لا يحصرها عدٌ شنقه للامير يوسف وكخيتهِ غندور الخوري (١) وامره بابقائهما معلقين ثلاثة ايام ؛ وكأن اقتراف مثل هذا الجرم الفظيع هاله ، فعاد الى رشده ، وبعث الى سيف نقمته يأمره بالعدول عن قتل الامير . وانما كان قد سبق السيف العذل ، فان اوامره وصلت الى الجلاد بعد ما عُلِّق الامير على اعواد المشنقة ، وفارقت روحه جسمه .

وبيروت ايضاً لم تنجُ من جور الجزار ، فانه احدث فيها ضرباً جديداً من ضروب الظلم اذ الزم رجلاً يدعى «فارس الدهان» تبليص السكان من اموالهم بدل مبلغ قدره مئتان وخمسون الف قرش اداه اليه الرجل

---

(١) هو ثالث كخيات الامير يوسف ؛ فاولهم سعد ، وثانيهم فارس ابو غندور . فغندور هذا قد توصل الى حمل الدولة الفرنسية على تعيينه قنصلاً لها في مدينة بيروت . والجزار الذي ظن ان الرجل فعل ذلك لاجل مناكدته ، حنق عليه ، واخذ يتحين الفرصة للايقاع به . ولما نحّى الجزار الامير يوسف عن الحكم ونصّب بدلاً منه الامير بشير بن قاسم ، خاف الامير يوسف سوء العاقبة ، فلجأ الى والي دمشق الذي كان آنئذٍ ابرهيم باشا دالي باش ، واقام هو وغندور وبعض الخدم في قرية منين القريبة من دمشق . فذهب غندور ذات يوم الى صيدنايا ، فرأى الكنائس مقفلة ، والكهنة تقوم بفروض العبادة في البيوت . ولما علم ان سبب ذلك يعود الى البطريرك دانيال الارثوذكسي ، اغتمّ ، ومضى في الغد الى دمشق والتمس من الوالي اعادة الكنائس الى اصحابها الاصليين ؛ فكان له ما اراد .

الذي جعل من ساعته يسوم الناس خسفاً وعسفاً ليبتزّ منهم ما استطاع من المال . فكان يقبض على الذين يتقاعسون عن تأدية المطلوب منهم ويلقيهم في غياهب السجن ، ولا يفرج عنهم الّا بعد ان يقوموا بدفع المفروض عليهم .

ومن البديهي ان يحتفظ فارس الدهان لنفسه بشطر طيب مما كان يدخل عليه على هذا النحو ، حتى غدا في وقت قصير من المثرين . فاستثار ذلك حسد المدعو الياس نصير الذي طلب من الجزار ان يحلّه محل فارس بدل ثماني مئة قرش تعهّد بدفعها فوراً . فالجزار اخطر فارساً بذلك ، وقال له : اما ان تدفع قيمة الالتزام الجديدة ، او تتنحّى عن عملك . فرضي فارس بالزيادة على ان يورد مزاحمه حتفه . فامر الجزار بقتل نصير . ومنذئذٍ اشتد ساعد فارس وجعل يذيق نصارى بيروت من العذاب امرّه ، حتى اضطرّ الكثيرون ان يعرضوا للبيع بابخس الاثمان عقاراتهم ومقتنياتهم ، لكي يتوفر لهم المال المطلوب منهم . غير انهم لم يجرؤ احد على شرآء شيء خوفاً من ان يظنّه فارس ذا مال فيمعن في تبليصه .

وهكذا عانت بيروت شدّة لم يسبق لسكانها ان يروا مثلها . ومن الذين ذاقوا الامرين رجل من بني طراد رضي ان يضحي بجميع ما يمتلكه ليقوم بتأدية المال المطلوب منه ، لكن سعيه ذهب ادراج الرياح . ولما فرغ صبره ، ولم يبقَ له طاقة على احتمال عذاب السجن ، طلب ان يسمح له بالخروج منه ليسعى لدى معارفه واقربائه ليمدوه بما كان متبقياً عليه . فما ان وصل الى شاطئ البحر حتى غافل السجان الذي كان يصحبه ، والقى نفسه في اليم ، مفضلاً الموت على البقآء في قيد الحياة ومقاساة اضطهاد البغاة .

بيد ان فارساً لم يعش طويلاً لينعم بثمر جرائمه ، فانه بعد ان مات من السكان خلق كثير ، ونفد المال من المدينة ، ولم يبقَ للجزار امل في الحصول على اكثر مما حصل عليه ، اطلق سبيل من كان منهم باقياً في السجن ، وقبض على فارس ، واخذ منه مئة الف قرش ، ثم اماته شرّ الميتات . وصاحب تاريخ « قطف الزهر » الذي ذكر ذلك قال في ختام حديثه (ص ١٢٤) : « وانجلت كربتهم (الضمير عائد الى السكان) بمصيبة فارس الدهان ، وتسلوا عن مصائبهم ، وشمتت به جميع الناس حتى اقرباؤه واصدقاؤه » .

ومن الحوادث الخليقة بالذكر في ايام الجزار ، مجيء بونبرت من مصر في سنة ١٧٩٩ على رأس جيش كبير ، وضربه الحصار على عكا ، ثم رحيله عنها من غير ان يفوز بطائل ، بعد حصاره لها من ١٩ آذار حتى ٢٠ ايار من تلك السنة . وقد ابدى الجزار آنئذٍ كثيراً من العناد والمثابرة على المقاومة بمؤازرة طائفة من السفن الانكليزية بقيادة الربان سدني سميث التي حالت دون اقتراب المراكب الفرنسية من عكا . وكان المشرف على وسائل الدفاع « فيليپو » عدو بونبرت وأحد اقرانه في المدرسة الحربية ببلدة « برين » (Brienne) .

وعكا هي المدينة التي قاست الاهوال من جور الجزار واستبداده ، اذ جعلها مقرّهُ وقاعدة حكمه ؛ وهو لم يفضّلها على غيرها للاقامة فيها إلّا لان الشيخ ظاهر العمر كان قد حسّنها وحصّنها وشيد فيها قصراً فخماً . ومن البديهي ان يصيبها اكبر قسط من تعدّياته ، اذ انه قضى فيها شطراً كبيراً من سني حياته . وكانت آثار مظالمه ماثلة للعيون حتى بعد موته . فكان يرى في اسواقها وشوارعها رجالٌ جدعٌ ؛ فالبعض

منهم كانوا بلا انف ، وآخرون بلا اذن ؛ وكثيرون كانوا عوراً . فالجزار كان في ساعات الفراغ يختلف الى احدى مقاصير قصره المطلة على الشارع ؛ فيراقب من نافذتها ما يجري هنالك ، فان وقع نظره على عابر سبيل دميم الخلقة ، يأمر باحضاره اليه ، واذ يمثل امامه يقول له : « لم أركَ من قبلُ » ، او : « انك عين تثير التشاؤم » . ثم يلتفت الى علي مملوكه الزنجي سيف نقمته (٢) ويقول : « رجل قبيح المنظر كهذا لا يستحق ان يبقى في قيد الحياة » . ثم يأمر بدقّ عنقه ، او بتر اذنه ، او جدع انفه ، او فقء عينه .

وكان رجاله عملاً باوامره يأتونه بالذين يمرون بالشارع الكبير في وقت من الاوقات . فيوقف بعضهم الى يمينه ، والبعض الآخر الى يساره ، ثم يقول : « خذوا الى المشنقة الذين من يساري ، وأقرُّوا بسخاء الذين عن يميني » . وقد حدث ذات مرة أن أمر حلّاقاً بفقء عين رجل غريب من ذوي الوجاهة ، ولمّا بدت على وجه الحلاق امارات الحيرة والتردد ، قال له : تظهر بمظهر المشمئز ، فهل الباعث على اشمئزازك جهلك لما يجب عمله ؟ فاذنْ اعلمك العمل » . ومن ساعته أغرز سبابته بعين الحلاق فقلعها ، وقذف بها في وجه صاحبها .

ومن الذين شوههم على هذا النحو « حايم » اليهودي الدمشقي المنشئ في الديوان ، وكان الجزار قد كتب اسمه مع اسماء الذين عزم على

(٢) وقع هذا المملوك في قبضة الفرنسيين في اثناء حصارهم لعكا ، فاعجب بونابرت بشجاعته ، وامر بمعاملته معاملة طيبة . وعليّ ايضاً عرف الجميل لآسريه ، فانضوى الى فرقة فرسانهم . وقد قتل في موقعة ابي قير التي خاض غمارها وهو في طليعة كوكبته .

قتلهم في جدول كان يضعه تحت وسادته ؛ غير انه عدل بعدئذ عن قتله مكتفياً بقلع عينه ، وجدع انفه ، وبتر اذنه . وعندما مَثَلَ حايم بين يديه وهو مشوَّه على ذاك المنوال ، اخذ في الضحك والقهقهة ، وقال له : « لم يدرُ قط بخلدي انك ستمسي دميماً الى هذ الحد » . ثم دنا منه ووضع يده على كتفه وقال : « انك لسعيد انت يا معلم حايم لانك صديقي ، فاحمد الله على ذلك ، ولولا محبتي لك افصلت رأسك عن جسمك » . وصار حايم بعد موت الجزار وزيراً لسليمان باشا. وكأنه كُتِب لهذا البائس ألّا يموت إلّا قتلاً ، فان عبدالله باشا والي صيدا اورده حتفه في سنة ١٨١٨ .

ولعل افظع جرم ارتكبه الجزار فتكه بنسائه البيض في احوال خليقة بالذكر : ففي بعض السنين اذ كان في الاقطار الحجازية ، ومعه مئتان من مماليكه الاربع مئة ، اعترى نساءه الملل ، والخصيان المعهود اليهم في حراستهن ، توانوا في مراقبتهن ؛ فبعض المماليك الذين ابقاهم في عكا تحت يد خزنداره القائم مقامه ، تمكنوا من دخول مخادعهن ؛ فاختار الخزندار لنفسه حظيَّة الجزار المدعوة زليخة .

وعند ما قفل الجزار راجعاً من الحج ، لحظ بوادر استثارت فيه الريبة من نسائه ومماليكه ، فاقسم ان يجعلهن عبرة لمن تحدثهم نفسهم بالعبث بشرفه . ولكيما يفرق بين الابرياء والمذنبين ، امر سليمان ، وهو اخو الخزندار بحشد الجيش في مكان يعرف بخان حاصبيا ، مدَّعياً انه يريد الزحف به على الامير يوسف حاكم لبنان ؛ فحامية المدينة المؤلفة من الهوارة والدلاتية والارناؤوط ذهبت الى معسكراتها ، ولم يبقَ في عكا سوى المئتي مملوكاً الذين عزم على اهلاكهم .

وبينما كان ذات يوم واقفاً على مقربة من احد نوافذ قصره ، لمح رجلاً طاعناً في السن ، وفي يده باقة ، يطرق باب الحريم ، ثم يناول احد الخصيان الباقة . ولما دخل الجزار مخادع الحريم ، رأى الباقة في يد زليخة الحسناء ، فقال لها : « من اين جئت بهذه الازهار ؟ » قالت : من الحديقة . قال بلطف وتصنّع : « تعالي اليَّ ؛ فاني اكثر معرفة منك فقد رأيت النعمان النصراني يأتيك بها ، فقولي لي يا بنيّتي من هو عشيقك لعلي استطيع ان ان ازفك اليه . فزليخة المغفلة ظنّته جادًّا ، فباحت باسم الخزندار . فقطب عندئذٍ وانقضَّ عليها ، وامسك بها من شعرها ، والقاها الى الارض ، وصرخ بها قائلاً : « يا لك من شقية ، لقد اعترفت بذنبك ، فلا نجاة لك من القصاص الذي تستحقينه ان لم تبوحي باسماء شركائك . وعبثاً حاولت التأكيد له انها بريئة ، لكنه بضربة سيف قطع رأسها ، وامر الجنود الهوارة الاربعة الذين تراكضوا اليه ، ان يقتلوا اللائي كن هنالك .

وعندما طرق صراخ النساء وولولتهن آذان المماليك المجتمعين في باحة القصر ادركوا انه حدث امر جلل ؛ فاخذوا سلاحهم وانطلقوا الى مقر الخزندار . وهو برج منفرد فيه الخزنة ، له ابواب مصفحة بالحديد ؛ فسدّوا جميع نوافذه وباتوا يترقبون مجرى الامور . فتفاقمت الحالة ، والجزار الذي استشاط غيظاً امرهم باخلاء البرج . لكنهم اجابوه وقالوا : « كثيراً ما لطّخت يدك بالدماء ، وها انت الآن تريد ان تسفك دمنا ؛ فنحن والحالة هذه ، نأبى الاذعان لك » . وبما ان مستودع البارود متصل بالخزنة فقد اردفوا قائلين : « وإن حاولت اخراجنا عنوة من هذا المكان فاننا نعمد الى مقاومتك ، ونظل ندافع عن ارواحنا الى ان تنفد ذخيرتنا ،

فنضرم النار في مستودع البارود فنموت نحن وتهلك انت معنا وتمسي عكا خراباً . واما ان تركتنا نرحل من غير ان يلحق بنا اذىً ، فلا نعود نفكر في اخذ ثأرنا بل نمضي الى حيث لا تسمع عنا شيئاً » . فارعد الجزار وازبد ، ولاروآء غليله امر بطرح بعض نسائه في حفرة كلس ، ووضع البعض الآخر في جواليق ، والقائهن في اليم . وكان سكان المدينة اذ ذاك في اقصى حذرٍ من الجزع ، ولم يجرؤ احد منهم على الخروج من بيته .

ففي ليلة من الليالي ، بعدما حطّم المماليك قضبان النوافذ الحديدية ، برحوا البرج ، آخذين معهم جانباً من المال الذي كان في الخزنة ، ومضوا الى خان حاصبيا ؛ وهم على آخر رمق ، وثيابهم ممزقة ، والدم يسيل من ايديهم . فمنظرهم وهم على تلك الحال اثار شجون سليمان الذي اسرع الى الانضواء اليهم . فانتشر العصيان ، وانتفضت الجنود باجمعهم على الجزار . فحالفوا الامير يوسف ، واستولوا على صور وصيدا ، وزحفوا من ثم الى عكا ، جاعلين الجزار في احرج مأزق . غير انه لم ييأس ، بل ظلّ ثابت الجأش شديد البأس . فافراد حاشيته الذين شعروا آنئذٍ بشيء من الجسارة ، اذ كان يخيل اليهم ان ساعة هلاكه قد دنت ، ألحوا عليه باعتزال الحكم ، ليبعدوا عن المدينة اهوال الحصار . لكنه اجاب وقال : « ليهدأ روعكم ، اخلائي ؛ فالله الذي في يده زمام الامور ، سيتيح لي عن قريب ان اعرب الكم عن شكري لنصيحتكم هذه » . ولتيقُّنِهِ بما يحدثه التحريض من التأثير ، عهد الى جواسيس من ذوي الفطنة والاقدام ، في التغلغل بين صفوف العصاة ، وحضّ هولاء على الطاعة ، مبينين لهم مغبّة تمردهم ، مرسخين في اذهانهم عدم الفائدة من مقاومتهم . ثم اجتذب اليه بعض سكان عكا من القادرين على

حمل السلاح ، فضمّهم الى عمال البلدية . وهكذا توصل الى ايجاد جيش صغير تمكن به من ردّ المهاجمين على اعقابهم . فولّى المماليك الادبار ، فارّين الى ما وراء البحار . ومن ثم عاد الى النساء اللاتي نجون من الموت فروى غليله منهن بجلدهن وطرحهنّ عاريات في قعر مركب ، ليُبَعْنَ في اسواق الاستانة . وبادر من ثم الى قطع اشجار الحديقة لئلا يتسنى لاحد الاختباء وراءها ؛ حتى قطاط دار الحريم لم تنجُ من نقمته.

وقد حدث ذات يوم ان مملوكاً يدعى سليمان ، وهو من المماليك المتمردين ، عاد الى القصر على حين غرة ، فلما عرفه الجزار غضب غضباً شديداً، واستل فأساً ليضربه بها ، وقال له : تباً لك من شقي لئيم ! ما الذي جاء بك الى ههنا ؟ اجاب المملوك وقال : جئت اموت على قدميك ، لاني افضل الموت على العيشة بعيداً عنك . قال الجزار : لكنك تعرف حق المعرفة ان الجزار لم يعفُ قط في حياته عن احد . فاعاد سليمان جوابه الاول . حينئذ انخفض الفأس . وقد تكررت الاقوال عينها مثنى وثلاث في وسط سكوت رهيب ؛ فكان شبح الموت باسطاً ذراعيه على ذلك المكان ، والحضور صامتون ، كانهم في حضرة رجل يجود بروحه . واخيراً رمى الجزار الفأس من يده ، وقال : هوذا الجزار يعفو لاول مرة في حياته كلها ! ..

ومن غرائب الاتفاق ان سليمان هذا خلف الجزار في الحكم ؛ ولا شك ان اختباره لمحاسن الرأفة حمله على ان يكون حليماً عادلاً بمقدار ما كان سلفه شرساً عاتياً .

بيد ان الجزار كان يميل احياناً الى النُكت . واذا طرحنا جانباً استهزاءه بالذين كان يحكم عليهم بالموت ، اتضح لنا انه كان يعرف إطراف سامعيه بملح الكلام ، ولنا شاهد على ذلك ما قاله يوماً لاحد

نصارى عكا . وتحرير الخبر ان تاجراً كان يقيم مع ابنه في بيت له طبقتان ، مشيد على شاطئ البحر . فالاب كان يسكن الطبقة العليا التي كانت جافة طلقة الهواء ، ويقيم الابن في الطبقة السفلى التي كانت رطبة وهواؤها مضر بالصحة . ولما عزم الابن على الزواج ، حمل اباه على التخلي له عن غرفه لمدة اسبوعين . غير ان الخمسة عشر يوماً انقضت والشاب وعروسه لم يخليا تلك الغرف ، فبادر الاب الى تذكيرهما بوجوب اعادتها اليه . فتوسلا اليه ان يمهلهما اسبوعاً آخر حتى يعدا العدة للانتقال الى الطبقة السفلى . لكن الاسبوع انقضى ، والشابان لم يحركا ساكناً . فالاب الذي اضنته الرطوبة اعاد الكرة وانما بلا جدوى ، اذ قال له ابنه : سيبقى كل منا حيث هو الآن ..

فالجزار الذي كان له جواسيس في المدينة ، علم منهم بالحادث ، فامر باحضار الابن . ولما مثل الشاب بين يديه ، قال له بغضب : ما هي ديانتك ؟ اجابه خائفاً متلعثماً : انا مسيحي . فقال له الجزار : ارني كيف يعرف المسيحيون بعضهم بعضاً . فبادر الشاب الى رسم اشارة الصليب ، قائلاً : باسم الآب ، والابن ... فقال الجزار : اذن يعلمكم دينكم ان الاب يجب ان يكون فوق والابن تحت . فاطع اوامر دينك ان اردت ان يبقى رأسك على جسمك ...



فهرس الكتاب

